أمريكا والإنسان

تتمثل فى أمريكا اليوم مجموعة من المتناقضات لايستطيع المفكر أن يتجاهلها ، بل يتعين عليه أن يستخلص مالها من دلالة عميقة بالنسبة الى مستقبل المجتمع الامريكى ، ومستقبل البشرية بوجه عام فهذا البلد الذى أحرز أعظم انتصار علمى وتكنولوجى عرفته البشرية فى القرن العشرين ، وأعنى به صعود الانسان الى القمر ، يشهد - فى نفس الوقت الذى أكد فيه انتصاره هذا - أقوى مظاهرات الاحتجاج على الحرب الظالمة التى يشنها حكامه فى فيتنام ، ويثور فيه الشباب بقوة وعنف معلنين رفضهم لنفس الاسس التى يقوم عليها مجتمعهم . وهذا البلد الذى يمتهن القيم الانسانية في محاولة وحشية لافناء شعب صغير ضئيل الموارد، هو ذاته الذى ترتفع فيه أقوى الاصوات مدافعة عن القيم الانسانية وعن السلام وعن كل المعانى الرفيعة التى كافحت من أجلها البشرية .

هذه التناقضات هى فى واقع الامر قدر الانسان الحديث على وجه الاطلاق ، لا قدر الانسان الامريكى وحده . ومن هنا كان مايقع هذه الايام على الارض الامريكية أمر لاتقتصر أهميته على سكان تلك البلاد وحدهم ، بل ان له أهميته القصوى بالنسبة الى الفكر الانسانى بوجه عام ، لانه سيسهم فى تحديد مركز الانسان ازاء التقدم التكنولوجى السريع المتلاحق وسيقرر ان كانت تلك القوة الكبرى ستواصل السير فى الطريق الانتحارى الذى يودى بالبشرية كلها الى الدمار ، أم ستتحول الى مجتمع انسانى يقود العالم فى طريق السلام .

ان الانسان الامريكى يخوض اليوم معركة يعمل فيها جاهدا من أجل اثبات جدارة البشرية فى أن تحيا حياة أفضل . وفى هذه المعركة أثبتت فئات معينة من الشعب الامريكى وعيا ونضجا رائعين ، وأعنى بهذه الفئات ، الشباب الامريكى ، والمثقفين ، والشعراء ، والكتاب . وفى هذا القسم ، الذى تصدره «الفكر المعاصر» تضامنا منها مع الانسان الامريكى فى كفاحه من أجل حياة أفضل لبلاده وللعالم ، ننشر خمس مقالات .

وقد لاتكون هذه سوى أمثلة قليلة للصراع الخصب الذى يدور داخل المجتمع الامريكى في أيامنا هذه بين «السلطة المسيطرة» وبين «الانسان» ، ولكنها فى رأينا أمثلة بالغة الدلالة ، تكفى لالقاء ضوء ساطع على طبيعة هذه الظاهرة الفذة التى تمر بها أمريكا فى هذه الايام الحاسمة .

شباب أمريكا و فلسفة التمرد

د. فؤاد زكريا

● يؤمن الشباب بان الحل الوحيد لكل المشكلات الثقافية أو الحضارية التى يعانى منها المجتمع الامريكى وهو التغيير الجذرى لتلك المسلمات الفكرية والنفسية التى يقوم عليها النظام الراهن .

● ان المجتمع الراهن مجتمع يحكمه الكبار، ومهما حاول الكبار أن يكونوا منصفين وموضوعيين فانهم على أية حال يفكرون بنفس العقلية التى يثور عليها الشباب ، ويتحدثون نفس اللغة التى يرفضها .

شيء رائع ، عظيم المغزى والدلالة ، ذلك الذى يحدث فى أمريكا هذه الايام • انه ، فى رأيى ، المقابل الانسانى للانتصار التكنولوجى الهائل الذى يمثله النزول على القمر • ففى الوقت الذى تبين فيه على نحو قاطع أن الامكانات التكنولوجية الضخمة التى ينطوى عليها هذا الانتصار لم تستغل لأغراض انسانية ، بل كان أبرز تطبيق لها هو زيادة قدرة الجهاز العسكرى الامريكى على ابادة شعب مسالم كشعب فيتنام ، ثارت جموع الساخطين من جميع فئات الشعب الأمريكى تطالب برد اعتبار الانسان ، **وكانت ثورتها هذه ، فى واقع الأمر ، محاولة للتذكير بالقيم الانسانية التى ينبغى أن تكون هدف كل تقدم علمى وتكنولوجى والتى نسيت فى غمرة الفرح بالنصر العظيم** •

على أن لمسيرة الجموع الهائلة من أبناء الشعب الامريكى ضد حرب فيتنام أبعادا أخرى لها فى رأيى أهمية عظمى بالنسبة الى مستقبل الكيان الانسانى فى عالم العقول الالكترونية وأدوات الدمار الشامل • **وأهم هذه الأبعاد هو سيطرة عنصر الشباب على حركات السخط هذه ، اذ أن هذه السيطرة تلقى مزيدا من الضوء على الدور القيادى الذى يقوم به شباب الأمة الأمريكية فى صبغ حركة الشباب العالمية بطابع انسانى ، وتحديد الأبعاد الثقافية والفكرية لهذه الحركة تحديدا واضحا** •

* * *

ان الألوف المتزايدة العدد ، التى تسير فى مظاهرات السخط على حرب فيتنام ، لا تعلن اعتراضها على حرب ظالمة فحسب ، **بل تعلن فى الوقت ذاته ثورة العقل الانسانى على المحاولات الجبارة التى تبذل لخداعه ووضعه فى قوالب يحددها مقدما أصحاب السلطان** • وهى لا تدعو فقط الى محاربة الجهاز العسكرى الضخم الذى يتمسك بتصعيد الحرب الفيتنامية حفاظا على مصالحه الخاصة ، بل تدعو أيضا الى محاربة كل محاولة لتشكيل أذهان الناس على النحو الذى تريده القوى المسيطرة • **وان ضخامة هذه المظاهرات ، وتزايد عدد مؤيديها يوما بعد يوم ، لهو فى ذاته دليل قاطع على الاخفاق الذريع الذى لحق باعظم محاولة عرفتها البشرية للتحكم فى عقول الناس ووضعها فى قوالب نمطية لا تخرج عنها** •

ذلك لأن حياة الأمريكى العادى ، بالرغم من أنها تتخذ على سطحها الخارجى شكلا ديمقراطيا كاملا ، وتوحى بالحرية التامة فى كل شيء ، فانها فى حقيقتها وفى باطنها خاضعة لأقسى ضروب التكييف الذهنى المدروس ، والسعى المرسوم الى تشكيل عقول الناس والتحكم فى أساليب تفكيرهم وعاداتهم اليومية • وأقول ان هذه المحاولة تمثل أقسى ضروب التكييف الذهنى ، لأن هذا التكييف يزداد قسوة كلما اتخذ طابعا غير مباشر وكلما حرص على أن يترك لدى الناس انطباعا بأنهم أكثر البشر تمتعا بحريتهم • فحينئذ يدخل العقل الانسانى فى القوالب المحددة له مقدما « بملء حريته » ، ويشارك فى عملية التشكيل الذهنى وهو يتصور أنه يمارس لعبة حرة حدد هو ذاته شروطها مقدما •

ولا جدال فى أن التكنولوجيا الامريكية المتقدمة قد بذلت قدرا كبيرا من جهودها فى سبيل تحقيق السيطرة غير الظاهرة على العقل البشرى ، أو ممارسة « الحض الخفى » (على حد تعبير « فانس باكارد » ، وهو من أبرز نقاد نمط الحياة الامريكى المعاصر) • وبدا فى وقت من الاوقات أنها استطاعت ، بطرقها الخفية التى تستخدم أبرع أساليب الدعاية والاعلان ، وأكثر طرق التحكم السيكولوجى خفاء ، أن تسيطر بالفعل على عقول الناس ، وكان من مظاهر هذه السيطرة اتفاق الأغلبية الساحقة من الامريكيين فى نظرتهم العامة الى العالم ، وايمانهم بأن القيمة العليا فى الحياة هى الثروة المكتسبة بفضل « الجهد الشخصى » ، وبأن العالم الاشتراكى يمثل قوى الشر بينما العالم الرأسمالى هو ذاته الخير المجسم ، وانقيادهم للعادات الاستهلاكية التى يبثها فى نفوسهم سيل

لا ينقطع من الاعلانات الشديدة . **والأهم من ذلك كله ، اعتقادهم الراسخ بأنهم أعظم شعوب العالم حرية ، وبأن كل حكم يصدرونه على المسائل الخارجية والداخلية انما صدر عن تفكيرهم الحر الذى لا يخضع لأى مؤثر خارجى** ، حتى أصبحت عبارة « **هذه بلاد الحرية** » من أكثر العبارات تداولا حتى على مستوى النقاش اليومى العادى بين الناس .

ثم جاءت حركة السخط على حرب فيتنام ، فاذا بها برهان ساطع على أن كل هذه الجهود الجبارة قد أخفقت . **وكان من الطبيعى أن تكون الفئة التى ظهر فيها هذا الاخفاق على أوضح صورة هى فئة** الشباب المثقف ، وهم أكثر العقول قدرة على مقاومة الاتجاه الجارف الى صب العقول فى قوالب جامدة وفى الوقت ذاته أقلها تلوثا بالمصالح النفعية وأكثرها تعلقا بالمثل العليا الانسانية .

وكانت هذه الظاهرة الفريدة محيرة بحق لواضعى السياسات وراسمى الخطط ، وذلك لاكثر من سبب : فهى قد حدثت فى « مجتمع الرخاء » ، حيث تعيش نسبة كبيرة من السكان فى أعلى مستوى عرفه الانسان على مر التاريخ ، والمفروض ، فى « مجتمع الرخاء » ، ألا يكون للمرء أكثر التساؤل شديد الالحاح ، لأن كل شئ متوافر وميسور ، فعلام السخط اذن ؟ وكيف يتحدى الناس قيم المجتمع الذى وفر لهم كل مطالبهم المادية ، وهيأ لهم من الترف ما تحسدهم عليه معظم شعوب الأرض ؟ ومن جهة أخرى ، فان حرب فيتنام قد نشبت – أصلا – لخدمة أغراض خارجية فى مناطق بعيدة كل البعد عن الاراضى الامريكية ذاتها ، فكيف تغير الوضع الى الحد الذى أصبحت فيه لهذه الحرب تأثيرات فى داخل البلاد لا تقل قوة عن أصدائها فى خارجها ؟ وكيف تحولت المغامرة العسكرية ذات الأهداف التوسعية الخارجية الى حركة سخط شامل على أسلوب الحياة فى الداخل ؟

***

ان السر الكبير وراء هذه التحولات المفاجئة التى حيرت أصحاب الخطط وواضعى السياسات وجاءت مخالفة لجميع حسابات العقول البشرية والالكترونية على السواء ، يكمن فى تلك القوة الرائعة التى أحدثت فى المجتمع الامريكى أول تحول حقيقى عميق يطرأ عليه منذ عشرات طويلة من السنين ، وأعنى بها قوة الشباب .

فلأول مرة يخوض الشباب الامريكى ، فى هذه الأعوام الأخيرة ، وفى الفترة الراهنة بوجه خاص صراعا « ثقافيا » – بأوسع معانى هذه الكلمة – ضد طريقة تفكير كاملة ، وضد « **أسلوب الحياة الأمريكى** » الذى كان دائما مبعث فخر واعتزاز شديد للأمريكيين ، ولأول مرة تكتسب الحركة أبعادا لا يمكن معها أن تتهم بأنها تعبر عن مصالح حزب معين أو جماعة معينة ، بل لا يكون هناك مفر من الاعتراف بأنها **اتجاه عام يرمى الى مراجعة قيم ظل هذا المجتمع يأخذها قضية مسلما بها طوال الجزء الاكبر من تاريخه** ، وبأنها دعوة الى ادخال أهداف الحب والسلام فى نمط الحياة الامريكية ، واعطائها المكانة التى كان يحتلها البحث عن الثروة والنجاح العملى والتنافس المرير فى سبيل الصعود على حساب الاخرين .

وليس ادل على هذه الأبعاد المتسعة التى تتخذها حركة الشباب الامريكى الراهنة ، من ان القائمين بها يربطون على الدوام ربطا وثيقا بين حرب فيتنام وبين مشكلة التمييز العنصرى ومشكلة الفقر . فهم يدركون ، بوعى عميق ، ان نفس القوى ، ونفس العقلية التى تبعث بزهرة شباب الأمريكين لتمارس القتل أو تقتل بلا سبب فى فيتنام ، هى ذاتها التى تحرم الملونين من أبسط حقوقهم الانسانية ، وهى ذاتها التى تترك أقلية غير قليلة تعانى من الفقر وتحيا فى ظروف معيشية غير انسانية ، وسط مجتمع ينفق على دعم نظم الحكم الفاسدة (ولا أقول على التسلح) أضعاف ما يلزم لضمان حياة كريمة لكل فرد فى هذه الاقلية التعيسة . ومن جهة أخرى فان الأسلوب الذى تحاول السلطات المسيطرة أن تقنع به خصوم حرب فيتنام هو ذاته الأسلوب الذى يتبع فى محاولة اقناع الساخطين على التمييز العنصرى والفقر ، اذ يقول لهم : **ان المسألة أعقد من أن تحل على الفور ، فهناك عوامل كثيرة متشابكة متداخل فيها ، ولا بد من التزام الصبر لأن مضى الوقت كفيل أن يصلح كل شىء .**

والواقع أن شمول نظرة الشباب الى المشكلات التى يواجهها المجتمع الأمريكى ، وقدرتهم على الربط بين أمور تبدو فى ظاهرها منعدمة الصلة فيما بينها ، هى التى تميزهم عن كثير من الكتاب الكبار الذين لم يستطيعوا تقدير العوامل التى تدفع الشباب الى التمرد ، على الرغم من أنهم يقفون موقفا يتسم بالتقدمية فى كل مشكلة من هذه المشكلات على حدة . **هؤلاء الكتاب لا يعترفون بأن سبب**

المشكلات كلها واحد ، وحلها واحد ، بل يفضلون الحلول الجزئية المنفصلة لكل ظاهـرة على حدة ، وبذلك يشتركون ، دون أن يشعروا ، فى نفس طريقة التفكير التى تولدت عنها كل هذه الشرور .
هؤلاء هم الذين يرون فى حركات الشباب تمردا أهوج ، ويدعون الى « التعقل والحكمة » وهى فى رأيهم صفات لا ينبغى أن يعد من يتميز بها محافظا أو رجعيا بالضرورة .

أما الشـباب فيؤمنون بان الحل الوحيد لكل المشكلات الثقافية أو الحضارية التى يعانى منهـا المجتمع الامريكى هو التغيير الجذرى لتلك المسلمات الفكرية والنفسية التى يقوم عليها النظام الراهن انهم بدورهم يدعون الى نوع من « الثورة الثقافية » بمعنى خاص بهم ، وهم ليسوا أقل رغبة فى تغيير أسلوب الحياة فى مجتمعهم من الشباب الثائر فى أى بلد آخر . ومن هنا كانوا ينظرون الى أى حل جزئى على أنه ، فى حقيقته ، دعم للنظام القائم ، وعامل على زيادة فعاليته ، مهما بدا فى الظاهـر مرتكزا على أسس نقدية .

أما الدعوة الى « التعقل والحكمة » ، فقد تكون فى ذاتها شيئا مرغوبا فيه ، **ولكن ما معنى التعقل فى مجتمع أصبحت كل تصرفاته بعيدة عن العقل وظهر بوضوح ان المشكلات التى يعانيها مرتبطة بنفس الأسس التى يقوم عليهـا « النظام » لا بتصرفات هوجاء يقوم بها مجموعة من الزعمـاء الأغبياء ، أو من الأفراد الأشرار ؟**

وهكذا استطاع الشباب الامريكى المتمرد ان يثبت حقيقة ما زال الكثيرون يترددون فى الاعتراف بها : وهى أن الشباب قد يكون أحيانا أعظم خبرة من الكبار ، وقد يكتسب قـدرة على الربط بين الظواهر التى تبدو متباعدة ، وعلى النظر الى الأمور نظرة « كلية » ، يعجز عن بلوغها أصحاب الخبرة والتجربة ، الذين تظل نظرتهم محدودة باطـار النظام القائم ، ومن ثم لا يستطيعون تأمل الامور الا فى جزئياتها . وقد لا يكون من العسير تعليل هذه الحقيقة التى تبدو غريبـة لأول وهـلة : **ذلك لأن الشباب لم يندمجوا بعد اندماجا كاملا فى المجتمع الذى يتخذون منه موقف الرفض ، ولذلك كانوا أقدر على تكوين نظرة كلية ازاءه من أولئك الذى تشابكت مصالحهم مع النظام القائم ،وأصبحوا يكونون جزءا لا يتجزأ منه . وفضلا عن ذلك فان الشباب ، الذين يعلمون أن حياة طويلة ما زالت تنتظرهم ، لا بد أن يكونوا أكثر اهتماما بالمستقبل وبمصيرهم فيه من أولئك الذين قطعوا من العمر شوطا أطول .**

* * *

ان الشباب الأمريكى ، على أية حال ، يقـود فى الوقت الراهن حركة رائدة تستهدف الثورة على حماقات الكبار التى يسمونها سياسة حكيمة ولا ترمى فى نهاية الأمر الى أقل من اعادة النظر فى نظام الحياة الذى يتبعـه المجتمع الامريكى بأسره . ومن الطبيعى أن تتخذ السلطات موقفا معاديا لهذا التمرد ، وان كان اتساع نطاق الحركة يمنعها من ان تعبر عن هذا العداء بعنف سافر . ولكن ما يعنينا ليس موقف السلطات من حـركة الشباب ، وانما هو موقف المجتمع بوجه عـام ازاءها . فما الذى يستطيع المجتمع أن يقوم بـه نحو الشباب ، وما الذى يمكن أن ينتظره الشباب من المجتمع ؟ .

ان المجتمع الراهن مجتمع يحكمه الكبار .ومهما حاول الكبار أن يكونوا منصفين وموضوعيين ،فانهم على أية حال يفكرون بنفس العقلية التى يثـور عليها الشباب ، ويتحدثون نفس اللغة التى يرفضها



وهكذا يبدو أن كل محاولة يبذلها الكبار لفهم مشاكل الشباب ـ ولا أقول لحلها ـ تواجه صعوبات أساسية ، بل ربما كانت مستحيلة من حيث المبدأ · فلا بد للكبار ، اذا شاءوا أن يفهموا الشباب ، من أن يخرجوا عن اطارهم الفكرى المألوف ، ويلجأوا الى الخيال الذى يتيح لهم أن يضعوا أنفسهم موضع الشباب ، ولكنهم حتى فى هذه الحالة يتعرضون للرفض من جانب الشباب الذين يصرون على أن عقلية الكبار ستظل الى الابد حبيسة اطارها الخاص ·

بل ان الشباب يتمردون على المعانى التى يحملها لفظ « الشباب » ذاته فى اذهان الكبار · فهذا اللفظ يتضمن معنى عدم الاستعداد لخوض معترك الحياة ، والافتقار الى القدرة على تحمل المسئولية · وعندما يتحدث الكبار عن الشباب ، فان ذهنهم يتجه الى معنى الوصاية والحماية التى يحتاجون اليها ، والعجز وقلة الخبرة · ولكن من المسئول ، فى نهاية الأمر ، عن تحديد المرحلة التى تبدأ عندها المسئولية الحقيقية فى المجتمع ؟ ان مصالح الكبار هى التى أملت الوضع الحالى الذى لا يصبح فيه المرء مشاركا فى المسئولية الا بعد سن معينة بينما يعد كل من هو أدنى من هذه السن انسانا « غير ناضج » · مثل هذا التقسيم للأدوار التى تقوم بها فئات العمر فى المجتمع ليس أزليا ، ويمكن أن يتغير تبعا للثقافة السائدة فى كل عصر **ولكن الطابع المميز لعصرنا هو أن هذا التغير لم يعد يفرض من المسيطرين على تقاليد الأمور · بل أصبحت تطالب به جماعة متحررة من الشبان · تريد أن تؤخذ مأخذ الجد ، وأن تعد عنصرا أساسيا فى المجتمع ، وتأبى أن يكون كل فرد فيها مجرد « مشروع انسان » ، لا تكتمل مقومات انسانيته الا حين يدخل عالم الكبار ·**

ولكنا نعود لنتساءل مرة أخرى : ما موقف الكبار من أمثال هذه المحاولات ؟ هل هم على استعداد لمراجعة أساليب تفكيرهم من أساسها ، والاعتراف بأن كل ما يأخذونه على أنه « بديهى » ليس فى الواقع بديهيا ؟ **وهل تبلغ بهم موضوعية التفكير حدا يسمح لهم بأن يتصوروا أنهم قد يكونون هم الشواذ والمنحرفون ، لا الشباب ؟ هل يستطيعون ، فى حدود اطارهم الفكرى الخاص ، أن يصلوا الى هذه القدرة فى التجرد والتنزه والنقد الذاتى ؟** أم أن هذا المطلب مستحيل بحكم طبيعة الأشياء ومن ثم يتحتم أن يظل الصراع قائما ؟ أغلب الظن أن نتيجة هذا التساؤل ستظل سلبية ·

وفى وسعنا أن نصل الى هذه النتيجة السلبية ذاتها اذا تأملنا الأمر من وجهة نظر الشباب أنفسهم · فلنفرض أن شباب اليوم قد حققوا أهدافهم ، وأصبحت لهم كلمة مسموعة فى تسيير أمورهم العامة والخاصة ، وفى توجيه دفة المجتمع عندئذ سيصبحون ، عاجلا أو آجلا ، جزءا من « المؤسسة » ، ومن النظام القائم ، ولا بد أن يثور عليهم الجيل الجديد ، حتى لو كان النظام قد تحول على ايدى الجيل السابق الى ما هو أفضل ذلك لأن مجرد وجود هذا الجيل فى موقع السلطة يجعله موضوعا للشك والريبة فى نظر ابناء الجيل اللاحق · **وهكذا يبدو أنه لا مفر من استمرار حالة الثورة والسخط بين الأجيال ، بحيث تبدو ثورة الشباب الحالية مجرد بادرة أولى لحالة ستظل البشرية تعيش عليها أمدا طويلا ·**

أما تعليل استمرار هذه الظاهرة فأمره ميسور: **ذلك لأن معدل التغير فى العالم المعاصر يزداد سرعة بالتدريج ، ويترتب على ازدياد معدل التغير على هذا النحو ، مزيد من الاتساع فيما يسمى « بالفجوة بين الأجيال »** · فبين جيل الأب وابنه تحدث الآن تغيرات لم يكن العالم يشهد نظيرا لها الا بين أجيال متباعدة تفصل بينها فترات زمنية كبيرة · ولما كان معدل التغير هذا سيزداد سرعة فى المستقبل ، ففى وسعنا أن نتنبأ ، دون عناء ، بأن عدم التفاهم بين الكبار والصغار سيظل قائما بل سيزداد حدة فى المستقبل ·

واذن ، فتمرد الشباب وسخطهم ، فى أيامنا هذه ، ليس الا البوادر الأولى لظاهرة سنظل نعايشها طويلا ـ الا اذا استطاعت البشرية أن تهتدى الى الصيغة التى تستطيع بها أن تطور نفسها ، فى جيل معين ، على نحو يعمل حسابا لمطالب الجيل التالى بطريقة طبيعية لا تحتاج الى تنبيه صارخ من أفراد الجيل الجديد ، ولا الى مقاومة عنيدة من أفراد الجيل القديم · ومثل هذه الصيغة تحتاج ، دون شك ، الى طريقة فى فهم الأمور ، وفى تدبير شئون المجتمعات البشرية ، تختلف عن كل ما اعتدناه حتى اليوم ·

* * *

على أننا اذا كنا نرى فى تمرد الشباب ظاهرة لا مفر منها ما دام العالم يسير على الوتيرة الحالية فى علاقاته الدولية وفى نظرته الى العلاقة بين

الأجيال المختلفة فى المجتمع الواحد ، فمن واجبنا أن ننبه الى أن **هذا التمرد يتفاوت شدة بين المجتمعات المختلفة ، ويبلغ أقصى مداه فى تلك المجتمعات التى يضطر فيها الشباب الى أن ينبهوا الكبار ، على طريقتهم الخاصة ، الى الحماقات التى لا يكفون عن ارتكابها فى الميدان الداخلى والخارجى ·**

ومن هنا كان التمرد بين الشباب الامريكى ، على وجه الخصوص ، ظاهرة لا مفر منها ، لأن استهانة الكبار فى هذا البلد بالمسئولية الخطيرة الملقاة على عاتقهم نتيجة لتوليهم أمور اغنى دول العالم واقواها ، يثير فى نفوس الشباب سخطا عارما ، ويزيد من احساسهم بفداحة الخطر الذى يتعرض له العالم بأسره ، لا بلاؤهم وحدها ، من جراء ضيق أفق أصحاب السلطة ، وفساد النظام الذى يجهدون أنفسهم من أجل المحافظة عليه · **ان الشباب الامريكى ، فى أيامنا هذه ، لا يهدف الى أقل من انقاذ العالم بأكمله ، لا انقاذ أمته أو نفسه فحسب ، من الدمار الذى لا بد أن يتعرض له لو استمرت السياسة الامريكية ، فى الداخل والخارج ، تسير فى اتجاهها الحالى ·**

وفى اعتقادى أن أفضل سبيل الى عرض وجهة نظر هذا الشباب الامريكى المتمرد الى القارىء العربى هى أن أقدم اليه ، مباشرة ، شهادة واحد من ابناء هذا الجيل المتمرد ، يعبر فيها عن عمق الهوة بين تفكير الشباب وتفكير الكبار فى هذا البلد ، ويكشف عن ذلك الاحساس الطاغى بفداحة المسئولية ، الذى يشعر به فتية توهم كل تصرفاتهم الظاهرة بافتقارهم الى الشعور بالمسئولية ولقد وجدت فى شهادة أحدهم ، وهو « **جيمس كونن** » ، من الاخلاص من صدق التعبير ما رأيته جديرا بأن ينقل الى القارىء ، فى ختام هذا المقال ، فى ترجمة شبه حرفية (*) ·

« ·· ان الاكابر جماعة صغيرة من الناس ، لا يعرف عنها ـ عدا ذلك ـ الا القليل · وهم على الأرجح من كبار السن · وهم يمتلكون ثروة تفوق حدود الخيال · وليست لديهم حاجات أو رغبات حقيقية ، بل انهم يمضون فى انفسهم السير كما لو كان نوعا من الهواية المتسلطة على عقولهم · وهم يجلسون فى حجرات يملؤها الدخان ومن ثم يمكننا افتراض انهم يدخنون السيجار · وفى مجالس الأكابر يستطيع المرء أن يستمع الى قرارات ما كان يخطر بباله ان احدا يمكنه اصدارها · اشتر أوراجواى ! بع بوليفيا ! امسك بالهند ! لوث نيويورك ! ان قراراتهم تتنوع الى حد يستحيل تصورها ، لكن بينها جميعا عنصرا مشتركا هو أنها تنفذ على الفور ، وأنها فى كل الاحوال موجهة ضد الانسان العادى البسيط ·

ان الأكابر يكذبون ·· فهم يكذبون فى الأمور الصغيرة ، كالاعلانات ، وفى الامور الكبيرة ،مثل فيتنام ، والتفرقة العنصريه ، والديمقراطية وكل هذه الأمور تسير على وتيرة واحدة ـ فلا وجود للصدق فى أى شىء ·

والكبار يسيطرون · فقد قرأت موضوعا فى التاريخ كان يكتبه تلميذ فى المرحله الاعداديه عن الحرب الأسبانية الامريكيه ، وفيه يقول ان أمريكا دخلت حرب عام ١٨٩٨ لكى تحرر الكوبيين المساكين من الطغيان · وأضاف ان أمريكا ، بحكم تقاليدها ، تقف ، عندما تحارب ، فى جانب الدفاع عن حق العدالة والحرية ، ولذلك فهى دائما تنتصر ، « كما هى الحال فى فيتنام اليوم » · لقد وضع الأكابر هذا الصبى حيث يريدونه أن يكون وهم قد استولوا على عقله ، وعندما يبلغ الثامنة عشرة سيستولون على جسمه ·

أنظر حولك ، سترى الاكابر فى كل مكان · أنظر على الرصيف المجاور لبيتك ترى سياراتهم التى يبنونها بحيث تتفكك بعد ثلاث سنوات ، ويجعلون الجميع يشترونها ، وهم داخلون فى صناعة البترول وتجارته أيضا ، حتى لا تقلق على الأميال التى تقطعها سيارتك · وليس فى وسع أحد أن يجعل هذه السيارات تتغير · فاذا نظمتم أنفسكم وطالبتموهم بأن يتفضلوا بصنع كل حواجز الاصطدام الخلفية والأمامية فى السيارات بحيث تكون على ارتفاع موحد لكى يصبح عدد من يقتلون منا فى حوادث السيارات فى العام المقبل أقل قليلا من خمسين ألفا ، فانهم يرفضون ·وهم يرفضون لأن ذلك سيكلفهم هذا بالاضافة الى أن حواجز الاصطدام لو أصبح لها ارتفاع واحد ، لما عاد هناك مجال الاختيار ، الذى هو لب

(*) أنظر مقال جيمس كونن بعنوان « لماذا تقف ضد الاكابر » (مجلة اتلانتيك الشهرية، عدد أكتوبر١٩٦٨) وانظر أيضا مقالا بنفس العدد من تأليف « ريتشارد بواريه » بعنوان « الحرب على الصغار »، استخلصنا منه أجزاء متفرقة من المادة التىبنى عليها مقالنا هذا .

(*) أما لفظ «الاكابر» الوارد فى كونن ، فهو ترجمة لفظ Biggers الذى يستخدمه كاتب المقال بطريقة ساخرة للتعبير عن « الكبار المسيطرين » ·

الديمقراطية . فان لم تكن تعرف أن هذا هو لب الديمقراطية ، فهناك اعلانات كثيرة تذكرك بذلك مثال ذلك : يبدو ان البلاد الاشتراكية لا تعرف الا ثلاثة ألوان من طلاء الشفاه ، على حين ان الرأسمالية تقدم لك أربعين لونا .

وبهذه الألوان الاربعين من طلاء الشفاه يتحول الاكابر بنسائهم الى عرائس من الحلوى ، تجلس بجاذبيتها الجنسية المصنوعة في المقاهي وهي ترسم صورا رخيصة في الهواء بدخان سجاير لم يكن في نيتها ابدا ان تبدأ في تدخينها . وربما استمعت حديث الثرثرة التي تدور بينهن حول ما ينبغي عمله بعد ذلك ، الى ان تحاصرك وهي تقول « هنا بلاد الحرية » .

ولكن هذا ليس بلد الحرية . فأنت لا تستطيع ترك الدراسة لانك لو فعلت فستجند ، وعليك أن تدرس أشياء بعينها لتحصل على شهادة ،وعليك أن تحصل على شهادة لكي تنجح عمليا ، وعليك ان تنجح عمليا لتحصل على ما تريد ، لأن هذه كلها أمور رسمت خطتها في ذهنك من قبـــل . انك تستطيع أن تقول ما تشاء ، ولكن احدا لن يسمعك لأن وسائط الاعلام تسيطر على الكلام . اما اذا استطعت بطريقة ما أن تسمع الناس صوتك فانهم لن يقبلوا ما تقول ، لأن الاكابر علموهم ما ينبغي لهم أن يقبلوه . فاذا لم يقبلوا كلامك فقد يصل بهم الأمر الى حد قتلك لأن الحكومة تؤيد مبـــدأ القتل على سبيل العبرة الموعظة .

... ان الكبار يقتلون الناس في فيتنام ويضعون السود في القاع داخل البلاد ، لانه لا بد لهم ان يضعوا بعض الناس في القاع حتى يسير نظامهم بنجاح ، أو هكذا كانوا يظنون . ولكنهم اليـــوم يجدون أن المحبوسين في القاع يستطيعون بحق أن يلحقوا بهم ضررا بالغا ، ولذلك لم يعد لديهم مانع من أن يرفعوهم الى أعلى قليلا ، ولكن هـــذا لا بد أن يكلفهم مالا ، ولذلك فانهم سيحاولون مؤقتا . أن يبقوهم في القاع بأن يعطوهم وعودا بمكافآت اذا أحسنوا السلوك .

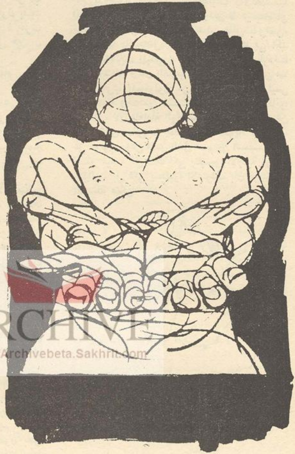
... اننا لا نحب التجنيد على الاطلاق ، لأن أمامنا حياة طويلة نعيشها ، وقد صممنا على ذلك . فالقتل والموت ليسا من شأننا .

... لقد قررنا ، بعد أن رأينا ذلك كله ،أن نغيره . وبطبيعة الحال فانك تستطيع أن تعتزل أو تتنحى اذا كان هناك شيء لا تحبه ، ولكنك لو تنحيت فسوف يواجهك شيء آخر لا تحبه ،ولايمكنك أن تظل تتنحى وتنسحب الى الأبد لأنك لن تجـد في النهاية مكانا تذهب اليه . لذلك قررنا ان نغير الاوضاع . فقدمنـــا الطلبات ، ونظمنـــا المظاهرات ، وكتبنا الخطابات ، ولكن لا حيـــاة لمن تنادى ، والذى حدث هو أننا لم نقابل بالرفض، بل قوبلنا بالتجاهل . وهـــكذا قمنا في أحد الايام باحتلال المباني ، وبعد بضعة أيام طردنـــا منها واعتقلنا وكان الضرب من نصيب الكثيرين منا .. وأعرب المسئولون عن الأسف لأن البوليس جرح مائة وخمسين شـــخصا ، وبالفعل كانوا آسفين ، لأن المعاملة الوحشية كشفت للجميع عن المدى الذى يمكن أن يمضى اليه الأقوياء ليحافظوا على قوتهم ، وعن المدى الذى هم على اســـتعداد للسير فيه ، كل ذلك لكي يتجنبوا الاجابة عن أى سؤال ، بل لكي يتجنبوا الاعتراف بأن توجيـــه الأسئلة ممكن .



وفي الوقت الذى اكتب فيه هذا ، وتقرءونه ، يموت أناس كثيرون . وهكذا ترون أن المسألة ليست موضوعا لأحاديث المثقفين أو لمقالات في المجلات . انها مسألة لا بد من مواجهتها .ولذلك فان ما نقوم به في جامعاتنا ليس ثورة ، بل هو هجوم مضاد . اننا نحارب لكي ننقذ معاهدنا من الروح التجارية ومن الحرب ، ولكي نعيد توجيهها نحو المعرفة ونحو الحياة .. هناك خمسة ملايين طالب جامعي أمريكي واقفون في الانتظار ، منهـم عدد ضخم نفد صبره نهائيا من الأكابر » .

فؤاد زكريا



أمريكا والإنسان

المثقفون والسياسة فى الولايات المتحدة

أريك جولدمان
ترجمة : أسعد حليم

ماذا يفعل المواطن اذا وجد بلاده باتت تحكمها عصابات القتلة ؟ وماذا يفعل الاديب حامل الكلمة ـ اذا رأى قادته يتجاهلون صوت الشعب ، ويفرضون ارادتهم الغاشمة التى تناقض ارادة الغالبية الساحقة من الناس ؟

ان مفكرى اوربا قد اعتبروا كل المانى سكت عن الاحتجاج على النظام النازى مسئولا عن ذلك النظام . وكتب سارتر : «اذا حدث أن قام فى بلادنا أو فى بلاد أخرى ـ شكل من أشكال الاضطهاد الاقتصادى أو العنصرى ، فاننا نلقى مسئوليته على كل من لايرفع صوته بالاحتجاج عليه . واذا وقع ظلم في أى ركن من أركان العالم فاننا نحمل نحن أيضا مسئوليتنا عنه» .

واذا كان ساسة أمريكا يحملون اليوم لواء الشر فى العالم ، فان مثقفى أمريكا هم وجهها المشرق . وفوق أرض الولايات المتحدة . التى تجمع أعمق المتناقضات ـ يقف المثقف وراعى البقر وجها لوجه . واذا كان عشرات الالوف من أبناء أمريكا ينظمون «مسيرة الموت» لاعلان سخطهم على سياسة بلادهم ، فقد وقف عدد من المثقفين الامريكيين وقفات بطولية ضد النظام الدموى الذى يحكمهم .

وفى أحد الايام فى سنة ١٩٦٥ ، حاول ليندون جونسون أيام رئاسته للولايات المتحدة أن يجمع المثقفين حوله ، وأن يضمهم الى حاشيته . ولكن ضمائرهم لم تطاوعهم ، ووقفت «الثقافة» حاميا لهم مما يدبر ضدهم .

وكان الرجل الذى قام بتنفيذ المحاولة يومها هو اريك جولدمان ، استاذ التاريخ بجامعة برنستون ، وقد عمل مستشارا خاصا للرئيس جونسون بين عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، وهو مؤلف الكتاب الشهير «موعد مع القدر» ، كما خرج من تجربة العمل فى البيت الابيض الى جانب جونسون بكتاب آخر جعل عنوانه «مأساة ليندون جونسون» وقد صدر الكتاب عن دار الفريد نوب فى شهر فبراير الماضى .

والمقال التالى هو تلخيص لاحد فصول هذا الكتاب ، نقلا عن الصفحات التى نشرتها مجلة «هاربرز» الامريكية فى عددها الصادر فى ينـاير ١٩٦٩ .

أ ح

فى فبراير ١٩٦٥ ، حضرت الى مكتبى السيدة « **بس آبل** » ، السكرتيرة المختصة بالنشاط الاجتماعى فى البيت الأبيض ، وقالت انها بصدد دراسة جدول نشاط الرئيس الامريكى فى الموسم القادم . ولاحظت أن الربيع يقترب ، وتساءلت عن رأيى فى القيام بعمل « **ثقافى** » يناسب الموسم ؟ **وقالت اننا لا ننسى ان الرئيس** كنيدى استفاد كثيرا من حفل العشاء الذى أقامه **للأدباء والعلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل .** ونحن لا نريد طبعا أن نقلد خطى كنيدى ، ولكن هل فى وسعى أن أفكر فى شىء فى نفس الاتجاه ؟

وانتهى بى التفكير الى مشروع محدد : هو **اقامة مهرجان للفنون تحت رعاية البيت الأبيض. ورأيت أن مثل هذا المشروع يمكن أن يكون** مناسبة طيبة لتوجيه التحية الى أبناء أمريكا الذين يعملون فى صمت لاقامة المسارح وبناء قاعات الموسيقى فى الريف ، والى الرجال الذين ينظمون جماعات القراءة والمناقشة ، والذين يدعون الى حفلات موسيقية هدفها تنمية التذوق الفنى بين الناس . واستقر رأيى على تجاهل جميع العناصر التى تتزاحم على كل فرصة لتسليط مزيد من الأضواء عليها . **وقدرت أن المهرجان يمكن أن يضم ممثلين لمختلف ألوان الفنون .** وبدأت أتخيل ردهات البيت الابيض وقد غطيت حوائطها بالرسوم من انتاج الفنانين الامريكيين المعاصرين وأتخيل الحديقة الجنوبية حافلة بأعمال النحت ، والقاعات العريقة الانيقة تردد أصداء المقطوعات الموسيقية الجديدة، والادباء الكبار يقرأون صفحات من انتاجهم تحت لوحات **جون آدامز وابراهام لنكولن .**

ورحبت السيدة بس آبل « بالفرقعة » التى

يمكن أن يحدثها المهرجان ، ولكنها بدأت تتراجع عندما شرعنا فى مناقشة التفاصيل · وقالت «**ان الكتاب والفنانين يمكن دائما أن يخلقوا المتاعب**» وعند ذلك غيرت موضوع الحديث وناقشت معها أمورا أخرى ·

وكان شعار العمل فى البيت الابيض أيام جونسون هو ماكنا نصفه بالاستقلال الذاتى · وكنا نقول : ان كل عصى العجلة تتجه الى مركزها · واذا أراد أحدنا أن ينجز عملا فما عليه الا أن يتحرك على امتداد عصاه ، ويتجنب الالتحام بالعصى الاخرى التى قد تفسد مشروعه · **وهكذا بادرت بارسال مذكرة الى الرئيس أحبذ فيها اقتراح اقامة مهرجان للفنون تحت رعاية البيت الأبيض ·**

قدم الاقتراح فى ٢٥ فبراير · وكانت الفكرة فى البداية أن يقام الاحتفال يوم ١٢ ابريل أى بعد نحو ستة أسابيع ، وهى فترة كافية للاستعداد اذا أدخلنا فى الاعتبار الامكانيات الخاصة للبيت الابيض · **ولم يكن الهدف دعوة المثقفين والفنانين أنفسهم ، بل ان يكون المدعوون الرئيسيون أولئك الذين يشجعون الفنون فى مختلف الولايات والمحافظات ·· رؤساء اللجان الفنية ·· رؤساء لجان رعاية الموسيقى فى كل اقليم ، المشرفون على الجمعيات الفنية ، والمتاحف وأمثالها** » · ولم يكن فى المذكرة ما يوحى بأنه **على ليندون جونسون** أن يتظاهر بأنه من المهتمين بالفنون الرفيعة · وتضمنت المذكرة - حسب قواعد العمل فى البيت الابيض أيام جونسون - نوعا من « **السيناريو المقترح** » (وكانت كلمة سيناريو هى الكلمة المستخدمة) يحدد توقيت التحركات المختلفة ، ويرسم دور الرئيس والسيدة الاولى ·

وعادت الى المذكرة وعليها تأشيرة الرئيس والسيدة جونسون بالموافقة · ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك ، غير أنى لم أتلق الموافقة الرسمية على المشروع الا يوم ٢٣ مايو · وعندما اجتمعت بالسكرتير الشخصى « **جاك فالنتى** » لتحديد موعد جديد للمهرجان وجدت أن أبعد موعد يمكن أن يلائم جدول أعمال الرئيس هو ١٤ يونيو ·

ترى ماذا كان الدافع الذى حفز الرئيس جونسون للموافقة على اقامة المهرجان ؟ لست أدرى على وجه التحديد · ولكن لا شك فى أنه وجد فيه وسيلة تقربه من الفئات المهتمة بالفنون ، **غير ان هناك دافعا آخر · فبين التاريخ الذى اقر فيه جونسون الفكرة مبدئيا ، والتاريخ الذى اعلن فيه موافقته الرسمية ، جرت عدة أحداث هامة ، كان من بينها اصدار أوامره بالاستمرار فى ضرب فيتنام الشمالية بالقنابل ، والقيام بالتدخل فى جمهورية الدمنيكان** · وادى هذان الموقفان الى ازدياد موجة النقد لسياسة الحكومة فى دوائر المثقفين والفنانين · وربما خطر له عندئذ أن المهرجان يمكن أن يكون أداة لخفض صوت المعارضين للحرب · بيد أنى لا أعتقد أن كان لهذا الاعتبار ذاته أهمية كبيرة ، **فالرئيس لم ينظر الى المهرجان نظرة جدية فى أى وقت وكان لا يرى فيه أكثر من مناسبة لطيفة ، ونشاط اجتماعى خفيف يقوم به رئيس الجمهورية استجابة للاهتمام العام فى الامة بالفنون ، ثم هو فى آخر الامر نشاط يثير اهتمام السيدات بصفة خاصة · وذلك كاف ·**

فى ٢٣ مايو تمت الموافقة ، وفى ١٤ يونيو يقام الاحتفال · وليس بينهما غير ٢٢ يوما · وقمت مع المشتغلين معى بتقسيم المهرجان الى سبعة أقسام رئيسية : **التصوير ، النحت ، الأدب ، الموسيقى (الجادة والجاز) ، الرقص ، السينما التصوير الفوتوغرافى** · اللوحات والتماثيل والصور تعلق بطبيعة الحال ، والافلام تعرض والموسيقى تعزف ، والتمثيليات والرقص تجرى على المسرح ، أما الادب فيقوم فى صورة قراءة الأدباء لبعض انتاجهم · ولم نبذل أى جهد لاختيار « **الأفضل** » فى أى ميدان ، فتلك فى تقديرى محاولة سخيفة ، بالاضافة الى أنها محاولة لا تلائم البيت الأبيض ·

وبدأنا سلسلة واسعة من الاتصالات الشخصية والتليفونية بالخبراء والنقاد فى كل الولايات من أجل اختيار الفنانين أصحاب أبرز الأعمال فى جميع المجالات ، حتى نضمن أن كل الاجناس الأدبية والفنية ممثلة ، وحتى نختار العمل المميز الذى يكون أكثر دلالة على صاحبه ·

وفى ميدان الكتابة ، وهو الميدان الذى أعرفه أكثر من سواه ، قمت مباشرة باختيار أسماء الكتاب الذين يتفق الجميع على مهارتهم الحرفية فى مختلف الميادين · ورأيت من المفيد فى هذا المجال أن أترك لكل مؤلف حرية اختيار الصفحات التى يؤثر قراءتها من انتاجه فى المهرجان ·

ودعوت « **مارك فان دورن** » لى رئاسة الحفل الادبى · ولقراءة الشعر وقع اختيارى على **روبرت لوفيل** ، وللشعر الخفيف على **فيليس ماك جينى** أما فى الرواية فقد اخترت طرفين متقابلين هما **صول بيللو وجون هيرسى** · ولتمثيل الاتجاهات الجديدة غير الروائية اخترت **كاترين درينكر بوين و ا · ب · وايت وادموند ويلسون** ·

ورحب جميع الكتاب بالاشتراك فى المؤتمر ، باستثناء ويلسون ووايت · رفض ويلسون الدعوة بعنف لم آلفه من قبل أو من بعد ازاء دعوة تقدم باسم الرئيس والسيدة الاولى · أما وايت فقد رفضها بكل رقة وأناقة عمود « **حديث المدنية** » زاعما أن شكله يبدو مضحكا كلما حاول أن يقرأ شيئا من كتاباته بين جمع من الناس ·

وأيا كان الميدان الذى تناولناه ، فاننا لم نوجه أى اهتمام الى الآراء السياسية أو الايديولوجية أو العادات الشخصية لمن رأينا دعوتهم · **وكنت أعرف على سبيل اليقين أن أحد المدعوين بقى عضوا فى الحزب الشيوعى حتى بعد اعلان ميثاق عدم الاعتداء بين النازى والسوفيت** · وكانت الصورة التى اخترناها للمصور **ادوارد ستيشن** هى بورتريه لبول روبصون · وكان أحد المدعوين معروفا بالميل الى الشراب الى حد أنى طلبت من أحد رجال الشرطة بالبيت الابيض أن يراقبه بلطف بعد المرات الاولى من تردده على المشرب · لم نستبعد أحدا من هؤلاء ما دام قد قدم انتاجا فكريا أو فنيا بارزا ، ورأينا أن أى محاولة لاستبعادهم لا تليق بالبيت الابيض · وتضمنت اللوحات التى اخترناها لوحة «الغليون المصنوع من الفخار» وهى من أعمال البوب آرت من انتاج **روبرت انديانا** ، ولوحة « تربيع الدائرة » وهى من أعمال الأدب آرث من انتاج **رتشارد أنوشكفيتش** · كما اخترنا ١١ عملا من الأعمال الضخمة فى النحت لوضعها فى الحديقة الجنوبية كان بينها عمل تبلغ مقاييسه سبعة أقدام فى أربعة ، مؤلف من قطع الكروم المأخوذة من هياكل السيارات ، وهو من انتاج **جيسون سيلى** وقد أطلق عليه اسم « **الاحساس بالرجولة** » ·

وكنت على يقين من أننا لن نصل بسهولة الى اتفاق بين الخبراء الذين طلبنا رأيهم ، وخاصة فى ميدان التصوير والنحت · وحدث ماتوقعته فقد ثار بعضهم ، وهدد ، وناور ، بل وعرض رشاو صغيرة أو كبيرة ، من أجل اشراك بعض الفنانين ·· وربما تم ذلك لأسباب تجارية ، أو لأسباب شخصية · ولكن ذلك لم يكن هو الطابع الغالب · **ووجدنا فى كل ولاية نقادا أدركوا على الفور غرض المهرجان وأهميته ، وقدموا مشورتهم بغض النظر عن اهتماماتهم أو أذواقهم الشخصية** ·

الدعوة ·· والرفض !

واشتد التزاحم على بطاقات الدعوة · رؤساء مجالس ادارة كثير من الجمعيات يريدون أن يحضروا · كثير من الحلقات والندوات ترى أن من حقها ارسال مندوب يتحدث باسمها · أحد الفنانين دفع ممثل دائرته فى الكونجرس الى التوسط له للحصول على بطاقة دعوة · لكن المكان فى البيت الأبيض لا يتسع لجلوس أكثر من ٤٥٠ شخصا · والعدد الباقى لا بد له من الوقوف فى الحديقة الجنوبية · وأرسل الى رئيس هيئة محترمة يذكرنى بأنه دفع آلاف الدولارات فى الحملة الانتخابية للحزب الديمقراطى عام ١٩٤٦ ! وانتشرت موجة من الاحساس بأن من لا يدعى الى المهرجان لن يعد مثقفا ·

وفى وسط دوامة الاستعداد للمهرجان ، وعند وضع الترتيبات الاخيرة ، تلقيت رسالة من روبرت لوفيل يطلب فيها ابلاغ رسالة مرفقة الى الرئيس جونسون · وكان نصها كما يلى :

السيد الرئيس جونسون

عندما تلقيت دعوة تليفونية فى الاسبوع الماضى لحضور مهرجان الفنون الذى يقيمه البيت الأبيض يوم ١٤ يونيو وقراءة بعض شعرى فيه ، يبدو اننى تعجلت الموافقة بسرعة ولهفة ، اذ لم أر فى هذه المناسبة غير مهرجان فنى خالص ، رغم أن كل فنان جاد يعرف أنه لا يمكن أن يلقى تقديرا عاما دون أن تصحبه من جانبه التزامات عامة أيضا وبعد أسبوع من التردد وجدت ان ضميرى يفرض على الاعتذار عن قبول دعوتكم الكريمة · وانى أفعل ذلك الآن فى رسالة علنية نظرا لأن نبأ قبول الدعوة نشر فى الصحف ، ونظرا للتصرفات الغريبة التى أقدمت عليها الحكومة فى الفترة الأخيرة ·

وانى مع تأييدى الكامل لأكثر تشريعاتكم ومشروعاتكم الداخلية ، لا أملك الا أن أتابع سياستنا الخارجية الراهنة بكل استياء وقلق ·



ويبدو أن واجبنا كدولة ذات سيادة فى مواجهة الدول الاخرى ذات السيادة معلق الآن فى كفة القدر ، وأنه يتأرجح بين أفضل الاحتمالات وأتعسها • ونحن نواجه خطر التحول بالتدريج الى دولة عدوانية متعصبة ، بل ونحو الانزلاق الى طريق الدمار النووى النهائى • وانى لأعرف أن اتخاذ خطوة عملية ليس بالامر السهل بالنسبة للرجل المسئول ، بيد أن التجرؤ على النقد أيضا ليس بالأمر السهل بالنسبة للرجل المتروى الذى لا يحزم أمره • وانى لأشعر فى هذه اللحظة الملتهبة الدقيقة والتى قد تكون حاسمة بأنى أخدم سيادتكم وأخدم وطنى بصورة أفضل بعدم الاشتراك فى مهرجان الفنون بالبيت الأبيض •

وأرجو أن تتقبلوا احترامى •

روبرت لوفيل

وكان أول ما أثارته فى الرسالة هو الغضب• وحدثت نفسى بأن هذا سعى متعمد لاحداث الشغب وجرى رخيص وراء الشهرة : بقبول دعوة البيت الأبيض ، ثم رفضها ، واقحام قضايا كبرى لا محل لها ، واستخدام عبارات رنانة •• وكل ذلك مما يلائم الصحف • ولكنى بعد ذلك درست محتويات الرسالة بشىء من الهدوء وفكرت فيها على ضوء ما أعرفه عن لوفيل (وانا لم ألقه من قبل) **وانتهيت الى أن رد الفعل الأول لدى لم يكن قائما على أساس ، وان الرسالة انما أملاها الاخلاص والقلق الحقيقى • وكنت أشعر بان لوفيل مخطىء فى رأيه ، ولكنه يبنيه على أسس لا مفر من احترامها •**

وانفردت فى مكتبى محاولا أن أجمع أفكارى •

ثم اتصلت بلوفيل بالتليفون • ولم ألح عليه فى الحضور ، فاذا كان غير مطمئن لحضور الحفل وقراءة شىء من شعره فيه فذلك شأنه ولا ريب • ولكنى ألححت عليه فى سحب الخطاب ، وان يكتفى بالقول بأنه لن يتمكن من الحضور لأسباب شخصية • فأسماء المدعوين لم تذع بعد على نطاق واسع ، وبهذا يمكنه أن ينسحب دون أن يثير ضجة •

وقلت له انه من الافضل أن يسحب رسالته لأنها تبدو خاطئة فى المفهوم الاساسى الذى قامت عليه • فمن المعروف أن الرئيس يؤدى دورين متباينين • **أحدهما** دوره كرئيس للسلطة التنفيذية ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، وزعيم حزبه السياسى ، والداعية الى سياسات معينة فى الداخل والخارج • **والثانى** دور غير سياسى بالمرة ، هو دوره كرئيس للأمة بأسرها ومن واجبه بمقتضى هذا الدور ، أن يشجع كل ما لدى الأمة من قيم طيبة ونشاط مثمرة • وأن من الواضح ان الرئيس جونسون انما يدعو الى مهرجان الفنون بهذه الصفة الثانية ، وأنه بهذه الصفة ذاتها دعا لوفيل الى الحضور ، وانه لم يجر تمييز بين المدعوين على أساس سياسى أو ايديولوجى وانهم بالتالى لا يجوز أن ينظروا الى مضيفهم بمثل ذلك المنظار ، وان قبول الدعوة لا يعنى الموافقة على سياسة الحكومة أو رفضها •

وقلت للوفيل انى لا أدرى ما هى فكرته عن شخصية الرئيس جونسون وأسلوب تفكيره • وانى أعتقد ان الرسالة سوف تغضبه الى غير حد وأنه سيعدها اهانة لشخصه ولرئاسة الجمهورية

ذاتها ، وان أثرها سيكون مروعا بسبب المكانة الخاصة التى يشغلها لوفيل . وان هذا الحادث سيدفع الرئيس جونسون الى الشعور بأن المثقفين والفنانين هم أعداؤه الألداء ، وسوف تقلل أى رغبة لديه للمساعدة فى نشر الفنون ورعايتها، أو التعرف على المفكرين والاتصال بهم أو الاستماع الى آرائهم فى السياسة .

وأجابنى لوفيل بأنه فكر فى الأمر مليا قبل أن يبعث برسالته ، وانه ناقش الأمر مع بعض أصدقائه ، وان بعضهم قدم نفس الحجج التى قدمتها وبعضهم الآخر وافقه على الانسحاب ، ولم يحرص لوفيل على مناقشة النقط التى أثرتها واكتفى بأن قال **انه لا يستطيع التغلب على الشعور بأن وجوده سيكون تعبيرا بشكل أو بآخر عن تأييده لسياسة جونسون فى التدخل فى فيتنام والدومنيكان . وأنه يستنكر هذه السياسة الى حد يجعله عاجزا عن الحضور .**

واعتذر عن تصرفه فى القبول دون تفكير ثم العودة الى الرفض، وأبدى أسفه لما سببه من حرج للرئيس ولشخصى . ولكنه وصل الى قراره ، ولا يستطيع أن يسلك سبيلا آخر بضمير مرتاح .

وأشرت خلال الحديث الى مسألة احتمال وصول الرسالة الى الصحف فأبلغنى لوفيل أنها أبلغت بالفعل الى « **النيويورك تايمز** » . ولم أشأ أن أجادل بأنه من غير المألوف أن يذاع مضمون رسالة قبل أن تصل الى المرسل اليه ، وخاصة اذا كانت مرسلة الى رئيس الولايات المتحدة . بدا لى غير ملائم أن أناقش مسائل البروتوكول مع رجل تحركه دوافع داخلية كبرى ولكنى عرضت عليه أن أتولى بنفسى الاتصال بالجريدة ، وأكدت أن سحب الرسالة سيتم بطريقة لا تدع أى شك فى أن القصة لن تذاع .

لكن لوفيل رفض وصمم على أن يسير كل شىء فى مجراه .

ولم يكن مفر .. فبعثت بالرسالة الى الرئيس جونسون ، ومعها مذكرة مختصرة بما جرى ، واقترحت ارسال رد بتوقيع الرئيس يقول فيه :

عزيزى مستر لوفيل

تلقيت رسالتك التى تعلن فيها انسحابك من مهرجان الفنون بالبيت الأبيض ، وانى آسف لهذا القرار الذى سيحرم المهرجان من حضوركم ومواهبكم كما آسف للأسباب التى بنى عليها قراركم . فنحن قد وجدنا فى هذا المهرجان وسيلة لتكريم وتشجيع الفنون فى أمريكا دون نظر الى الانتماءات السياسية أو القضايا العامة أو الخلافات المؤقتة حول المسائل الخارجية أو الداخلية . وانى اذ أبدى احترامى الكامل لآرائكم المخالفة لآراء الحكومة حول بعض جوانب السياسة الخارجية ، آسف لاقحامكم هذه الخلافات فى مجال لا علاقة له بها .

المخلص : ليندون جونسون

وارتفع صياح الرئيس فى مكتبه البيضاوى الشكل حتى بات مسموعا فى كل الجناح الشرقى للبيت الابيض . وصدرت الى التعليمات بأن أرسل ردا على الرسالة باسمى لا باسم الرئيس ، وألا يتضمن الرد شيئا أكثر من « **الاخطار بالاستلام** » وقررت أن « الأخطار بالاستلام » يمكن أن يكتب بالصورة التالية :

عزيزى المستر لوفيل

أبلغت رسالتكم الى الرئيس جونسون بناء على طلبكم . ولست فى حاجة الى القول بأنى آسف أشد الأسف لحرمان مهرجان الفنون فى البيت الأبيض من وجودكم ومواهبكم .

المخلص : اريك جولدمان

وفى الصباح التالى نشرت « **النيويورك تايمز** » الحكاية كلها فى صفحتها الاولى . ولم يدهشنى ابرازها للقصة لما لها من طابع اخبارى . ولكن علمت فيما بعد أن الرئيس جونسون رأى فى ابرازها دليلا جديدا على الموقف العدائى الذى تتخذه منه « النيويورك تايمز » .

الأوغاد !

ان بعض الاحداث ، فى ظروف خاصة وفى ارتباطها بشخصيات محددة ، تتخذ على الفور طابعا رمزيا . وكان من هذه الاحداث رفض أحد قادة أمريكا الثقافيين حضور حفل ثقافى يقيمه الرئيس الامريكى تحت رعايته . وكان موقف لوفيل تعبيرا عن مشاعر عدد كبير من الكتاب والفنانين وأساتذة الجامعات ازاء ليندون جونسون الذى أمر بالتدخل فى الدومنيكان والذى أمر بتصعيد الحرب فى فيتنام .

وكتب **روبرت سيلفرز** ، المشرف على تحرير

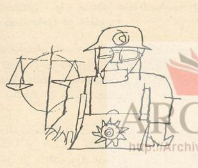
مجلة « **نيـويورك ريفيو** » يقول ان جونسون « **أعد هذا الاحتفال حتى يقدم الى العالم واجهة زائفة يزعم بها ان الكتاب والفنانين يؤيدون حرب فيتنام** » وانه حاول استغلال لوفيل لتحقيق غرضه وان من واجب الادباء مهاجمة الاحتفال ، وأن « **للموقف جانبه السياسى الواضح** » ، وانهم يجب أن يبذلوا كل جهدهم حتى يصبح موقف لوفيل « **جارحا الى أبعد مدى لليندون جونسون الذى خان المثقفين والفنانين الذين أعطوه أصواتهم فى ١٩٦٤** » .

وفى اليوم التالى ، وجه سيلفرز بالاشتراك مع الشاعر **ستانلى كونتز** برقية الى جونسون يعلنان فيها تأييدهما للوفيل « **فى قراره بعدم الاشتراك فى مهرجان الفنون بالبيت الابيض .. ونود أن نبلغكم أن كثيرين بيننا يشاركونه الاستياء من السياسة الخارجية الامريكية الراهنة. ونرجو الا يتصور الشعب فى بلدنا أو فى البلاد الاخرى أن اقامة مهرجان الفنون بالبيت الابيض تعنى موافقة الفنانين على السياسة التى تتبعها الحكومة** »

ووضع **سيلفرز وكونتز** قائمة بالكتاب والفنانين وقسموا بينهما مهمة الاتصال بهم لجمع توقيعاتهم لكنهما كانا فى عجلة من أمرهما ، حريصين على نشر برقيتهما فى الصحف فى أقرب وقت بعد نشر رسالة لوفيل ، ولذا أرسلا البرقية الى البيت الأبيض تحمل عشرين توقيعا . غير أن هذه التوقيعات العشرين كان لها وزن خاص ، فهى تضم **أسماء : حنة أرنت ، جون بريمان ، آلان دوجان، جول فيفر ، فيليب جاستون ، ليليان هلمان ، الفرد كازان ، ستانلى كونتز ، دوايت مكدونلد ، برنارد مالامود ، مارى ماكارثى ، لارى ريفرز ، فيليب روت ، مارك روتكو ، لويس سمبسون ، و . د . سنودجراس ، وليام ستيرون ، بيتر تايلور ، ادجار فاريز ، روبرت بين وارن .**

ويجرى العمل فى البيت الأبيض على قاعدة ارسال البريد الوارد والخاص بمشروع معين الى الشخص المختص لدراسته قبل عرضه على الرئيس وعندما وصلت هذه البرقية الى مكتبى توقفت عيناى عند أسماء **دوايت مكدونلد ولارى ريفرز ومارك روتكو** . فهؤلاء الثلاثة بين المدعوين الى الحفل : ريفرز وروتكو باعتبارهما من الفنانين الذين اختيرت لوحاتهم للعرض فى ابهاء البيت الأبيض أثناء الاحتفال ، ومكدونلد بحكم عمله فى جريدة « **نيويوركر** » والمقالات التى يكتبها فى « **نيويورك ريفيو** » ثم باعتباره الناقد السينمائى لمجلة « **سكواير** » .

عندما وصلتنى البرقية كانت بطاقة الدعوة الموجهة الى مكدونلد قد أرسلت بالفعل . أما بطاقتا ريفرز وروتكو فلم تكونا قد أرسلتا بعد ، لكننا كنا أرسلنا برقيتين الى متحفين من متاحف الفنون نطلب اعارتنا لوحتين لهما . وكان فى تقديرى أن موضوع مكدونلد بسيط ، فقد وجهت اليه الدعوة ومن حقه أن يقبلها أو يرفضها . وكذلك كان الأمر واضحا بالنسبة لدعوة ريفرز وروتكو ، فأى مضيف — حتى لو كان رئيس الولايات المتحدة — من حقه ألا يدعو الى بيته ضيفا أذاع علنا أنه لا يريد الحضور . لكن عرض لوحاتهما فى الاحتفال كان أمرا آخر ، خاصة وانه يتعلق بذلك



الطراز الخاص من الكائن البشرى : **ليندون جونسون** .

فاذا كانت رسالة لوفيل بالاعتذار قد أغضبت الرئيس الامريكى ، فان برقية سيلفرز — كونتز أحالت غضبه الى لهب . ومع ازدياد غضبه ، اتخذ له هدفا أكبر . **واذا كان المثقفون والفنانون لم يكونوا فى يوم من الأيام مقربين — كأفراد — الى ليندون جونسون ، فقد أصبح الآن يضعهم فى حقيبة واحدة ويتمنى أن يقذف بهم الى الجحيم** . ولم يكن يميز بين من ينتقدون سياسته الخارجية على أساس منطقى وبين من ينقدونها نقدا طائشا ، بل لم يعد يميز بين المؤيدين لحرب فيتنام ومعارضيها . لقد انطلق غضبه ضد «**هؤلاء الناس**» الذين أهانوه وأهانوا رئاسة الولايات المتحدة . بل تطور الموقف الى أبعد من ذلك ، فهو يرى أن هؤلاء الذين حطوا من مكانة الرئيس الأمريكى ، وأذاعوا موقفهم علنا ، انما أضروا بوطنهم فى وقت الشدة . انهم ليسوا مجرد « أبناء كلاب » (استخدم

هذه العبارة بنصها) وانما هم أوغاد ، ويوشكون أن يصبحوا خونة ٠

وأعلن جونسون أكثر من مـرة انه « **احتمل هؤلاء الناس بما فيه الكفاية** » ، وانه سـيلغى الاحتفال (وكنا نعرف انه لن يفعل ذلك) ، أو أنه سيكتفى بعدم حضوره (وهو أمر كان يمكن جدا أن يفعله) ٠

وكنت أتـابع الموقف عن كثب ، وأدرك أن التصرفات التى ستقرر خلال الايام القادمة ستحدد موقف جونسون من « **هؤلاء الناس** »الذين يضمون عددا من أخصب عقول أمريكا وأكثرها اخلاصا ، وان التوتر السائد يمكن أن يدفعه الى ارتكاب تصرفـات تسىء الى شـخصه والى الولايـات المتحدة فى عالم على أتم استعداد للاقتناع بأن كل أمريكى هو فى أعماقه من أبناء تكساس ، وأن كل أبناء تكساس أجلاف ٠

وكان من الواضح أن موقفى العام هو السعى الى تهدئة الموقف قدر الامكان ، مع الحرص على انجاح الاحتفال والاحتفاظ له بمستواه ٠ ولكن كانت هناك مسائل عاجلة ومحددة تتطلب التصرف السريع ٠ من بينها مسألة **لوحتى ريفرز وروتكو** وسارعت بالاتصال بالرئيس قبل أن يقرر الغـاء عرضهما ٠ وكنت أعرف انه عندما يغضب فمن الأفضل الكتابة اليه بدل المناقشة معه ، وأرسلت اليه مذكرة عاجلة ٠ ركزت فيها على الجانب العملى للمسألة : اذا الغى الطلب فسوف يتسرب الأمر الى الصحف ، ويقف البيت الأبيض فى موقف حرج ٠ ولكنى أشرت أيضا الى الموقف العام الذى نتخذه فى هذا الاحتفال : انه ليست له صـلة بالسياسة الداخلية أو الخارجية ، وان اللوحتين اختيرتا بنـاء على مشـورة الخبراء على أساس قيمتهما الفنية ٠ وما دام اختيارهما قد تم على هذا الأساس فلا ينبغى أن يتأثر عرضهما برأى الفنانين فى حرب فيتنام أو بحضورهما الاحتفال وان تصرف البيت الابيض على وجه آخر سـوف يفهم على أنه تأكيد للمعنى الذى تركه تصرف لوفيل وموقع البرقية : **وهو اقحام قضايا خارجيـة على حفل فنى بحت** ٠

وتنفست الصعداء عندما اتصل بى **جاك فالنتى** ليبلغنى تعليمات جونسون باستمرار عرض اللوحتين وقلت لفالنتى :

ـ انى سعيد يا جاك ٠ ولا أشك فى أن هذا هو القرار السليم ٠ ولكنى أود أن أعرف ماذا قال الرئيس عموما ، فقد يسـاعدنى ذلك فى تصرفاتى ٠

وأطلق فالنتى ضحكة قصيرة وقال : لا أظن أنه يسعدك أن تعرف ما قال ٠

العلاقة بين الحكومة والفنون

وحدد عدد كبير من المثقفين والفنانين موقفهم سواء فى السر أو فى العلن ، من المسألة المثـارة ألا وهى : ما العلاقة الصحية بين الحكومة والفنون؟ وهل اذا قبل أحد المثقفين أو الفنانين الدعوة الى حفل البيت الابيض يكون معنى ذلك بالضرورة التزامه بتأييد السياسة التى تتبعها الحكومة ؟ لم يكن هناك اجماع ، وكانت هناك مختلف الآراء فمن بين ١٠٢ من الكتاب والفنانين والنقاد الذين وجهت اليهم الدعوة لحضور الاحتفال ، لم يمتنع عن الحضور بالاضافة الى لوفيل وعلى نفس الاسس التى أبداها غير أربعة أشـخاص (هم الناقـد المسرحى روبرت بروشتين الذى أصبح فيما بعد يعرف باسم عميد مدرسة ييل المسرحية والنحات الكسندر كالدر والرسام جـاك ليفين والمصور الفوتوغرافى بول ستراند) وامتنع ١٤ آخرون ـ وهو رقم كبير بالنسبة لحفلة تقـام فى البيض الأبيض ـ دون ابداء سبب جوهرى ، والأرجح أنهم كانوا يتحرجون من ابداء نفس الاسباب التى أبداها لوفيل ٠ أما الذين أجابوا بالقبول فكان بينهـم على الأقل ١٥ لم يحددوا رأيهم نهائيا وقد أدلى كل من الروائيين الذين قبـلا تقـديم قراءات من انتاجهما بتصريح الى الصحف يعبر عن موقفه ٠ أكد صول بيللو للصحفيين أنه يعتبر التدخل فى جمهورية الدومنيكان أمرا « سـيئا وضـارا » وأنه يعارض حرب فيتنام ، غير أنه قال أنه لا يرى فى الاحتفال « **مناسبة سياسـية** » ، وأن رئيس الجمهورية يعد « **مؤسسة قومية** » بالاضـافة الى دوره كرجل سياسـة ، وأن الرئيس جونسون يسعى « **بوسيلته الخاصة** لتشـجيع الفنـانين الامريكيين ٠ وانى أقبل الدعـوة اعرابا عن احترامى لنواياه وتقديرا لمركزه ٠ ولا أشك فى أنه لا يتوقع منى أن أؤيد كل مواقف حكومته أو كل سياسة يرسمها »

أما جون هرسى فقد تحدث بلهجة أخرى ، فأكد أن قرار قبوله الدعوة قائم « حتى الآن » ، وأنه فى الظروف التى أحاطت بالاحتفال لايعتزم قراءة شىء من رواياته ، وقال : **وانى كالكثـيرين من أمثالى أشعر بقلق شديد نتيجة للاتجاه الى الاعتماد على الحلول العسكرية فى سياستنا الخارجية** ٠٠

وكان فى نيتى حضور الاحتفال اذ رأيت أنى بهذا الحضور استطيع أن أدافع عن وجهة نظرى أكثر مما أدافع عنها بالامتناع او التخلف ، وامل أن أقف فى البيت الابيض ــ وربما فى حضور رئيس الجمهورية ــ واقرأ بضع صفحات من كتاب لى بعنوان هيروشيما ·

وفى الوقت نفسه حــدد **دوايت ماكدونالد** موقفه · ودون أن توجه اليه الدعوة وقع برقية يعلن فيها أنه لا يوافق على الحضور · ولكن عندما وجهت اليه الدعوة بالفعل فانه أخذ يفكر فى الامر مرة أخرى ، وشرع فى مناقشته مع أصدقائه ، وكان يردد انها فرصة لارغام جونسون على التخلى عن الحرب التى أعلنها · واقترح عليه **روبرت سيلفرز** أن يحضر الاحتفال ويكتب عنه مقالا فى « **النيويورك ريفيو** » ·

ولم أعرف بهذه الوقائع الا فيما بعد ــ أما فى ذلك الحين فقد تلقيت برقية من ماكدونالد يعلن فيها قبول الدعوة ، ويذكر أنه وقع برقية سيلفرز ــ كونتز ، ثم يقول : **وأعتقد أنه لا مانع لديكم من أن أكتب شيئا فيما بعد عن انطباعاتى عن الاحتفال اذا ما شعرت بالرغبة فى ذلك ·**

واتصلت به تليفونيا · وكان الانطباع الذى تأكد لدى خلال المحادثة أن ماكدونالد يتمنى أن أسحب دعوته بسبب توقيعه برقية سيلفرز ــ كونتز ، وبسبب ما ألمح اليه من أنه يعتزم كتابة مقال غير ودى · فاذا لم أسحب الدعوة فانى سأبقيها قائمة مع التأكيد عليه بأنه ليس من الملائم أن يحضر الحفل مدعوا ثم يهاجمه فى مقالاته

ورغم الاخطاء التى قد أكون قد وقعت فيها ،فلم أكن على استعداد لايجاد وضع يسمح لصحفى واضح العداء بأن يزعم أن احتفال البيت الابيض بالفنون لا يضم غير مجموعة الفنانين المؤيدين لسياسة الرئيس جونسون الخارجية والمستعدين للثناء على الحكومة · ولذا أكدت لماكدونالد أن دعوته ما زالت قائمة وأنها وجهت اليه رغم العلم الكامل بعدائه لحرب فيتنام · وأنه حر فى أن يكتب ما يشاء ·

مأساة هيروشيما

أما فى مكتب الرئيس فكان موضوع الاحتفال ما زال موضع دراسة تجرى بأعصاب متوترة · فعندما أعلن جون هرسى أنه سيقرأ صفحات من كتابه « هيروشيما » كان يظن أنه بذلك يرد على التساؤل عما يدعو رجلا يعارض حرب فيتنام الى قبول دعوة البيت الابيض ، غير أن تصريح هيرسى أثار الرئيس جونسون ، ولم ير فيه غير محاولة للتشهير به والاضرار بالمجهود الحربى · ورأى فيه اهانة أخرى من جانب « هؤلاء الناس » · وقال وهو على بعد خطوة واحدة من رجال الصحافة : « **ان بعض هؤلاء الناس يهيننى بالامتناع عن الحضور ، وبعضهم الآخر يهيننى بالحضور** » · ثم أضاف بصوت منخفض « **ألا يعلمون انى الرئيس الوحيد لديهم ، وأن الحرب قائمة ؟** »

واستمرت الاستعدادات للاحتفال ·

وكان من الواضح ان أهم المتاعب الباقية هى اختيار الفقرات التى سيلقيها الادباء · ومن بين الادباء الخمسة الذين وجهت اليهم الدعوة ليقرأوا بعض انتاجهم ، كان واحد قد انسحب ، وثلاثة أعلنوا موقفهم المعادى لحرب فيتنام ، وأعلن واحد منهم ــ هو « **جون هيرسى** » أنه اختار للقراءة مقطعا من كتابة « هيروشيما » ·

وتلقيت مكالمة من السيدة جونسون تسألنى فيها اذا كنت اعرف على وجه الدقة ما يعتزم هيرسى قراءته · وأرسلت اليها القطع الثلاث التى وقع عليها اختياره · وكانت اثنتان منها تدوران حول الآنسة **توشيكو سازاكى** ، وهى فتاة يابانية تعمل فى أحد مصانع هيروشيما ، وتصف القطعتان اختلاط أجزاء جسدها عند انطلاق القنبلة ، كما تصف عذابها طوال الشهر التالى وهى تنتقل من مستشفى الى آخر ، ثم وهى ترى حطام مدينتها لأول مرة بعد الكارثة · أما القطعة الثالثة فتورد مجموعة من الاحصاءات عن الطاقة التدميرية للأسلحة النووية الموجودة والتى يجرى تجريبها ·

وفى اليوم التالى دعتنى السيدة جونسون الى تناول الغداء معها ومع عدد من المحيطين بها من أجل « اجراء الترتيبات النهائية » للاحتفال · وأقيمت المأدبة فى « قاعة الملكة » بالجناح الخاص وبدأت السيدة الاولى مناقشة الموضوع بأسلوب ناعم ، ولكننى لم ألبث أن شعرت بالقلق ، اذ ظهر على الفور ان هدف المأدبة ليس اجراء الترتيبات الاخيرة بقدر ما هو استبعاد جون هيرسى · وزاد قلقى عندما أوضحت السيدة جونسون بجلاء انها تتحدث أيضا باسم زوجها · وكنت أعتقد أنه فى أمر بمثل هذه الحساسية ينبغى أن يعبر الرئيس عن رأيه بنفسه ·

وقرأت السيدة جونسون فقرة من البيانات الاحصائية التى يتضمنها كتاب هيرسى يقول فيها : **عندما أعلن الرئيس ترومان ضرب هيروشيما بالقنابل ، أعلن للعالم ان قوة الانفجار الذرى فى**

ذلك اليوم بلغت ما يساوى ٢٠ الف طن من مادة ت ٠ ن ٠ ت » ووضعت السيدة الاولى الورقة جانبا وقالت وقد قطبت ما بين حاجبيها «ان الرئيس يميل جدا الى الرئيس السابق ترومان ٠ ولا يمكن أن يقبل أن يأتى أناس الى البيت الابيض ليتحدثوا ويقولوا أن الرئيس ترومان كان يقعقع بالقنابل الذرية » ٠

وأدركت أن السيدة جونسون تحاول أن تذكر شيئا بطريق غير مباشر ، وقلت لها انى لا أفهم ماذا تريدان تقول ؟ ٠ وتحولت السيدة جونسون من الكلام غير المباشر الى الكلام المباشر وقالت :

— ان هناك من يتهم الرئيس بأنه داعية حرب وسفاك دماء ٠ ولا يمكن أن يقبل ان يأتى الى هنا كتاب يشهرون به ، فى داخل بيته ، ويصفونه بأنه يريد ان يستخدم القنابل الذرية ٠

وحرصت على توضيح المواقف ، وقلت للسيدة جونسون : هل أستطيع أن أطلع على هذه الفقرة ؟ ومدت الى يدها بها ، وقرأت بصوت مسموع الصفحة كاملة ثم قلت :

— ليس فيما قرأت أى اشارة صريحة أو ضمنية تدل على ان الرئيس ترومان أو الرئيس جونسون لا يبغضان استخدام القنابل الذرية ونحن نعرف ان جميع المواطنين الشرفاء يرفضون فكرة اشعال نيران الجحيم النووى ٠ وما يقوله هيرسى يختلف تماما عما ألح اليه ٠ وقد طلبنا اليه أن يقرأ بعض كتاباته فاختار أن يتحدث عن واحدة من أكبر المشاكل الادبية والاخلاقية فى هذا العصر، وهى مشكلة الحرب النووية ٠ وقد أورد رأيه خلال قطعة تبين ان حرب فيتنام يمكن أن تتطور — على عكس رغبة الرئيس جونسون تماما — وتصبح حربا نووية ، تماما كما وجد الحديث الرئيس ترومان نفسه مضطرا ، من أجل ما اعتقد انه الصالح العام ، الى اصدار أمره بالقاء القنبلة الذرية ٠

وتدخلت السيدة آبل فى الحديث وقالت :

— ان هذا يثير القرف ٠ فبأى حق يسمح كاتب لنفسه أن يطلب من الرئيس ان يجلس ويستمع اليه وهو يلقى قطعة يمكن أن تجعل منها الصحف عناوين ضخمة تعارض السياسية الخارجية لحكومتنا ؟

وعدت أناقش واجادل ٠ غير ان وجه السيدة جونسون تصلب وقالت :

— ان الرئيس وأنا لا نريد ان يأتى هذا الرجل الى هنا ويقرأ هذا الكلام ٠

وصممت على ألا أعتبر هذه الملاحظة أمرا ، وأن أخاطب السيدة جونسون من الناحية العملية فقلت :

— اذا أنا اتصلت الآن بهيرسى وطلبت منه الا يقرأ من كتاب هيروشيما فانى أرجع بنسبة ٩٩ : ١ انه سوف ينسحب على الفور من الاحتفال ٠

وقالت السيدة آبل : سيكون هذا أفضل !
فلست أفهم كل هذه الضجة حول كاتب سخيف وتكهرب الموقف ٠ وتدخلت السيدة أليزابيت كربنتر فى الحديث وقالت :

— أليس صحيحا انهيرسى معروف فى المقام الاول ككاتب روائى ؟ ألا تستطيع أن تبلغه أننا نريد أن نكرم أعماله الروائية ، وانه من الأفضل أن يختار قطعة من احدى رواياته ؟

كان ذلك حلا وسطا ، لكنى لم أستطع قبوله ، اذ كان أسلوبا مهذبا لمنع هيرسى من قراءة المقاطع التى اختارها من كتاب هيروشيما ٠ ولا شك فى أن هذا سيؤدى الى انسحابه من الاحتفال والى اثارة ضجة تصور الرئيس جونسون فى ضوء غير مناسب ٠

وأبديت رأيى مرة أخرى ٠ لكن السيدة جونسون تكلمت بشدة ، وقالت وهى تضغط على الكلمات :

— ان الرئيس وأنا لا نريد أن يحضر هذا الرجل الى هنا ويقرأ هذا الكلام ٠ والمسألة التى أمامنا هى كيف نعالج الموقف بأحسن أسلوب ٠

ثم نظرت الى وقالت : — ألا تعرف صديقا مشتركا يمكن أن يتولى الامر بلباقة ؟

وكنت أعرف هذا الصديق المشترك ، ولكن كنت واثقا انه سيرفض هذه المهمة ٠

وانفض الاجتماع ولم نصل الى شىء ٠ وقررت أن أمضى فى طريقى ، وعلى مسئوليتى ، ما دمت لم أتلق أمرا من الرئيس شخصيا ٠

المباحث تعترض

وحل يوم الثلاثاء ، قبل موعد الاحتفال بستة أيام ، وعلمنا ان الرئيس سيسافر الى تكساس فى عطلة نهاية الأسبوع ، وقد يبقى هناك الى منتصف الأسبوع القادم ٠ وسافر الرئيس بالفعل ٠ ومن هناك صدرت التعليمات ، **ان يوضع الاحتفال فى الظل** لا مراسلون صحفيون ، لا مصورون لا اذاعة ولا تليفزيون ٠ وكانت احدى محطات

الاذاعة قد استعدت لارسال ساعة كاملة عن الاحتفال فأوقفت استعداداتها ·

ومضى جونسون الى أبعد من ذلك · كانت هناك مجموعة من الدعوات الاخيرة لم ترسل بعد ، فأمر بأن تتولى ادارة المباحث المركزية مراجعة الاسماء مراجعة دقيقة ، ليست تلك المراجعة التقليدية التى تهدف الى ضمان سلامة شخص الرئيس وأسرته ، بل هى مراجعة لعقائد كل شخص وارتباطاته · وكلف **مارفين وطسون** باجراء التحريات · وقد تمت على وجه السرعة ، واتصل بى واطسن طالبا ابعاد سته أسماء ·

وكنت قد سئمت الصراع · فتوجهت الى وطسون لا لأناقش المبادىء بل لأناقش الجوانب العملية · فأربعة من هؤلاء الاشخاص لستة فنانون لهم أعمال معروضة فى الاحتفال ، فكيف نرفض دعوتهم ؟ وقد اعترف واطسون بأن ذلك سيبدو غريبا ، لكنه سألنى : هل أريد أعمالا هدامة فى البيت الابيض ؟ وقلت انه اذا كان لأحد منهم اتصال باحدى الجماعات فى وقت ما ، فلم يكن ذلك من أجل الهدم بل كان على أساس انسانى محض · ورد على وطسون : وما موقفهم الآن من قضية فيتنام ؟ وقلت : اننا لن نعيد الحديث فى هذا مرة أخرى · فسيكون البيت الابيض مليئا بأناس يعارضون الحرب · واجابنى : انت تعرف اننى اذا عرضت هذه التقارير على الرئيس فسوف يحذف عددا أكبر من الأسماء وأجبته : لا أشك فى ذلك وهو فى حالته الراهنة ولكن واجبنا أن نحميه من هذه الحالة ·

وصمت واطسون لحظة ثم قال :

ـ ما رأيك لو وجهنا اليهم الدعوات بشرط ان تصلهم قبل الموعد بيومين اثنين ؟

وضحكت وقلت :

أراهن أنهم سيحضرون رغم ذلك ·

وقال : نعم ، لسوء الحظ !

(وقد حضر فعلا أربعة من الستة)

توقيعات داخل البيت الأبيض

وحل يوم الاثنين الموعود ، يوم الاحتفال : ١٤ يونيو · وكان يوما صيفيا لطيفا من أيام واشنطن، لا سحب ولا رياح · وبدت السيدة جونسون فى أحسن حالاتها ، وافتتحت الحفل بعبارات ودية ·

وألقى مارك فان دورين كلمته ، واستقبلت كما تستقبل كلمة رئيس الجلسة عادة بالصمت ·وألقى صول بللو مقاطع من كتابه هيرتزوج قوبلت بالتصفيق · واختارت **كاترين دريتكر بوين** فقرات من كتابها « يانكى من جبل الاولمب » · وقد ألقتها بحماسة وحيوية انتزعت تصفيقا طويلا

وارتقى جول هيرسى المنصة شاحبا متجهم الوجه · وقرأ الفقرات التى اختارها من كتاب « هيروشيما » متمهلا ، مؤكدا على الكلمات ،وهو من حين لآخر يرفع عينيه لينظر مباشرة فى عينى السيدة جونسون التى كانت تجلس فى الصف الاول · وعندما انتهى من القائه ساد القاعة صمت لبضع ثوان ، ثم انفجر تصفيق حاد · بينما بقيت السيدة الاولى ـ التى صفقت لكل من سبقوه ـ فى مكانها بلا حراك ·

ومضى الاحتفال وفق البرنامج المرسوم · وعند تناول الغداء ألقى **جورج كينان** خطابا أعده عن « الفنان والمجتمع الامريكى » · وعزفت الموسيقى فى أكثر من قاعة · وأخرجت مقاطع من مسرحيات متعددة كان بينها مشهد من مسرحية « موت بائع جوال » **لآرثر ميلر** · وانتهت الفقرة الأولى من الاحتفال بقراءة المعالجة التى أعدها **شارلتون هستون** ـ الذى كان قد عاد لتوه من الاشتراك فى المظاهرات المطالبة بالحقوق المدنية للمواطنين · لاخراج فيلم جديد تقوم فكرته على دمج مقاطع من خمسة أفلام من أهم الافلام التى أخرجتها أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية ·

وكان الضيوف معظم الوقت يستمتعون بالحفل ويقضون وقتا لطيفا · ولكن لا شك أن الكثيرين منهم ـ وربما الاغلبية ـ كانوا يشعرون طوال الوقت أن الشخصية الرئيسية فى هذا الاحتفال الذى أقامه البيت الابيض لتكريم الفنون هى الشخصية التى لم تحضره · ان أكثرهم لم يكونوا يوافقون **روبرت لوفيل** على آرائه ـ فقد حضروا على أى حال ـ لكن رسالته لم تفقد أثرها ، وأثارت بينهم مختلف المشاعر والآراء · وكنا نشعر بأن البيت الابيض يعانى نوعا من الشيزوفرينيا · كان بين الحاضرين مثلا صول مالوف ـ محرر الشئون الثقافية فى مجلة نيوزويك ـ وقد حضر الاحتفال وهو يعتقد أنه مؤامرة حربية · وقد قابل مالوف زميله بللو بعد انتهاء فترة القراءة فى الصباح وبادره الهجوم ·

– كيف تستطيع أن تقف هناك وتقرأ بعد كل ما فعله هذا الرجل فى فيتنام ؟

وأحرج بللو ، لكنه أجاب بما سبق أن أعلنه من أنه يعتبر الحفل مناسبة فنية وثقافية ، وانه سيعلن رأيه فى السياسة الخارجية لامريكا فى مكان آخر ·

غير أن مالوف لم يكف عن الهجوم · وتحدث عن الادباء الذين يبيعون أنفسهم · وقال :

– نحن صنعناك · ونحن قادرون على تحطيمك

وانسحب بللو من أمامه ·

وكان بين الحاضرين دوايت مكدونالد · وهو رجل ممتلىء الجسد ، سريع الحركة ، له لحية مدببة ووجه لطيف ولسان حاد · وهو يستطيع أن يكون رقيقا جدا · لكنه لم يكن رقيقا أثناء الاحتفال على الاطلاق · كان قد ناقش بعض أصدقائه فى اليوم السابق وانتهوا الى اقتراح جرىء : لماذا لا توزع « عريضة » مؤيدة للوفيل أثناء الاحتفال ذاته ؟ وأعجب مكدونالد بالفكرة وعد العريضة بالفعل · وجاء فيها :

« اننا نريد أن نوضح أننا عندما تقبلنا الدعوة الكريمة التى وجهها الينا السيد الرئيس لحضور مهرجان الفنون بالبيت الابيض ، لم نقصد على الاطلاق التخلى عن الموقف الشجاع الذى وقفه روبرت لوفيل ، كما انه لا يعنى موافقتنا على السياسه الخارجية للحكومة ·· فنحن نؤيد احتجاج روبرت لوفيل على التصرفات الاخيرة لبلادنا فى فيتنام وفى جمهورية الدومنيكان » ·

وعرض مكدونالد فكرته على توماس هيس – رئيس تحرير مجلة أخبار الفن (آرتس نيوز) الذى تحمس لها ، وأخذ يسعى مع مكدونالد ، أثناء الاحتفال ، لجمع التوقيعات على العريضة · وقد جمعا بالاضافة الى توقيعهما ، ستة توقيعات تضم أسماء ثلاثة نحاتين هم هربرت فربر وايزادو نجوشى وبيتر فولكوس ، وواحدا من الرسامين هو وليام دى كوننج · ثم سام هانتر وهو مدير أحد المتاحف الفنية ، وريد ويتمور الاستاذ بجامعة كارلتون ·

ورفض الكثيرون توقيع العريضة ولكن الرفض لم يزد مكدونالد الا حماسة · واستمر يدعو الى توقيع العريضة من الصباح حتى وقت متأخر فى المساء · واقترب مكدونالد ، أثناء حفلة الكوكتيل ، من الممثل شارلتون هستون ودعاه الى التوقيع ، وعندما رفض وصفه ماكدونالد بأنه من أذناب هوليوود · ورد هستون غاضبا بأنه اشترك فى مظاهرات المطالبة بالحقوق المدنية ، معرضا عمله فى السينما للخطر ، وسأل ماكدونالد أين كان هو فى تلك المناسبات ؟ واستمرت المواجهة بين الرجلين ثلاث أو أربع دقائق ، ارتفع خلالها صوت ماكدونالد الى حد الصياح · وفى النهاية تمالك هستن أعصابه ومضى ·

وفى المساء كان مالوف قد عاد الى نيويورك ، أما ماكدونلد فبقى وأعرب عن سخطه بكل وسيلة ممكنة · وأثناء العشاء ، أبدى ملاحظات ساحرة على الأعمال الفنية المعروضة ، ثم هاجم جونسون شخصيا بصوت مرتفع وصل الى عدد كبير من المدعوين وأثار قلقهم ·

وقبل أن ينزل جونسون للمشاركة فى الاحتفال ، أبلغت اليه فى مكتبه تفاصيل كل ما حدث · وعندما حلت الساعه المحددة لنزوله وجدناه واقفا بين صف المستقبلين ، بوجه جامد كالحجر · وبعد مصافحة عدد قليل من المدعوين غادر مكانه ، وترك للسيدة الأولى مهمة اتمام الاستقبال · ولم يشترك فى العشاء · وعندما ألقى كلمته المعدة من قبل ، لم يضف اليها شيئا من مداعباته المألوفة · بل أضاف اليها عبارة لا أعتقد انها من قبيل المداعبات · قال :

« لقد دعيتم الى هذا الحفل لا لأنكم أعظم فنانى بلادنا ، وان كان الذين أعدوا الاحتفال قد قدروا ذلك · »

وبعد انتهاء الكلمة لم يختلط بالمدعوين كما جرت العادة · بل توجه بسرعة الى مكتبه وكان المهرجان يقترب من نهايته ·

وساءلت نفسى بعد الجهد الكبير الذى بذلته : هل نجح المهرجان ؟ نعم لقد نجح ، وحضره عدد كبير من الفنانين والمفكرين من مختلف الاتجاهات وأثبت أن البيت الابيض ليس فى عزلة عما يجرى داخل الوطن من الافكار · لكن المهرجان لم ينجح فى ايجاد جسر بين المثقفين والجالس فى البيت الأبيض · على العكس · كان كل ما جرى بعد رسالة لوفيل وموقف الرئيس جونسون منها يضيف حجرا آخر الى الحائط الذى يعزل جونسون عن المثقفين · ولحسن الحظ أن كثيرا من التفاصيل لم يعرف · ولكن ما عرف منها كان كافيا لجعل الحائط سميكا يصعب اجتيازه ، كأنه ذلك الحائط من الأسمنت المسلح والأسلاك الشائكة الذى يفصل بين شرق برلين وغربها ·

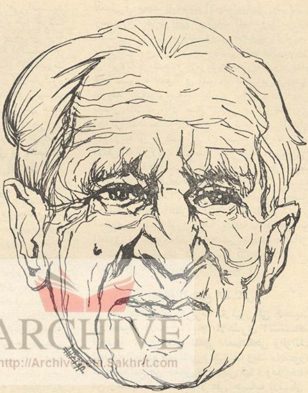
أمريكا والإنسان

هربرت ماركيوز ... والإنسان ذو البعد الواحد

أحمد السعدني

هربرت ماركيوز هو فيلسوف الشباب ، مع انه ليس شابا .. فهو فيلسوف تجاوز العقد السابع من العمر .. أى انه رجل متقدم فى السن ، وينتمى الى جيل يختلف فكره اختلافا جذريا عن فكر الجيل الراهن من الشباب .. كما انه لم يكتب عن الشباب بوجه خاص كقوة معينة ، لها تاثيرها الخاص على الفكر الانسانى ، أو الحضارة الانسانية . هذا بالرغم من أن فكره له علاقة وثيقة بحركات التمرد الطلابية الاخيرة فى أوروبا بوجه عام ، وفى فرنسا فى مايو عام ١٩٦٨ بوجه خاص .. وهذه العلاقة الوثيقة ، علاقة غير مباشرة فى جوهرها ، وجعلت الصحافة تطلق على ماركيوز لقب الزعيم الروحى للشباب فى أوروبا . لكن هذه الالقاب التى اطلقت على هربرت ماركيوز ليست دقيقة الى حد كبير . فهؤلاء الشباب قد تأثروا بماركيوز . ولم يتأثر هو بهم .. انما تأثر بما تعانى منه الانسانية بوجه عام .. فماركيوز يؤمن بالانسانية ايمانا عميقا وشاملا ، يتجاوز مجرد الاهتمامات المحدودة القاصرة بفئات معينة من الناس ، دون غيرها .

وكما أن هؤلاء الشباب كانوا يبحثون عن ملجأ فكرى يهرعون اليه طلبا للخلاص من الازمة الفكرية التى تعانى منها الحضارة المعاصرة ، والانسانية بوجه عام .. كانوا يبحثون عن الانسانية فى الاعمال الفكرية ، وكانت اعمال ماركيوز وماوتسى تونج وتروتسكى وارنستو جيفارا ، هى الملاذ الوحيد الذى لجأ اليه هؤلاء الشباب بحثا عن الامل والخلاص لهم وللانسانية أى أنه يمكن القول بان هؤلاء الشباب « اكتشفوا » ماركيوز ، فيلسوفا يعبر عن آمالهم وعن واقعهم الممزق المهترىء ، ووجدوا فى سطور فلسفته قالبا فكريا يعبر عما يشعرون به من ضيق وسخط وتمرد . فبالرغم من أن ماركيوز ليس شابا ، بل رجلا متقدما فى السن ، ففى فكره حيوية وتدفق وشباب .. لقى استجابة تلقائية من جانب فئات من شباب أوروبا تريد الحياة ، فلا تجد سوى زيف الحياة ، وتبحث عن الأمل ، فلا تصطدم الا بيأس عميق يظهر فى سطور الصحف وصفحاتها وهى تحدث عن الموت والدمار . هؤلاء الشباب يبحثون عن الحقيقة ، ولا يجدون الا تزييفا لها .. واذا بهم يجدون شيئا من الحقيقة فى كتب هربرت ماركيوز ، فيؤمنون بها ويلوحون بها فى اجتماعاتهم ومظاهراتهم .. تماما كما يرفع شباب الحرس



ه . ماركيوز

الاحمر فى الصين نسـخا حمراء من كتاب ((مقتطفات من أعمال ماوتسى تونج)) .

ليس فكرا متفائلا

وفكر هربرت ماركيوز ليس فكرا متفائلا .. وليس هذا لأن ماركيوز تشاؤمى النزعة بالطبيعة، ولكن الاحتمـالات التى ((يتيحها واقع الفكر والحياة الانسـانية ، لا تدعو الى كثير من التفاؤل . ان الأمس لم يكن احسن حالا من اليوم ... فالماضى كانت كله حروب ، وشهد مختلف مظاهر ظلم الانسان لأخيه الانسان . واليوم اصبحت الحياة الانسانية اسوأ مما كانت عليه بالامس ، والغد لا يعدنا الا بمزيد من هذا السوء . ومن المؤلم فى كل هذه الأمور أن الانسان هو الذى يخلق هذه الظروف لنفسه ، لكى يعانى منها هو ، وغيره من البشر . فمنجزات الانسانية في القرن العشرين ليست هى مجرد توفير حياة أفضل بالات حديثة ورائعة ، مثل السيارة والطائرة والعقول الالكترونية ، بل تتمثل هذه المنجزات فيما خلقه الانسان من واقع حافل بالمآسى والظلم الانسانى . وبالطبع فان الغد لن يكون افضل من اليوم . فمن أين سيكون الخير فى عصر لا يخلق الا الشر : يؤمن به ويعتنقه وبهذا الاحسـاس ، وبهذه الرؤية يقدم لنا هربرت ماركيوز تحليلا لواقع الحياه فى المجتمع الصناعى .. وفى الولايات المتحدة بوجه خاص ، حيث تتحكم التكنولوجيـا فى كل شىء .. فتتوفر للانسان حياة سـهلة وملونة وجميلة . لكن ماركيوز يكشف لنا مأساة هذا الواقع فى كتابه ((**الانسان ذو البعد الواحد**)) One dimensional man ـ (**فى بيروت ترجمة لهذا الكتاب قدمها الـكاتب اللبنانى جورج طرابيشى . وقد كتب مقدمة لهذا الكتاب تحدث فيها عن فكر هربرت ماركيوز وفلسـفته . وصـدر الكتاب عن دار الآدب ببيروت**) ـ تتحكم فى هذا الواقع سيطرة التكنولوجيا على المجتمع الصناعى ، بشكل جعل

الانسـان هو العبد والتكنولوجيا هى السـيد القوى المتحكم . لدرجة ان التكنولوجيا جردت الانسان من انسانيته ، وجعلته لا يزيد عن كونه شيئا .. واداة . وهنا تكمن مأساة الانسانية فى هذا العصر . ولن تختفى هذه المأساة الا بحدوث تغير اجتماعى على نطاق شامل . وان كان ماركيوز يرى ان احتمالات هذا التغير الاجتماعى ليست قائمة فى الوقت الراهن ، الا انه يؤمن بأن هناك امل في حدوث هذا التغير . ولهذا يكتب هربرت ماركيوز نفس العبارة التى كتبها والتر بنجامين فى مستهل العصر الفاشى **« ان الامل لم يكتب لنا الا بسبب اولئك الذين الذين هم بلا امل »** .

الانسان ذو البعد الواحد

الانسان هو النتاج الذى يفرزه المجتمع .. فاذا سيطرت التكنولوجيا على المجتمع ، فانها تسيطر بالتالى على كل افراده . واذا فرضت التكنولوجيـا فكرا ذا بعـد واحـد ، خاضعا لسيطرتها ولارادتها ، ومحققا لأهدافها وتطلعاتها ، فلن يملى الانسان ارادته ولن يحقق ما يصبو اليه من امال واحلام . ومايحدث فى المجتمع الصناعى المتقدم والذى تسيطر عليه التكنولوجيا هو انه تبذل محاولة لاقناع الانسان بأن متعقله التكنولوجيا ، هو تحقيق لما يصبو اليه هو نفسه . فيرتبط الانسان بفكره وواقعه بما زيفته له هذه الاجهزة من زيف واكاذيب . يرتبط الانسان بهذا الواقع ، ويعتقد انه هو الذى خلقه ويجب عليه العمل على المحافظة عليه ، فى حين انه لا يحافظ الا على دوام سـيطرة التكنولوجيا عليـه وعلى حياته . بهذا يحافظ الانسان العامل على هذا الواقع وهو الذى يمثل احد القوى الرئيسية التى تعلق عليها النظرية الماركسـية الآمال فى القضاء على ظلم الانسان لأخيه الانسـان .. وتحقيق التغير الاجتماعى والفكرى المنشود . ومن هنا أصبح من العسير تحقيق الثورة العالمية، وهذه الاستحالة ليست تعبيرا عن آراء هربرت ماركيوز ، بقدر ما هى تصوير واقعى وحقيقى لما يحدث الآن فعلا فى المجتمع الصناعى المتقدم . فماركيوز مفكر يسارى تقدمى ، يؤمن بالرفض كقيمة انسانية سـامية يجب ان تحقق للبشر حياة افضل . وهذا التصوير عبارة عن محاولة منه للتعبير عن الحقيقة كما يراها هو من صميم حياته فى اوروبا وامريكا . فقد ولد فى المانيا فى عام ١٨٩٨ حيث درس الفلسفة فى مدينتى برلين وفرايبورج ، ثم رحل من المانيا فى عام ١٩٣٣ للعمل فى معهد البحوث الاجتماعية في جنيف . وبعد ذلك هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية حيث عمل استاذا للفلسفة فى جامعات كولومبيا وهارفارد وبرانديز وكاليفورنيا . وما زال يعيش فى الولايات المتحدة الامريكية حتى الآن . لهذا فان تصويره للحياة فى المجتمع الصناعى فى فترة ما بعد التكنولوجيا ، تصوير واقعى .. ومن ميدان المعركة ، اذا صح التعبير . كما انه يرى ان كل المجتمعات الصناعية وخاصة فى البلدان الاوروبية فى طريقها الى ان تصبح مثل **« مثلها الأعلى »** الولايات المتحدة الامريكية . وبالتالى لن تنتج هذه المجتمعـات الا أفرادا على نمط **« الانسان ذى البعد الواحد »** الذى خلقه المجتمع ذو البعد الواحد . وهؤلاء لن يحاولوا تحقيق ما تصبو اليه النظرية الماركسـيـة من تغيير اجتماعى ، ومن ثورة عالمية شاملة ، اذ هل من المعقول فى شيىء المطالبة بتغيير مجتمع صناعى يثبت يوميا قدرته على تنمية الانتاجية وتوفير الحياة الرغدة والرفاهية لاعضائه ؟

حقيقة المجتمع الصناعى

ومن هنا ينطلق هربرت ماركيوز الى الحديث عن حقيقة الامر .. او بالاحرى اكتشـاف الحقيقة . من هـذا المظهر السـطحى والزائف لحقيقة المجتمع الصناعى ، نكتشف زيف مايصوره هذا المجتمع من حقائق لا أساس لها ، وما يخفيه من رفاهية لا تكتسب الا على حساب الانسان. ويظهر هذا فى وصف ماركيوز للمجتمع الصناعى بانه هو برمته مجتمع لا عقلانى لان تطور انتاجيته لا يؤدى الى تطور الحاجات والمواهب الانسانية تطورا حرا ، بل على العكس من ذلك تماما . فانتاجيته لا يمكن أن تسـتمر فى التطور على الوتيرة الراهنة ، الا اذا قمعت تطور الحاجات والمواهب الانسانية وانطلاقها الحر ، شانها فى ذلك شأن السـلم الذى يعيش فيه المجتمع المعاصر ، اذ ان هذا السلم غير متحقق الا بفضل شبح الحرب الشاملة ، التى تهدد بالاندلاع بصفة دائمة . ومن ناحية أخرى فانه من الصعب التفرقة بين الظاهر والواقع وخاصة في المجتمع الصناعى المتقدم .. فهو مجتمع يتجه فيه جهاز الانتاج الذى خلقته التكنولوجيا الى ان يكون شموليا Totalitarian **، اى انه يتجاوز الاقتصار على اداء مهمة الانتاج وحدها ، بل ويقوم بمهام اخرى على مختلف مستويات الحياة المادية والفكرية ، وتحـديد انشـطة الافـراد**

وتطلعاتهم فى المجتمع . وبعبارة اخرى فان هذا المجتمع يعمل على تحقيق التلاحم الاجتماعى الداخلى ، وبهذا فانه يعمل دائما على أن يحيل الانسان بصفة مستمرة الى ذاته .. حتى يرتبط بهذه الذات : يلبى رغباتها ويسير فى داخل نطاق سيطرتها .

هذا الاسلوب فى الحياة

وفى ظل هذا الواقع القائم فى الولايات المتحدة بشكل خاص يصبح الحديث عن الديمقراطية خرافه ، لا يقبلها عاقل .. حيث تصبح مجرد نظام مخادع ، ضحيته الشعب الذى يتعرض لمختلف انواع المظالم والسيطره .. ولا يحدد هربرت ماركيوز من هو الذى يسيطر بشكل محدد انما يشير بوجه عام الى النظام التكنولوجى الكلى السائد فى المجتمع الصناعى المتقدم .. وعلى أية حال فان ماركيوز يؤكد ان السيطرة هى السمة المميزة لهذا المجتمع والمجتمعات التى تسير فى ركابه . ومن أبرز المعارفات ان الانسان يعتقد ان هذه النظم الديمقراطية ، التى تستعبده هى التى تحقق له حريته .. ومن ثم فانه يتشبث بها ويؤمن بمبادئها .. وهى نفس المبادىء التى تعمل دائما على السيطرة عليه . وحدث هذا لأن « الرفاهية » الكاذبة التى يتيحها المجتمع للفرد ، أصابت فكر الفرد بالفساد والعفن . وليس هناك دليل أوضح من تحقيق الانسان لذاته فى السلع التى يستهلكها .. ورؤية المرء لذاته فى سيارته، وفى جهاز التليفزيون الذى يشاهده .. وبهذه الطريقة فان انتشار المنتجات المادية فى المجتمع الصناعى الى عدد اكبر من الافراد ، يعنى أن الصيغة الايديولوجية التى تعبر عنها هذه المنتجات لا تصبح مجرد دعاية .. وانما **((أسلوبا في الحياة))** وأعتقد ان عبارة **((الاسلوب الامريكى فى الحياة))** كثيرا ما تتردد بشكل متكرر فى معظم افلام السينما التى تنتجها هوليوود . وهذه العبارة تدين المجتمع الامريكى اكثر مما تبرئه من اللاعقلانية المتهم بها .. ومن أنه مجتمع ذو بعد واحد . ويعترف هربرت ماركيوز بأن **((هذا الأسلوب فى الحياة))** أفضل من الأسلوب الذى الذى كان سائدا قبل ظهور الثورة الصناعية . ولكن ماركيوز يرفض فى نفس الوقت كلا الاسلوبين .. فكل أسلوب منهما لا يتيح الفرصة لتحقيق الرغبة فى الثورة .. وكل منهما يرفض **((التغيير النوعى فى المجتمع))** . وهذا الاسلوب ، او الطريقه فى الحياه لا تجعل الانسان يزيد عن مجرد كونه عبدا لا اكثر ولا اقل . ويقول ماركيوز عن هذا النوع الجديد من العبوديه : « ان عبيد الحضارة الصناعيه المتقدمه هم عبيد راقون .. ولكنهم مازالوا عبيدا ، لأن العبودية لا تتحدد بمجرد الطاعه ، ولا تتحدد بالعمل الشاق الذى يقوم به الانسان ، انما تتحدد بوضع كون المرء مجرد اداه .. والحط من قدر الانسان حتى يصبح شيئا !! » .

حرية الانسان الجديد

واذا كانت الحريه هى امل الانسان للانطلاق والتقدم .. فان الحريه فى المجتمع الذى تسيطر عليه التكنولوجيا هى اداه مثاليه للاستعباد ، وهى حريه مفروضة ، وتتحكم فيها قوى هذا المجتمع ورقاباته .. واذا كانت الحرية تعنى اتاحة الفرصه للانسان للاختيار ، فانه يختار ما يريد بالفعل . لكنه يختار أشياء محددة مفروضة عليه ، وليس بوسعه أن يختار غيرها .. والانتقاء الحر فيما بين السادة ، لن يلغى السادة والعبيد .. والاختيار الحر من بين مجموعة كبيرة من أنواع السلع والخدمات لا يعنى وجود الحرية ، اذا كانت تلك السلع والخدمات تحقق للمجتمع سيطرته على الافراد . وهذه الحرية التى يتشدق بها المجتمع الامريكى ما هى الا حرية زائفة ، لأنها لا تحقق سيادة الفرد ، بل تحقق استعباده . ومنطق المساواة فى هذا الاختيار منطق لا عقلانى ولا يمكن قبوله باى حال من الاحوال .. ((فاذا كان العامل ورئيسه فى العمل يشاهدان نفس برامج التليفزيون ، ويترددان على نفس الاماكن، واذا استعملت السكرتيرة نفس أدوات الزينة التى تستخدمها أبنة صاحب العمل ، واذا كان الزنجى يمتلك سيارة من طراز ((كاديلاك)) واذا كانوا جميعا يقرءون نفس الصحيفة ، فان هذا التماثل اذن لا يشير الى تلاشى الطبقات ، ولكنه يشير على العكس الى مدى مساهمة الطبقات السائدة فى تحديد الحاجات والتنبيهات التى تضمن استمرار السيادة لها . ((ان العقلانية التكنولوجية تكشف النقاب عن طابعها السياسى فى الوقت نفسه الذى تغدو فيه أعظم ناقل لأكمل سيطرة ، بخلقها عالما كلما استبداديا بكل ما فى الكلمة من معنى ، عالما يكون فيه المجتمع والطبيعة، الروح والجسد فى حالة استعداد وتعبئة دائمة للذود عن ذلك العالم نفسه .

وبهذا أصبح العالم السياسى منغلقا ..

وأصبح الموقف الثوري للطبقة العاملة في ((**مجتمع الوفرة والرفاهية**)) ضعيفا ومتراخيا .. ولم تعد الطبقة العاملة تمثل ذلك النقض الحي للمجتمع القائم .. ومما يزيد الامور تعقيدا وجود تنظيم تكنولوجي للانتاج في الجانب الآخر من الحاجز : جانب التنظيم والادارة ، فالسيطرة تتلبس مظهرا اداريا . واصحاب راس المال يتركون وظائفهم كوكلاء مسئولين ويأخذون وجه البيروقراطي في الجهاز الراسمالي الكبير .. ونجد أمامنا تسلسلا هرميا كبيرا ، يختفي وراءه المستلفون الحقيقيون ، بدعوى التظاهر بالموضوعية العقلانية . وهكذا يسمى الضياع والحرمان بلا هدف يتوجهان اليه ، ويحجب القناع التكنولوجي كل مظاهر العبودية واللامساواة . وفي الواقع فان الانسان بالرغم من التقدم التكنولوجي خاضع لجهازه الانتاجي .. وخضوعه هذا يزداد مع ازدياد الحريات والرفاهية .



تزييف الفكر الانساني

كان الفكر الحديث ضحية لنجاح هذا المجتمع ونظامه التكنولوجي .. فلم تعد المثل العليا التي كانت سائدة في الماضي ، وكذلك عبادة الشخصية والاستقلال الذاتي ، والمذاهب الانسانية والحب المأساوي والرومانسي الا المثل الأعلى لعصر بائد . وأصبح التناحر والصراع بين الواقع الثقافي والواقع الاجتماعي أخذا في التراخي .. ولا تتم تصفية الثقافة ((الثنائية البعد)) الا عن طريق دمجها بالنظام القائم ، وعن طريق اعادة انتاجها وتوزيعها على نطاق واسع .

وبالرغم من ادراك الناس وشعورهم بأن اعلانات الدعاية والبرامج السياسية ليست بالضرورة صحيحة أو صادقة ، الا انهم عاكفون مع ذلك على الاستماع اليها وعلى قراءتها .. بل منقادون لها ولا يماءاتها .. كذلك فانهم يقبلون بالقيم التقليدية ويعتبرونها جزءا من عدتهم الفكرية . وفي الوقت الذي تخلط فيه وسائل الاتصال الجماهيري بطريقة منسقة ومموهة في غالب الاحيان ، بين الفن والسياسة والدين والفلسفة والتجارة ، فانها تعمد في نفس الوقت الى ارجاع هذه المجالات الثقافية الى قاسم مشترك . الشكل السلعي للاشياء . ومثال ذلك ان موسيقى الروح هي أيضا موسيقى تجارية . ويبين هذا التشابه بين المثل الأعلى والواقع ،

المدى الذى تم فيه تجاوز المثل الأعلى . وهذا المثل الأعلى المنفصل عن المجال السامى للروح او الفكر ، يتم التعبير عنه بألفاظ ومعادلات وظيفية functional واذا كانت هذه الثقافه قد شوهت فهذا لأن المجتمع الصناعى المتقدم يملك الآن امكانية تجسيد مثلها الأعلى . وهكذا تصبح الثقافة الرفيعة جزءا لا يتجزأ من الثقافة المادية .. وتفقد بالتالى ، وبحكم تحولها الكثير من حقيقتها .

وهذا التزييف المتعمد للفكر ناشىء من أدراك هذا المجتمع لقيمة الفن والفكر .. فاى عمل فكرى ينطوى بالضرورة على العداء والمعارضة الشديدة للقمع والسيطرة .. لان الفكر يمثل قوة العقل النقدية ، الثورية التى تتحرك دائما واتجاه ما يجب ان يكون ، لا فى اتجاه ما هو قائم فعلا . وهذه القوة هى بالضرورة قوة ايديولوجية .. الا أن حقيقة الأمر أن المجتمع ذا البعد الواحد قد احاط الايديولوجيا بالاحتقار والازدراء باسم عقلانية المجتمع التكنولوجى . لدرجة أنه حاول ان يمتصها ويوقف مالها من فعالية . واليوم فان تقدم المجتمع التكنولوجى فى سبيله الى الغاء هذه المسافة الجوهرية بين الفكر والفن ، وبين الواقع القائم فعلا . وهنا يقول هربرت ماركيوز : ان ((الرفض الاكبر قد اصبح مرفوضـا)) .. وبهـذا اندمجت الآثار والاعمال الفنية والأدبية التى توحى بوجود هذه المسافة ، وأصبحت تتداول فيه باعتبارها أجزاء من العدة التى تزخرف عالم الاعمال المسيطر ، وتحلله نفسيا . اصبح الفن أشبه بسلعة تجارية تباع بقروش وتثير ملايين البشر فى كل مكان . ويدافع البعض عن هذا الاتجاه على أســاس تشجيع الثقافة الجماهيرية .. بالرغم من ان أغرب تسمية الى هذا الاتجاه هى ((تزييف الفـكر الانسانى)) .. واعتقد ان استخدام مقطوعات باخ وبيتهوفن كموسـيقى مريحـة للاعصاب فى المطبخ ، وبيع مؤلفات افلاطون وهيجل وبودلير وماركس وفرويد فى المحلات العامة ، من شأنه أن يحط من قدر أعمال هؤلاء الخالدين ، أكثر مما سيعمل على انتشار تداولها بين الناس . وبالرغم من هذا قد يحقق هذا الاتجاه مساواة ثقافية ، الا أنه يحمى فى المقام الأول الاتجاه نحو تحقيق سيطرة المجتمع على الانسان .

ويرى ماركيوز أن ما يسمى بالحرية الجنسية فى المجتمع الصناعى المتقدم ، ما هو الا خدعة تخدم اغراض هذا المجتمع .. فهذه الحرية أسـوأ بكثير من المعتقدات الجامدة التى كانت سائدة فى الماضى عن الجنس .. لأن مثل هذه الحرية المزعومة تؤدى الى الحد من الاشـباع الفريزى أكثر من تطويره .. وبذا فهذه الحرية تحقق أهداف ((**الوضع القائم**)) فى السيطرة والتحكم فى البشر .. وبعبارة اخرى اصبح الحب آليا كواقع الحياة نفسها ، حتى تجرد الجنس من أهم سماته الجمالية والانسانية .. وادى بالمرء الى فقدانه لا تم عناصره : وهى الراحة النفسية ، تلك الراحة التى يشعر بها الانسان وهو يمارس الحب فى احضان الطبيعة وعلى الاعشاب ووسط الجمال والحياة . ولن يشعر الانسان بشىء من هذا وهو يمارس الحب فى سيارة ، لاحساس المرء الدائم بالواقع الآلى أكثر من قدرته على الاحساس بسمو المشاعر الانسانية . فيصبح الجنس بهذا يمارس لذاته .. ولا يعود لمضمونه الانسانى والجمالى القدرة على تجاوز الجنسية الموضعية ، التى تصبح أكثر حدة عما كانت عليه . ومهما قيل من كلام كثير عن الحرية الجنسية فى المجتمع الصناعى المتقدم، فان هذا المجتمع لا يحقق هذه الحرية الا بقدر ما تصبح هذه الحرية قيمة تجارية تعود على المجتمع بمزيد من الربح والمال . ففى عـالم العمل يباح للجسم أن يعرض صفاته الجنسية، بدون أن يكف فى نفس الوقت عن كونه اداة عمل. وقد فرضت صناعه الدعاية والاعلان مقتضياتها .. فموظفـات المكاتب الفاتنـات والبائعات الحسنـاوات هن بضائع لها قيمة تجارية كبيرة .. تسـهل الكثير من الاعمال ، وتزيل كثيرا من العقبات .

واذا ما قارنا دور الجنس فى الأدب الكلاسيكى القديم ، ودوره فى الأدب المعاصر لوجدنا انه فى الحالة الأولى يتخذ شكلا مصعدا ومتساميا الى ابعد الحدود .. فيضيف بهذا الكثير على ما فى هذه الاعمال الأدبية من قيم انسانية . ونرى هذا في رواية «أنا كارنينا» لتولستوى و «فيدرا» لراسين « وأزهار الشر » لبودلير .. ونرى عكس ذلك في الأدب المعاصر من صور مثل شخصيات المدمنين فى مسرحيـات يوجين أونيل ، وأبطال فوكنر الساخطين ، وشخصيات مسرحية تنيسى وليلمز « عربة اسمها اللذة » و « قطة فوق سطح صفيح سـاخن » ، ورواية فلاديمير نابوكوف الشهيرة « لوليتا » . ففى الأدب المعاصر يعلن الجنس عن نفسه بصورة أكثر واقعية ، وأعظم جراة واقل كبتا .. الا ان الجنس يبدو كعنصر

اساسى فى المجتمع الصناعى الذى يظهر فيه ، وليس نفيا له أو احتجاجا عليه .

الضمير السعيد .. وعالم الخداع

قال الكاتب الانجليزى موريس كرانستون فى مقال له عن هربرت ماركيوز فى مجلة انكاونتر البريطانية عدد مارس ١٩٦٩ ان ماركيوز لا يجد تعبيرا افضل من عبارة هيجل الشهيرة « **الضمير السعيد** » ، للتعبير عن المرض الذى يعانى منه أفراد الطبقة العاملة والبورجوازية فى محاولتهما للحفاظ على الأوضاع والمؤسسات القائمة . وهذا الضمير السعيد ليس سوى أحد أشكال خداع النفس محافظة منهم على مصالحهم الانانية القاصرة . ان الضمير السعيد — الذى يعتقد بأن الواقع عقلانى وبأن النظام التكنولوجى يلبى الحاجات — هو خير مثال على الامتثاليه الجديدة . وليست الامتثالية الجديده الا السلوك الاجتماعى المتاثر بالعقلانيه التكنولوجيه . وهى جديده لانها عقلانيه بدرجه لم يسبق لها مثيل . وهى دعايه مجتمع حد من عقلانيه العصور السابقة البدائيه نسبيا ، مجتمع يطيل الحياه ويحسنها على نحو أكثر انتظاما عما كان عليه الحال فى الماضى .. وهذا فى وقت لم تنسحب فيه الحرب الدريه بعد ، والرفاهيه تسود المجتمع المتقدم فى الوقت الذى لم تعد فيه معسكرات الاباده النازية موجودة . والتعذيب أصبح مسالة عادية ،ولكن هدا فى الحرب الاستعمارية وعلى هامش العالم المتمدين . بيد ان هناك أيضا من يعيش بضمير سعيد : فالحرب هى الحرب . ولكنها حرب على الهامش هى الأخرى ، فهى لا تخرب غير البلدان « **المتخلفة** » . والضمير السعيد يحجب عن نفسه الصلة التى يمكن ان تكون قائمة بين هاتين الواقعتين : الحرب والازدهار . ان تعبير « **الضمير السعيد** » يقدم صورة واضحة لرؤية ماركيوز للتواطؤ القائم ما بين الانسان والقوى المسيطرة عليه والمتحكمة فيه . فالانسان يغفر لهذا المجتمع سيطرته عليه، واشتراكه معه فى هذا التواطؤ بسبب فعاليّة هذا المجتمع وانتاجيته .

ومن يقرأ مسرحيات بيكيت ويونسكو يشعر بعدم وجود اتصال انسانى حقيقى بين مختلف الشخصيات .. وهذا لأن كتاب مسرح العبث يعتقدون بأن اللغة لم تعد صالحة لتحقيق الاتصال الانسانى المنشود ، حيث أن عباراتها أصبحت خاوية من المعنى ، واذا عبرت عن شىء فانها لا تعبر الا عن واقع زائف .. بعيد عن الحقيقة . ويتفق هربرت ماركيوز مع هذا الرأى الى حد كبير ، حيث يرى أن وسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمع الصناعى المتقدم ، هى وسائل لتحقيق الاتصال بين الجهاز التكنولوجى فى المجتمع وافراد هذا المجتمع .. لاقناعه باتجاهاته وأهدافه .. وهذه الوسائل فى نفس الوقت عبارة عن أدوات لفصل الانسان عن انسانيته وعن الحقيقة كقيمة مجردة . فنجد أن وكلاء الاعلان يصنعون عالم الخداع وعالم الاتصال الذى يترجم فيه السلوك ذو البعد الواحد .. وتصبح اللغة اليومية التى يستعملها الافراد العاديون لغة توحد أو توحيد ، تهدف معانيها الى أن تكون ذات دلالات وظيفية — دلالات لها اصداء سياسية تكون فى مجموعها البناء السياسى للمجتمع الصناعى المتقدم . ومن العبارات التى تستخدم : « المشروع الحر » و « المبادرة الحرة » .. و « الانتخابات الحرة » و « الفرد الحر » . وهكذا فان الواقعة التى لاحظناها من أن نمط الحرية السائد هو العبودية، ومن أن نمط المساواة السائد : هو اللا مساواة المفروضة فرضا ، لا يمكن التعبير عنها باللغة العادية بوجه عام . وانما يتم التعبير عنها بأحداث تقليص فى اللغة حتى لا تعبر عن شىء سوى المعانى التى يفرضها هذا المجتمع ذو البعد الواحد . وما هو جديد نسبيا فى هذه العملية هو ان الرأى العام والخاص بات يقبل بصورة عامة بهذه شهادة على انتصار المجتمع على التناقضات التى الاكاذيب .. وان سيادة هذه اللغة وفاعليتها ينطوى عليها .. وعلى ان هذه التناقضات تتجدد تلقائيا بدون ان تفجر النظام الاجتماعى القائم .

فهذا الزيف نشهده فى سطور مجلة مثل مجلة « تايم » الامريكية الواسعة الانتشار .. فهذه السطور اذا قارناها بأعمال الفلاسفة الاغريق مثلا لتبين لنا ، على سبيل المثال ، أن هؤلاء الفلاسفة كانوا يعرفون المواطن بأنه رجل حر .. وكانوا يعنون بذلك انه يجب ان يكون حرا ، ولكن عندما تصف مجلة « تايم » المجتمع الامريكى بأنه مجتمع ديمقراطى فانها بهذا تعنى انه ديمقراطى فعلا ، ولا تعنى انه يجب أن يكون ديمقراطيا .. واذا كان المنطق اليونانى قد اتهم بأنه شكلى وعقيم ، فان منطق وسائل الاتصال الجماهيرية فى المجتمع الصناعى المتقدم منطق خادع .. يهدف الى خلق حقيقة زائفة ، والى

خلق اتصال بين العقول : بين عقل المجتمع وعقل الفرد . وهذا الفرد الامتثالى Homo conforms ليس غبيا .. فهو لا تخدعه محاولات الآخرين، وانما هو يخدع نفسه . ومن هنا يتبين لنا حجم مأساته .

الفكر ذو البعد الواحد

ما تزال سيطرة الانسان على أخيه الانسان تمثل فى الواقع الاجتماعى ، وبالرغم من كل تغير، استمرارا تاريخيا ، وما تزال هناك رابطة بين العقل قبل التكنولوجى والعقل التكنولوجى . بيد أن المجتمع الذى يضع الخطط ويعمل بالفعل على تحويل الطبيعة عن طريق التكنولوجيا يغير المبادىء الأساسية للسيطرة . فالتبعية الشخصية (تبعية العبد للسيد .. والخادم لصاحب القصر ، والوالى للملك) يحل محلها شيئا فشيئا نوع آخر من التبعية : التبعية التى تخضع المرء لـ ((نظام الاشياء الموضوعى)) (القوانين الاقتصادية .. السوق) . وبالرغم من أن نظام الأشياء الموضوعى من صنع السيطرة ونتاجها هو الآخر ، فان السيطرة تعتمد الآن على درجة أكبر من العقلانية .. عقلانية مجتمع يدافع عن بنائه الهرمى ،ويستغل فى نفس الوقت الموارد الطبيعية والفكرية ويوزع على نطاق كبير وباستمرار أرباح هذا الاستغلال .

وفى ظل هذا الواقع يتوجه المجتمع دائما نحو خلق فكر ذى بعد واحد ، ولغة ذات بعد واحد وتطلعات ذات بعد واحد ، تؤدى فى النهاية الى تحقيق خلق انسان ذى بعد واحد . ويستند كل البناء الفكرى والفلسفى للمجتمع ذى البعد الواحد على أسطورة : أسطورة حياد التكنولوجيا . وقد اتسم ما يسمى بالحياد التكنولوجى بسمة العصر كله ، وفكر العصر كله. وهذه السمة هى منطق السيطرة والرقابة ، الا انها سيطرة مفروضة من الداخل . والتكنولوجيا هى بالتعريف علم تحويل الاشياء (اشياء الطبيعة) الى أدوات يمكن التحكم فيها ، والسيطرة عليها من اجل استغلالها لتحقيق أهداف اجتماعية وحضارية .. ومن هنا يمكننا القول بأن التكنولوجيا تلعب دورا تقدميا يخدم الانسانية . ولكن عندما أصبحت التكنولوجيا وسيلة مجتمع صناعى متقدم للسيطرة على الانسان ، فانها اصبحت عقبة فى سبيل تحقيق حرية الفرد .. فليس هناك انسان يطمح بأن يعيش فى رفاهية مقابل التضحية بحريته .. وذلك بأن يتحول من انسان الى اداة .. أو شىء.

الأمل فى تحقيق التغيير

ولا يستبعد ماركيوز من هذه الصورة القاتمة الاحساس بالأمل .. فمن يشعر بمعاناة الانسانية واهدافها وتطلعاتها ، يشعر بالأمل دائما مهما كان خافتا وضعيفا . هذا بالرغم من تأكيد ماركيوز بأن النضال الذى يهدف الى تحقيق التغيير أصبح أصعب مما كان عليه من قبل . فلا يمكن استخدام الوسائل التقليدية للرفض والاحتجاج بالنجاح فى تحقيق هذا التغيير . ان الشعب الذى يجب ان يحقق ما يصبو اليه المجتمع من تغيير أصبح الآن اداة وخميرة التلاحم الاجتماعى . فالانسان ((ذو البعد الواحد)) هو الذى يحافظ على الوضع القائم وان يعمل على تغييره .. اذ ان تغييره يتعارض مع مصلحته الخاصة . لكن ماركيوز يعلق الآمال فى هدم هذا النظام المتحجر المتعفن ، الذى يشبه الاخطبوط ، على أيدى القوى التى عجز هذا المجتمع حتى الآن عن دمجها به : وهى قوى المنبوذين على مختلف انواعهم واللامنتمين والعاطلين عن العمل والطبقات المستغلة ، والملونين ممن يتعرضون لمختلف انواع المظالم والاضطهاد . هذه القوى سوف توجه الضربات الى هذا المجتمع الصناعى من الخارج .. ومن هنا كان عجزه عن دمجها به .. انها قوة بدائية تخرق قوانين اللعبة .. مظهرة بالتالى انها لعبة زائفة . واصرارها على عدم لعب اللعبة بعد الآن هو اليوم حقيقة واقعة تشير على الارجح الى نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى .

ويتفق هربرت ماركيوز فى رؤياه هذه مع سارتر والمفكرين اليساريين الآخرين الذين يعلقون الآمال على ظهور طبقة جديدة من ((البروليتاريا الجديدة)) من من بين الاجناس الملونة ، من ضحايا الاستعمار الجديد ، حتى يقوموا بالمهمة التاريخية التى عجزت الطبقات العاملة فى الغرب عن القيام بها . وقد شهد هربرت ماركيوز جزءا من رؤياه وهى تتحقق بظهور جماعات كبيرة من الطلاب تؤمن بمبادئه فى جميع انحاء أوروبا . منذ مايو عام ١٩٦٨ . هذه المجموعات ليست من البروليتاريا ، ولكن يمكن أن يطلق عليها اسم ((الصفوة élite)) .. فهل سيتحقق أمل ماركيوز فى التغيير ؟ ان أمل هربرت ماركيوز فى تحقيق التغيير أمل ضعيف .. ولكن من الصعب الاجابة على مثل هذه التساؤلات فى عالمنا الذى نعيش فيه الآن .. وسوف نرى .

احمد السعدنى

هربرت ماركيوز .... ونظرية نقد المجتمع

عرض: أحمد فؤاد بلبع

لقد أصبح الناقد الاجتماعى شخصية شعبية تماما فى الغرب ، منذ الحرب العالمية الثانية ٠ ويمكننا بسهولة تفسير هذا التهافت المتزايد على النظريات النقدية للمجتمع حيثما اتخذت تناقضات التطور الاجتماعى طابعا ظاهريا حادا يدركه الرأى العام ٠

وتعد مثل هذه النظريات اليوم نوعا من المعالم (أو المقاييس التى تسجل التغيرات فى الرأى العام) يسجل القدرة على النقد الذاتى التى يكشف عنها التفكير الاجتماعى داخل الاطار الاجتماعى لرأسمالية اليوم ٠ ان مستوى النقد الذاتى ، الذى يمكن أن يرتفع اليه التفكير الاجتماعى، يعد مؤشرا لوجود أو غياب الامكانيات الداخلية لتطوره ٠ ومع ذلك ففى أى تحليل علمى للنقد الذاتى النظرى ، لا يكون أهم الامور هو المستوى النقدى الذاتى ، ولأفكار ونوايا واضعى مختلف النظريات ، بل ما اذا كانت مفاهيمهم نقدية فى محتواها الموضوعى وفى دلالتها الاجتماعية الموضوعية ٠

وتلك الاجابة ذات أهمية كبيرة للمفاهيم الاجتماعية النقدية المتعددة الذائعة الانتشار فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية ، والمتغايرة الخواص على أعلى درجة ٠ فهى تختلف فى جوانبها السياسية والايديولوجية والميثودولوجية ، وتتطلب موقفا وتقويما متمايزين بحزم ٠ وتعد مفاهيم هربرت ماركيوز، وهو فيلسوف اجتماعى اكتسب مؤخرا شعبية واسعة النطاق ، نمطا نوعيا من النظرية الاجتماعية ـ النقدية ٠

واستنادا الى هذه المفاهيم ، تتميز نظرية ماركيوز فيما يتعلق بالبلاد المتقدمة صناعيا ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، (اعترف ماركيوز

نفسه بأن نظريته قد انبثقت من مشاهداته لتطور ذلك البلد) ، باتجاه الى ظهور ظرف اجتماعى خاص ، أسماه ظرف « الأحادية البعد » الاجتماعية •

ويلعب النموذج النظرى « للمجتمع الأحادى البعد » دورا هائلا فى مفهوم ماركيوز ، فهو يرى فى «الأحادية البعد» الاساس الرئيسى للاتجاه النقدى للتنظيم الاجتماعى • وفى مجال الانتاج يرى ماركيوز «أحادية بعد» فى اندماج الوحدات والحلقات الصناعية المختلفة فى كائن مفرد ، تخضع كل أجزائه خضوعا حازما لبعضها البعض • ونتيجة لذلك ففى رأيه أن «الكلية» عامل حاسم بالنسبة للمناخ الاجتماعى بأسره • وهو يعنى بالكلية اقامة نظام شامل ومتكامل ، ومضبوط بصورة رشيدة ، للمؤسسات الصناعية والادارية والتعليمية التى يؤثر كل منها فى الآخر ، أى نظام للتفاعل الوظيفى الشامل لكل عناصر الحياة الاجتماعية • ان الوحدة الكلية التكنولوجية الاقتصادية الادارية ، كما يصفها ماركيوز ، تستمر فى « أحادية بعد » الواقع الاجتماعى ـ السياسى • ففى السياسة تخفى التمايزات الخارجية بين الأجزاء الاساسية وحدة داخلية ، تتعارض مع التحول الى قوة قادرة على المحافظة على التوازن وتكرار الانتاج الذاتى للنظام القائم • ومع تتبع منطق الجدل هذا ينكر ماركيوز كل التطلعات الثورية والامكانيات الثورية للطبقة العاملة بالبلاد الرأسمالية المتقدمة • وهو من ناحية الجوهر يحول دور الطبقة العاملة وتنظيماتها الى أداء وظائف « مجموعة ضاغطة » يزعم أنها لا تشجع سوى تهدئة التناقضات الاجتماعية الداخلية ، واستعادة التوازن فى نظام بيروقراطية احتكار الدولة •

ويرى ماركيوز أن المقدرة على مقاومة القوى والتغيرات الاجتماعية المخربة ، وعلى المحافظة على الاستمرار والاستقرار ، أى المقدرة على احتواء التغيير الاجتماعى ، هى القسمة الرئيسية «للمجتمع الأحادى البعد» • وفى رأيه أن مجتمع اليوم يتمتع باندماج لم يسبق له مثيل بين الفرد والوجود الاجتماعى والسياسى بأسره • ولم يعد ذلك «تكيفا» بسيطا وبراجماتيا للوسط الاجتماعى باعتباره واقعا خارجا عن الفرد ، وانما هو تطابق فعلى بين المجتمع والفرد ، و « غرس » للمعايير والمؤسسات الاجتماعية فيه بطريقة غير واعية ، وتحولها الى بعد داخلى لشخصيته • ويرى ماركيوز فى ذلك واحدا من أقوى الاتجاهات التى تعمل تلقائيا بصورة مطلقة ، وتصوغ الرجل « الأحادى البعد » فى تطابق حازم مع المجتمع « الأحادى البعد » •

ويقتنع ماركيوز بأن الخطر الرئيسى على البشرية يشكله التفكير « الأحادى البعد » فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية ، الذى كثيرا ما يتصور هذا الظرف متمتعا بمزايا واضحة بالنسبة للظروف الاجتماعية السابقة له تاريخيا ، بل ويرى فيه أحيانا تجسيدا للمثل التى طورتها البشرية فى مسيرة كثير من البلاد • وهو يحاول عندما يشرح هذه الحقيقة أن يسجل كل «مزايا» المستوى الراهن للحياة الاجتماعية كما تحققت من خلال التطور السريع للعلم والتكنولوجيا • ويرى أن من المحاسن التى تعزى الى المجتمع الذى ينقده أنه زاد من ثروة المجتمع ككل زيادة هائلة ، وأنه وسع وعمق سيطرته على الطبيعة ، ووفر له تنظيما رشيدا للانتاج والادارة ، كما وفر نتيجة لذلك مستوى ماديا لرفاهية جماهير الشعب ، واستهلاكا أعلى بكثير مما كان فى الماضى • ويسفر

كل ذلك عن انسان ذى نظرة استهلاكية «سعيدة»، ويرى ماركيوز أن تلك النظرة (الاعتقاد بأن هدف النظام القائم هو انتاج وتوفير القيم المادية) تعبر عن المسايرة الاجتماعية وتؤدى الى نشوئها ٠ ويقول ان من الأمثلة النموذجية على ذلك الوعى الشكل النوعى لتبرير الموقف المساير ٠ وبطبيعة الحال فان النظام الصارم لتحديد الحياة وسلوك الفرد يمكن أن يحرم الانسان من الحرية ومن امكانية تقرير المصير ، بيد أنه يجادل بصفة عامة على النحو التالى : « ليس هناك من سبب للاصرار على تقرير المصير اذا كانت الحياة الموجهة حياة مريحة ، بل وحياة طيبة ٠ وهذا هو الأساس الرشيد والمادى من أجل توحيد المتناقضات ، ومن أجل سلوك سياسى أحادى البعد ٠ » (**الانسان الأحادى البعد** one-Dimensional Man ٢ ص ٤٩) ٠

وطبقا لمفهوم ماركيوز فان الرأى السائد فى المجتمع « الأحادى البعد » يتمسك بأن المصلحة المشتركة لكل أعضاء المجتمع الراهن تنحصر فى الدفاع عن **الوضع الراهن** ، وتدعيم النظام الاجتماعى الراهن ، والوصول الى حد الكمال ، والنضال ضد الحلول البديلة التى تهدد ذلك النظام ، كما تنحصر فى المحافظة والوضعية ٠ ومن الأفكار السائدة أيضا أن القوى المرشدة للتنظيم والادارة هى وحدها التى تعمل فى ذلك المجتمع ، وأن العلاقات بين الطبقات ، والمجموعات والأفراد ، تقوم على أسس معقولة ووطيدة ، أى أن مجتمع « الانسان الأحادى الجانب » فى مجموعه يبدأ فى الظهور على أنه « تجسيد للعقل » ٠

ويقول ماركيوز انه فى وعى « سعيد » ومساير نجد خاصية داخلية جديدة للحياة الاجتماعية ، **مع واقع اجتماعى جديد يبدو تلقائيا وآليا ٠** ومع ذلك يؤكد أنه لا ينبغى أن يغيب عن الذهن أن مثل هذا الواقع هو فى حد ذاته نتاج للادارة والتنظيم **المتعمدين** ، ونتيجة لا « للنظام الموضوعى للأشياء » فقط ، وانما لممارسة تخطط بعناية وتتحقق على نطاق واسع للمعالجة الايديولوجية لوعى الناس ومشاعرهم ، وكذلك لممارسة تحولهم الى الجماعية ، وتربيتهم بروح الأنماط والقيم « المعيارية » و « المقبولة على النطاق العام ٠» وعلى خلاف كتاب من أمثال د ٠ بل ، س ٠ ليست ، ممن يرون أن المجتمع الأمريكى الراهن يقوم دليلا على « نهاية الايديولوجية » ، يدرك ماركيوز أن الايديولوجية توجد لا فى صورة المفاهيم الموجهة نحو اعادة بناء اجتماعى رئيسى ، وانما أيضا فى قدرة نظام معقد للمبادىء الايديولوجية ، والنماذج النمطية ، والرموز ، والقيم الروحية المصممة لمواءمة أعضاء المجتمع مع العلاقات الاجتماعية القائمة والنظام القائم للأشياء ٠ وهو يولى اهتماما خاصا للحقيقة الواضحة ، وهى أنه فى الولايات المتحدة اليوم يحظى ذلك النوع من الممارسة **الايديولوجية** ، التى تجد تعبيرا عنها فى أنشطة وسائل الاعلام الجماهيرية القوية ، والمؤسسات التربوية ، وما شابه ، بقبول على نطاق واسع ٠

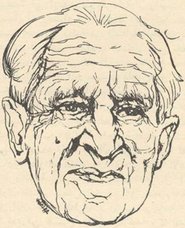
ويعتقد ماركيوز أن التناقض الأساسى لعصرنا ينحصر فيما يلى : فمن ناحية يتطور المجتمع فى ادارة الأشياء والناس « بمعقولية » داخلية كامنة فيه ولا يمكن القضاء عليها ، وهى معقولية تجد أبرز تجسيد لها فى « أحادية البعد » ٠ وعلى خلاف محبذى المجتمع الصناعى ، يرى ماركيوز أن « أحادية البعد » العقلانية سمة مميزة سلبية للمجتمع الراهن ٠ ومع ذلك يمضى من الناحية الأخرى قائلا ان الأمر الأكثر أهمية هو أن « هذا المجتمع لا عقلى فى مجموعه ٠ ان انتاجيته مدمرة للتطور الحر للاحتياجات والقدرات البشرية ، ويصان سلمه بالتهديد المستمر باشعال الحرب ، ويتوقف نموه على قهر الامكانيات الحقيقية لتهدئة الصراع من أجل البقاء ـ فرديا ، وقدميا ، ودوليا ٠ » ويتساءل ماركيوز قائلا ما الذى يترتب على الاشراف المباشر للتصريح القهرى الذى يفسح الطريق أمام السيطرة الادارية والايديولوجية والسيكلوجية ، وعلى طابع العمل المتغير ، وعلى ارتفاع معين يصبح ملموسا فى مستويات المعيشة ؟ ان مجتمع اليوم تسوده قوى لا يمارس الفرد أى اشراف عليها ٠ فما الذى يترتب على عجز أغلبية الناس فى ذلك المجتمع « الأحادى البعد » عن ادراك تلك التبعية ؟ « ان رقيق المدنية الصناعية المتطورة رقيق يخطى بالتمجيد ، بيد أنه رقيق ٠ » (المرجع نفسه ، ص ٣٢٠)

ويمضى ماركيوز قائلا انه فى المجتمع الراهن المتقدم صناعيا بالولايات المتحدة وأوربا الغربية يسير نمو « النظام العقلانى » جنبا الى جنب مع « الاسترقاق التقدمى للانسان بوساطة الجهاز الانتاجى ٠٠ » (المرجع نفسه ، ص ١٤٤) ، مما يسفر عن تدمير حياة أولئك الناس الذين يخلقون وسائل الانتاج ويستعملونها ٠ وهكذا فان المجتمع الرأسمالى الراهن ، الذى يسلم ماركس بضخامة منجزاته ، يظفر فى مفهومه

بتقدير سلبى **معبرا عنه بصورة متميزة** ، ومرجع ذلك أساسا الى أن تطور ذلك المجتمع يشوه ارادة الفرد وقدراته ، ويحكم عليه بالتحول الى رقيق لا ريب فيه ، وان كان مغلفا ومموها ومقنعا ٠

وبسبب كل ذلك فان التوازن بين «الزوائد» و «النواقص» ، فى مجتمع يميزه ماركيوز نفسه بأنه مجتمع « أحادى البعد » ، يبدو له توازنا **سلبيا** ، وهو يصل علاوة على ذلك الى نتيجة مفادها أن **مثل هذا المجتمع ينبغى تدميره بطريقة ثورية** ، واحلاله بمجتمع جديد من حيث المبدأ ٠ ومع ذلك فهل مفهوم ماركيوز حقيقة مفهوم راديكالى ونقدى بهذا القدر ، من حيث مضمونه، ومن حيث محتوياته الموضوعية ؟ سنحاول فى هذا المقال تقديم اجابة على هذا السؤال ، وعلى هذا السؤال وحده ٠

وهدف هذا المقال هو المساعدة على تبديد الأوهام الموجودة اليوم فى عقول كثير من المثقفين الغربيين الذين يتوقون الى الاسهام فى الأنشطة الثورية ، ويقبلون ما يبدو فى راديكالية ماركيوز ونظرياته من طابع ثورى على علاته ٠ وينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن ما تنصب عليه مزاعم ماركيوز ليس مجرد دور خبير فى الشئون العامة يعبر عن مزاج تلقائى لاحتجاج راديكالى ، وانما



هـ . ماركيوز

دور المنظم الذى يقال انه يخلق نظاما لنظرة عالمية أصيلة وثورية ، دور الفيلسوف الذى يقال انه اكتشف وصاغ المبادىء الميثودولوجية لتفكير نقدى ثورى متسق ٠ وعند القيام بمثل هذا الدور ، يحاول أن يمارس ، وهو يمارس حقيقة، تأثيرا معينا على وعى قسم معين من الشباب الطلبة والانتلجنسيا فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية٠ وهذا هو السبب فى أن الاجابة على سؤال ما اذا كانت نظرية ماركيوز « نظرية نقدية » ، هى أنها فى الحقيقة نظرية متسقة تتطلب تحليلا للبنيان المنطقى الداخلى لمفهومه النظرى ، وللمبادىء الفلسفية والميثودولوجية لتفكيره ، ولميكانيزم الرؤيا الاجتماعية التى تكمن خلف المخططات والأساليب الايديولوجية للحجج التى يستخدمها٠

●

ومنذ أن أعلن ماركيوز أن رسالته هى أن يثير فى عقول الشباب نزعة الى التفكير الثورى والنقدى ، اعتبر الوعى « الأحادى الجانب » ، والتبريرى بصورة صريحة مباشرة ، خصمه الرئيسى ٠ وجدير بالذكر أن الحياة الروحية « الأحادية البعد » للبلاد الرأسمالية المتقدمة ، التى دقق ماركيوز فى وصفها ، ونقدها بعنف ، تعد اتجاها واقعيا يتصل بتطوير وتدعيم الدور الذى تلعبه بيروقراطية احتكار الدولة ٠ وقد

أوضح ماركيوز أن الثقافة الراهنة فى الولايات المتحدة فى أيدى البيروقراطية ، وأنها أداة « للمسايرة الاجتماعية » وللتأثير فى الشعب ، وأنها أصبحت ذائبة فى الدعاية الجماهيرية ، وتحولت الى أحد مجالات الاعمال التى تخضع لمنطق حسابات دوائر الاعمال ، أو للمهام العملية « للادارة الكلية » . وبسبب ذلك يضل الناس السبيل ، وينسون ما هم عليه من حرمان من الحرية ، كما يظهر ما يسمى وعى المستهلك « السعيد » . وفى هذه الحالة ، كما يقول ماركيوز ، تصبح الثقافة «أحادية البعد» أيضا ، بمعنى « أنها تكف عن أن تكون بعدا نقديا بالمقارنة بالواقع القائم » . وحتى تلك الاعمال الادبية والفنية التى يبدو أنها تدعو الى فكرة السلوك المتسم ببعض الخروج على النظام القائم (مثل أفلام قطاع الطرق أو الادب الوجودى) ، فانها تعد فى نهاية الامر « تأكيدا ، لا نفيا ، للنظام القائم » . (المرجع نفسه ، ص ٥٩) .

ومجال المعرفة الاجتماعية عند ماركيوز يصبح على نحو متزايد أداة للمسايرة والبيروقراطية . وتصبح هذه المعرفة فى أساسها معرفة بوقائع مثل وقائع الوظائف الفردية والوضع الفردى ، وليس معرفة بالاساليب التى تضعها البورجوازية ، ولا بأهداف التقدم الاجتماعى ، وهى معرفة ستاتيكية وغير تاريخية . أى تتسم بكل أعراض التفكير الأحادى البعد » . ومثل هذه المعرفة لا تناسب سوى الترشيد الوظيفى للعمليات المختلفة فى الجهاز البيروقراطى ، وهى تخفى اللامعقولية العاملة « الجوهرية » للحياة الاجتماعية . ولذا يدعو ماركيوز الوضعية والاجرائية والوظيفية « الأحادية الجانب » الشكل النظرى العقلانى لنظام لا عقلى » . كما أن العلم اجتماعى الموجود الآن فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية يعد أيضا غير مقبول فى رأى ماركيوز ، « بسبب طابعه التطبيقى التبريرى والتوفيقى والبرجماتى » (المرجع نفسه ، ص ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ٧٩ ، ١٠٧ ، ومواضع أخرى) .

وكما نرى فان النقد الذى وجهه ماركيوز الى الاشكال الراهنة للمعرفة الاجتماعية الملموسة فى البلاد الرأسمالية يعد نقدا شديد البراعة . ومع ذلك يشوبه عيب كبير ، هو التقدير والفهم «الأحاديا البعد» للعمليات الشديدة التناقض التى تحدث فى مجال العلوم الاجتماعية .

فهل صحيح أن علم الاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى ، التى تستخدم أساليب الاستقصاء التجريبى ، كثيرا ما تخدم فى هذه الظروف التاريخية الملموسة (نظام البيروقراطية الاحتكارية) الأهداف الفردية والعملية ، والنفعية بصورة براجماتية ، للتنظيم الاجتماعى السائد ؟ نعم ، هذا صحيح . وهل صحيح أنه قد ظهرت فى هذه الظروف نفسها فجوة خطرة واغتراب متبادل للتفكير النقدى الاجتماعى ــ الفلسفى الموجه نحو تقاليد لا انسانية ونحو الأبحاث الاجتماعية الملموسة ؟ نعم ، هذا صحيح . ولكن هل بوسع المرء أن يطابق بين المنطق الداخلى والمتناقض الملازم لتطور الدراسات الاجتماعية ، وبين تلك الوظيفة الواقعية والتاريخية والايديولوجية التى تكتسبها مثل هذه الدراسات فى التركيب الاجتماعى المعطى ، أى فى ظروف تدعيم بيروقراطية احتكار الدولة ، فى ظل تأثير هدف اجتماعى طبقى محدد ؟ وهل بامكان المرء ببساطة أن يلغى المخططات والمناهج العلمية فى انتقاء المادة الحقيقية التمثيلية فيما يتعلق بأوضاع وميكانيزمات وظواهر ملموسة معينة فى وعى الشعب ، وذلك لمجرد أن مثل هذه المخططات والمناهج يستخدمها «مفتشو المصانع» والرسميون و« المهندسون الاجتماعيون » للأغراض التى صاغتها البيروقراطية ؟ كلا ان ذلك غير ممكن .

ان ماركس ولينين ، اللذين قدما أمثلة كلاسيكية للنظرية النقدية الثورية ، قد دمجا ووحدا بين التفسير الفلسفى وتطور تقاليد التفكير الانسانى ، والبحث العلمى والتاريخى ، فى العمليات والظواهر الواقعية المتناقضة الأكثر تنوعا ، التى تؤثر فى طرح وحل مشكلة الانسان . وقد اكتسبت التقاليد الثقافية لمذهبيهما دلالة خاصة اليوم ، فى عصر التعقيد البالغ لنظام العلاقات الاجتماعية ، وزيادة سرعة العملية الاجتماعية ، والحركات الاجتماعية الجماهيرية ، حيث تزداد حاجة البشرية الى اتخاذ قرارات مسئولة تقوم على أساس علمى ، والى التدعيم العلمى لنظام للتوجيه الاجتماعى للمجتمع وللشخصية ، تندمج فيه البرامج الطويلة الأمد للتجديد النوعى لنظام العلاقات الاجتماعية بأسره مع المعرفة التفصيلية والأكثر تدقيقا للميكانيزمات المتنوعة التى تعمل اليوم بالفعل ، ومع معرفة الامكانيات الموضوعية والاطار الموضوعى للممارسة الاجتماعية فى مكان معطى وفترة زمنية محددة .

ان تشويه علم الاجتماع باعتباره نمطا من أنماط المعرفة العلمية ، فى أعين تلك الاقسام من المجتمع التى برزت تدافع عن مثل الانسانية

والديمقراطية ، تعد احدى النتائج الايديولوجية للتطور النوعى الأحادى الجانب للدراسات العلمية الاجتماعية فى الغرب • وفى هذا الوضع تكتسب النظريات الاجتماعية - النقدية شعبية كبيرة ، وهى نظريات فى جوهرها نوع من رد الفعل «الأحادى البعد» لزيادة نشاط الاشكال المقتربة للبحث الاجتماعى • ويؤدى الموقف الأحادى الجانب ، والسلبى تماما ، من ازاء مناهج العلم الاجتماعى الراهن وتطبيقاته العملية الى نتائج خطيرة للغاية • ويعد مفهوم ماركيوز مثلا معبرا عن هذه الحقيقة • ومن المعروف أن النظريات الاجتماعية النقدية تقوم على وصف المجتمع الذى هو هدف ذلك النقد ، وصف علاقات وميكانيزمات السلوك الانسانى ، وهيكل دور الفرد ، ودوافعه وخبراته وما شابه ، وكلها نموذج لذلك المجتمع • فاذا رفض المنظر من حيث المبدأ ، عند وصفه للمجتمع ، مناهج وأساليب البحث العلمى والاجتماعى ، فغالبا ما يضطر الى الارتكاز على أفكاره الذاتية ، أو على الافكار التى توجد فى الوعى اليومى وتقدم نفسها له كحقائق واضحة معينة •

وقد رفض ماركيوز استخدام الادوات التى يسرها البحث العلمى ، والتى باستطاعتها الى حد ما مساعدته على تنويع مثل هذه الافكار وتقديمها بصورة موضوعية • وقد يحدث أن الافكار التى يراها الناقد كسمة مميزة ملائمة للوضع الراهن فى المجتمع الراهن ، تكون فى الواقع مشبعة بأوهام فتشية (تقديسية) ، وتعد أشكالا مقلوبة للوعى ، وتحمل طابع تأثير وجهات النظر الايديولوجية ، والنماذج النمطية ، وأطر العقل ، والأوهام ، تعد نموذجا للتفكير المساير الذى يرفضه النقد الاجتماعى •

ولنصور هذا الفكر بالتراكيب النظرية التى وضعها ماركيوز • كان ماركيوز مشغولا بطابع التأثير الذى يمارسه الانتاج الصناعى الراهن والتكنولوجيا الراهنة على الانسان والمجتمع ، وهو التأثير الذى يعتبره المصدر الرئيسى «لأحادية البعد» المسايرة للوعى وللأشكال البيروقراطية غير الانسانية للتنظيم الاجتماعى • وهنا يقبل ماركيوز المسلمة الأولية للتفكير « العلمى » التبريرى الذى يوجد فى مخططات روستو وغيره من المدافعين عن نظرية «المجتمع الصناعى» ، التى تعبر كما هو معروف بشكل عام (لماركيوز أيضا) عن مصالح بيروقراطية احتكار الدولة • وعند نقد ماركيوز لهذه النظرية باعتبارها مظهرا نموذجيا للتفكير «الأحادى البعد» و « الوظيفى التقنى » ، فانه فى الحقيقة يستعير من و•روستو ، وغيره من الرسميين والخبراء المماثلين الذين يضعون أنفسهم فى خدمة الجهاز البيروقراطى •

ومع ذلك فان التبرير الواعى أو غير الواعى للبيروقراطية كثيرا ما يصدر اليوم عن المخططات المنطقية للحتمية التكنولوجية : فهى تعتبر النزعة البيروقراطية نتيجة وشرطا ضروريين للتطور الفعال والرشيد للانتاج الصناعى الراهن والاقتصاد فى مجموعه • فبيروقراطية احتكار الدولة ، كما هو معروف ، تدرك وتعكس أنشطتها الخاصة وتنظيمها الخاص أولا وقبل كل شىء فى مفاهيم ومصطلحات الكفاية الاقتصادية التقنية • وهى تفرض تلك النظرة التقويمية الداخلية على الدراسات الاجتماعية باعتبارها اطارا مقيدا ومرشدا لتطوراتها •

والتفكير الذى يوائم بين نفسه وبين التنظيم البيروقراطى للمجتمع هو فى رأى رجل العلم والرجل «الأحادى البعد» على حد سواء مجرد رمز للرفاهية المادية والكفاية الاقتصادية • بيد أن ماركيوز نفسه لا يخالف ذلك ، فهو يعرب بوضوح عن ازدرائه للتفكير الأحادى البعد • وهو ينظر الى الروابط والصلات بين رفاهية الانسان المادية والاشكال البيروقراطية وغير الانسانية للتنظيم الاجتماعى والتكنولوجيا الحديثة باعتبارها سلسلة من العوامل المعتمدة على بعضها البعض •

وقد درس ماركس هذه الروابط فى المجلد الثالث من **«رأس المال»** ، وأوضح الازدواج الداخلى الذى يميز أشكال ادارة الانتاج الذى يسير جماعيا ، ولكنه يتم فى ظروف الرأسمالية • كما أوضح أن تنظيم الادارة فى هذه الظروف لا يخضع للمطالب الموضوعية للسلوك اللازم للانتاج الصناعى الحديث وحدها ، بل يخضع أيضا للمصالح الطبقية للفئات الاجتماعية السائدة اقتصاديا ، أى أن هذا التنظيم يفرض سيطرته على الأشياء وعلى الناس معا • ان اختيار البدائل فى عملية التحكم ، اختيار معايير الكفاية الادارية ، يتوقف على نظام القيم السائدة التى تعكس فى نهاية الامر الهيكل الاجتماعى - الطبقى الموضوعى والنمط المشروط تاريخيا لحضارة مجتمع معطى •

ويقبل ماركيوز عن ايمان ، بل ويحول الى احدى المسلمات الاساسية للتفكير « النقدى » ، فكرة تعد سمة مميزة لنظرية «المجتمع الصناعى المفرد» ، المصاغة من حيث الجوهر فى اطار تلك النظرية • وتعالج تلك الفكرة عدم أية فروق جوهرية بين رأسمالية اليوم والاشتراكية (انظر حديث ماركيوز الصحفى مع مراسل جريدة **لوموند** الفرنسية فى ١١ مايو ١٩٦٨) ، ولها وظيفة

محددة فى الصراع الايديولوجى الراهن ، تهبط فى وعى الرجل العادى بمكانة طبيعة الملكية الخاصة للعلاقات الرأسمالية ، وتشوه المحتوى الأصيل للاشتراكية العلمية لماركس ولينين • وليس من قبيل المصادفة ، فى مفهوم ماركيوز ، أن فكرة « المجتمع الراهن » كثيرا ما تتم المطابقة بينها وبين فكرة « المجتمع الصناعى المتقدم » وهو ما استعاره أيضا بصورة غير نقدية من نظريات و٠روستو ورايموند آرون وغيرهما) ، على حين لا يكون الموقف من وسائل الانتاج ومن الملكية متضمنا فى السمات الأساسية للمجتمع • وعندما يعطى ماركيوز سمة مميزة معممة للتنظيم الاقتصادى للمجتمع الراهن، فانهعلى غرار المدافعين عن نظرية « المجتمع الصناعى » ينظر الى الأنشطة الصناعية والادارية داخل المشروع الصناعى الحالى على أنه نموذج أولى للتنظيم الذى ينجز فيه تحول الوظائف ، والحلقات المختلفة الى الجماعية داخل نظام مفرد ، مضبوط بصورة عقلانية ، لتقسيم العمل وتبادل الأنشطة • وبذا تكون الأسس السياسية الاقتصادية والسمات المميزة لذلك التنظيم مغفلة تماما ، وهو ما يعد أيضا صورة نموذجية للتفكير البورجوازى التبريرى •

ان البحث الاجتماعى الموجه بيروقراطيا قد ركز اهتمامه على مشكلات الناس « وسيرهم جماعيا » على ضوء الاحتياجات الوظيفية لتلك الادارة ، وعلى دراسة المعالم والخواص المحددة للفرد التى يتعلق بها سير ميكانيزمات المسايرة • ان كل الخواص والميكانيزمات التى تتناقض مع هذه الأهداف ، أو التى لا تتمشى معها، اما أنها لم تصبح موضوعا لبحث فنى ، أو أصبحت تعد مظاهر قصور وأعراضا «للسلوك غير المساير» • وقد انصب التركيز على التحكم فى الوعى واخضاعه للسيطرة• وكان لهذا التركيز دلالة **ايديولوجية** بصورة متميزة ، كما كان مؤشرا يرمز الى نظام محدد لدراسة وتفسير وتقويم الانسان وصفاته وخصائصه الاجتماعية • وكان هذا النظام هو الذى نظر اليه ماركيوز ، ومعه كل الحق فى ذلك ، على أنه «أحادى البعد» ، ينتقص كثيرا من التناقضات الفعلية ومن الازدواج فىطبيعة المجتمع الرأسمالى •

وفى الوقت نفسه يقبل ماركس عن ايمان الصورة « الأحادية البعد » للمجتمع الراهن ولوضع الانسان فيه ؛ وهو يتفق مع الفكرة الواسعة الانتشار القائلة بأنه لا يكون سائدا فى هذا المجتمع سوى اتجاه واحد نحو المسايرة تام القدرة والشمول ، وبأن الوعى يصبح بصورة متزايدة خارج نطاق السيطرة • وجدير بالذكر أن الدراسات الاجتماعية فى الغرب ، المتصلة تاريخيا بالاعلان التجارى على النطاق الجماهيرى ، قد ركزت اهتمامها الرئيسى على شخصية الانسان كمستهلك وبائع ، وعلى دراسة الميكانيزمات التى تشجع **الشراء والاستهلاك** ، وعلى امكانية التحكم فى الدافع البشرى نحو الاستهلاك ، وفى تنشيط هذا الدافع ، وايجاد أثر نفسى محدد نتيجة لاشباعه •

وهذه الأشكال البراجماتية — النفعية النوعية للنظرة الى مشكلات الاستهلاك من جانب الهيئات التى تخصص الأموال للبحث ، ثم من جانب الباحثين ، كانت تبرر ايديولوجيا بالاشارة الى نمو سلع الاستهلاك التى تنتج على نطاق كبير ، والى الضرورة الاقتصادية للمحافظة على معدلات نمو صناعى عاليه ، وما شابه • وقد كان الاهتمام الأحادى بالتوقعات والعادات الاستهلاكية للفرد يتصل داخليا بنوع خاص من الموقف الايديولوجى من انسان اليوم ، وبأشكال « أحادية البعد » ايديولوجيا لرؤية وتفسير جوهر ذلك الانسان •

ان ماركيوز ، الذى تشكل حقائق تطور سيكلوجية المستهلك وموقف المستهلك تجاه الحياة شاغلا كبيرا له ، قد أدرك فى الوقت نفسه ، بروح نقدية ، هذه الأنواع « الأحادية البعد » من وجهات النظر • وقد قبل بصورة جدية للغاية الايديولوجية « المتفائلة » المرضية ذاتيا للاعلان التجارى على النطاق الجماهيرى • وأسفر ذلك عن سيادة نظريته بفكرة « أحادية البعد » وللمجتمع الصناعى المتقدم الذى يوجد اليوم ، باعتباره يتحول الى مجتمع «استهلاكى»• وهناك ظهرت صورة ناقصة الجوانب أحادية البعد أحادية الجانب للفرد باعتباره نموذجا لذلك المجتمع — أعنى الانسان الاستهلاكى ، الذى يتمتع أيضا بوعى راهن ، أو حتى بوعى « سعيد » •

ومن الناحية الجوهرية ظلت مشكلة مصادر الفقر ، والتباينات الاجتماعية الحادة فى مستويات المعيشة ، فى بلاد الرأسمالية المتطورة ، خارج نطاق رؤيا « التفكير النقدى » عند ماركيوز ، وكذلك الحال بالنسبة لديالكتيك المتطلبات المتصلة بالتطور الروحى للفرد • وكذلك تفسر بطريقة أحادية البعد الحقائق الجلية فى سخط الناس على مستوى الاستهلاك الذى لا يدل دائما على موقف استهلاكى ضيق ازاء العالم ، وكثيرا



ما تتحكم فى هذه الحقائق المطالب الضرورية والعادلة للجماهير العاملة ، وهى المطالب التى لابد من الاهتمام بها ، من الناحيتين العملية والنظرية ، فى أى برنامج للنزعات الانسانية ٠

ان نظرية التحليل البنيانى الوظيفى ، التى ظهرت فى الولايات المتحدة ، وكذلك ممارسة البحث على أساس تلك النظرية ، تستخدم كنموذج عملى ، نموذج « قيمة ـ معيارى » للمجتمع ، يكون المجتمع طبقا له **نظاما للقيم والمعايير الأكثر قبولا وبروزا** ٠ وقد صمم هذا النموذج من دراسة المجتمع ككيان متكامل ، الا أنه كيان من نوع خاص ، كيان ينظر اليه قبل كل شيء من خلال منشور الضوء المتمثل فى الميكانيزمات التى تعمل من أجل الابقاء على استقراره الداخلى والنسبى ٠

وقد وضع هذا النموذج فى الحقيقة فى «**بعد واحد محدد**» ، وكان عاجزا عن أن يحيط

بالديالكتيك الداخلى للكائن والوعى الاجتماعيين، أو أن يفسر الأساس الدنيوى الممزق من داخله للمجتمع كسمة مميزة لتطوره تظهر بوضوح شديد فى المجتمع ذى المصالح المتعارضة • ان التركيز الأحادى الجانب على ميكانيزمات التكامل الايديولوجى ، والذى كان لا بد لتسجيله من استخدام نموذج وظيفى معيارى ، قد ازداد قوة نتيجة للأشكال السائدة للرؤيا الاجتماعية عن طريق تنظيم وظيفى رشيد للاجهزة الادارية ، وعن طريق استخدام العواطف والرغبات البشرية •

ويدين ماركيوز هذا « المجموع الكلى الأحادى البعد » الذى يعد مناقضا للتطور الحر للشخصية البشرية ، وللطاقات والمبادرات الفردية • وهو يسمى ذلك شكلا مقنعا للعبودية • ومع ذلك لم يكن فى ادراكه للمجتمع المحيط به قادرا على التغلب على «أحادية البعد » الايديولوجية التى تعد أيضا سمة مميزة للتفكير الوظيفى التبريرى الأحادى الجانب • بيد أن ماركيوز ، على خلاف التبريريين المباشرين ، يضع علامة سالبة فى مواجهة تلك السمة الأحادية الجانب • وعلى الرغم من أنه قد أعلن نفسه نتاجا للفلسفة الكلاسيكيه الألمانية ، وأنه قد برز داعيا الى الانتقال من أسلوب فى التفكير وضعى تماما الى تفكير ديالكتيكى ، لا يفهم جوهر الديالكتيك بوصفه أساسا للنقد الثورى • ويمكن للمرء أن يطبق عليه السمة المميزة الملائمة التى أعطاها ماركس لبرودون : عند تفسيره لهيجل لم يذهب الى أبعد من النفى البسيط •

والنقد فى مفهوم ماركيوز تقويمى من الزاوية الانفعالية ، وهو منبت الصلة بالواقع المتناقض المتعدد الأبعاد ؛ وهو يغفل التطور الداخلى للعلم الاجتماعى وللبحث السسيولوجى والتاريخى والاقتصادى ـ السيكلوجى المنتظم فى العمليات والروابط الاجتماعية المنوعة لعصرنا • وهو عاجز عن التكامل فى نظرية ، وعن أن يفهم من وجهة نظر الديالكتيك العلاقة الفعلية للاتجاهات المختلفة والمتناقضة فى مجال الانتاج المادى الراهن ، وفى مجال تنظيمه الاجتماعى ، وفى الهيكل الاجتماعى والطبقى ، ووعى الناس وسلوكهم ؛ انه عاجز عن أن يكشف وأن يقوم بدقة فعالة الاتجاهات الفعلية التى تعد اليوم (أو يمكن أن تصبح فى الغد) أساسا ووسيطا مغذيا للحركات السياسية العملية التى تحقق بدائل فعلية ، لا أوهاما ، فى التاريخ المعاصر •

وتعد مفاهيم ماركيوز تصويرا للقسمات النموذجية فى وعى هو نقدى فى تطلعاته الذاتية ، يفشل فى اعادة تقويم المقدسات الزائفة التى تميز الوعى الايديولوجى السائد فى المجتمع الذى يرفضه • ويتقبل ماركيوز نموذجاخاليا من التناقضات الديالكتيكية الموضوعية ، ويتصور أنه صورة للحقيقة ، ثم لا يلبث أن يهاجم هذا النموذج هجوما عنيفا ، ويصفه بأنه نموذج مثالى للمجتمع ثم **تبسيطه** عن طريق الوعى الأحادى البعد • ان النظرة الأحادية البعد الى واقع اليوم ، والى اتجاه تطوره، تجعل ماركيوز عاجزا عن رؤية الانتقال من الفعلى الى المرغوب فيه • **ويعنى هذا أن المرغوب فيه لا يعتبر سوى نفى ميكانيكى وكامل للفعلى •**

ويعتبر ماركيوز نفسه اشتراكيا ، بيد أن القارىء يعجز عن أن يجد فى كتاباته أى عرض منتظم ، أو عرض يقوم عليه دليل منطقى، لبرنامج للتحولات الاشتراكية • ان السمات المميزة للمثل الاشتراكى فى كتاباته سمات غامضة وغير محددة ، وهى تقدم بصفة عامة على أنها **مستوى انثروبولوجى مجرد** • ان الاقتصاد السياسى ، أو التنظيم البنيانى لمشكلات الاشتراكية ، يعد من حيث الجوهر اما غير مطروح على الاطلاق ، أو يدفع به الى الخلفية • ويقال الكثير عن « التغير الاساسى فى اتجاه النقد التقنى » ، «واعادة البناء الكامل للجهاز التقنى » ، والقضاء على المعقولية التقنية ، وما شابه • ولا ينكر ماركيوز أن الاشتراكية تتطلب مستويا عاليا من التطور التكنولوجى ولكنه لا يعرف فيما يختلف ذلك التطور عن العملية التى تحدث اليوم ، التى يرمز لها عادة بفكرة «الثورة العلمية والتكنولوجية» • وهو يسلم أيضا بعجزه عن الاجابة عما اذا كانت الامكانيات والاتجاهات الداخلية للانتاج المعاصر الضرورى تمهد الطريق للانتقال الى الاشتراكية•

ويدرك ماركيوز ، ولهذا الأمر أهميته ، ان المفاهيم العامة المتعلقة بالتغييرات الاجتماعية الاساسية لا بد أن تقوم على أساس من التحليل العلمى لاتجاهات التطور الاجتماعى الموجودة الآن بالفعل ، والتى تنشأ فى اطار عصرنا الحاضر ، والتى تمهد الطريق لتلك التغيرات • وهو على حق تماما فى قوله : « ان المعايير ينبغى أن تشير الى الحالة التى يدرك فيها مشروع تاريخى امكانيات معطاة ـ لا امكانيات شكلية ، وانما تلك التى تتضمن أساليب الوجود البشرى » • (المرجع نفسه ، ص ٢١٩) ومع ذلك فان هذه الفكرة الصحيحة لا تلقى منه الا اعترافا لفظيا ،

وهى تكتب باستمرار بوساطة عادات التفكير «الاحادى البعد»، والميتافيزيقى انطوباوى تاريخيا• ومن ناحية الجوهر لا يستطيع ماركيوز سوى أن يلجأ الى مثل هذه المفاهيم التقويميه مثل «الحرية» و « الجمال » و « السعادة » وما شابه • وهو يدرك فى الوقت نفسه بصورة جزئية الطابع الطوباوى للتجريد المصاحب لهذه التعبيرات العامه وانفصالها عن التحليل الاجتماعى العلمى والجدلى حقا • وهو يعترف دون أى أسف بأن الاشتراكيه هى مرة أخرى فكرة مجردة •

ويحلم ماركيوز بالثورة الاجتماعية والاشتراكية ، ولكنه فى الوقت نفسه يعترف (ويقدم اعترافه هذا فى أشكال مختلفة • فى كل كتاباته الرئيسية الاخيرة) بأنه لا يرى فى عالم اليوم قوى اشتراكية استطاعت أن تكون أدوات لتحول جذرى ، واشتراكى بصورة أصيله، للمجتمع • كتب فى عام ١٩٦٦ يقول : « ان النظريه الاشتراكية ، مهما كانت صحتها ، لا تستطيع أن تقرر الادوات المقبلة للتحول التاريخى ، ولا أن تتنبأ بهذه الادوات » • (**الانسانية الاشتراكية** ، نيويورك ، ص ١١٧) •

والحقيقة أن ماركيوز يعتبر أن القوى الاساسية اليوم ، التى كانت تعارض بوضوح شديد رأسمالية اليوم التضامنية ، هى من ناحية تلك القوى التى تعرف «بانتلجنسيا الطبقة الوسطى»، وبخاصة الطلبة ، ومن ناحية أخرى الاقليات المقهورة من السكان : المجموعات الاجتماعية والأقليات العرقية التى تشكل الاعماق الدنيا من المجتمع البورجوازى • وبينما يحيى ماركيوز العصيان الاجتماعى لهذه المجموعات ، يعترف (وذلك أمر ينبغى التأكيد عليه) أولا بأنها أقلية من السكان ، وبأنه ليست بينها مجموعة يمكن أن توفر «الاساس البشرى» للعملية الاجتماعية فى الانتاج الحالى • ومن ثم يستخلص أن قوى المعارضة هذه ، فى حد ذاتها ، لا يمكن أن تعتبر أدوات تاريخية للتغيير الاجتماعى • (انظر نص رسالته الى ندوة اليونسكو فى مايو ١٩٦٨) • وفى رأى ماركيوز أن حركة الطلبة ، واضطرابات الأقليات المضطهدة ، يمكن فى أفضل الاحوال أن تسفر عن تحلل المجتمع القائم •

وعلى الرغم من أن ماركيوز، فى حديثه الصحفى مع مراسل جريدة **لوموند** فى ١١ مايو ١٩٦٨ ، قد أنكر بشدة أن يكون «انهزاميا» ، فان نظريته الاجتماعية ـ النقدية ، **لا يمكن بأية طريقة ، اذا تكلمنا موضوعيا ، أن تثير الثقة والأمل فى النصر فى قلوب وعقول الناس الذين يعملون بنشاط من أجل اقامة مجتمع اشتراكى بطريقة ثوريه ، ومن اجل تحقيق مثل الديمقراطيه الاشتراكية والانسانية الاشتراكية** • ولا توفر هذه النظريه جوهريا الاطار لتجسيد علمى لافاق التحولات الاجتماعية الراديكالية ، وهو الاطار الذى يترتب عليه أن تتحول هذه الآفاق الى خيال • وليس من قبيل الصدفه أن يختم ماركيوز كتابه الرئيسى بالكلمات التالية : «ان النظريه النقديه للمجتمع، لا تملك أية مفاهيم يمكن أن تصل الفجوة بين الحاضر ومستقبله ، فهى لا تحمل أية وعود ولا تظهر أى نجاح ، انها تظل سلبيه • وهكذا فهى تريد أن تبقى مخلصة لأولئك الذين وهبوا ، دون أمل ، ومازالوا يهبون ، حياتهم للرفض العظيم»• (**الانسان الأحادى البعد** ، ص ٢٥٧) •

وهو اذ يفصل نفسه عن الاساليب المباشرة للدفاع عن النظام الرأسمالى ، وفى الوقت نفسه يردد صراحة عدم ايمانه بانتصار القوى التقدمية فى الصراع ضد ذلك النظام ، يثبط من عزيمة أولئك المشتركين فيه حقيقة • ان هربرت ماركيوز يقود نظريته موضوعيا الى نتيجتها المنطقية تماما• فالتفكير الذى يزعم أنه قوة نقدية ثورية لا يسفر سوى عن مجرد أسلوب رومانسى بصورة ساذجة، أو عن تعبير تأملى عن الخواطر لا جدوى منه •

ولا يوجد للرفض النظرى للمجتمع الرأسمالى المعاصر ، فى نظرية ماركيوز ، أى سند نظرى فلسفى ـ ميثودولوجى أو أساس علمى • ومن الناحية الجوهرية لا تتحقق أعلى درجات النقد الا فى تسجيل الاحاسيس والمشاعر المريضة للوعى العام غير المتطور لمجموعة الناس المعارضين لبيروقراطية احتكار الدولة • وقد أعطى ماركيوز طابعا نظريا لهذه العملية التلقائية التى هى فى مجالات كثيرة عملية فوضوية فردية • فاذا أغفل المرء الادانة « التقويمية » للرأسمالية فى مذهب ماركيوز ، فما يتبقى هو تصوير للمجتمع الرأسمالى يردد نماذج نمطية متكررة للتبرير الايديولوجى الراهن ، ويعد « وضعية مصاغة فى صورة نقدية » ، « وضعية فى الاتجاه المضاد » • وفى مفهوم ماركيوز **يحارب التفكير الأحادى البعد نفسه بنفسه** ، كما يتم انكار الرأسمالية على أساس الوعى التقديسى البورجوازى الراهن •

عن مقال بقلم ى• زيموشكين ، ن•متروشيلوفا، فى مجلة « العلوم الاجتماعية اليوم » ، التى تصدرها أكاديمية العلوم السوفييتية •

أمريكا والإنسان

جينزبرج ... أمريكى له قلب بوذى

عبد الحميد فرحات

● قلت للطبيب : أريد أن أتحرر من كل شىء .. من ملابس ورباط عنقى .. وأريد أن أفعل ما أشاء .. !!

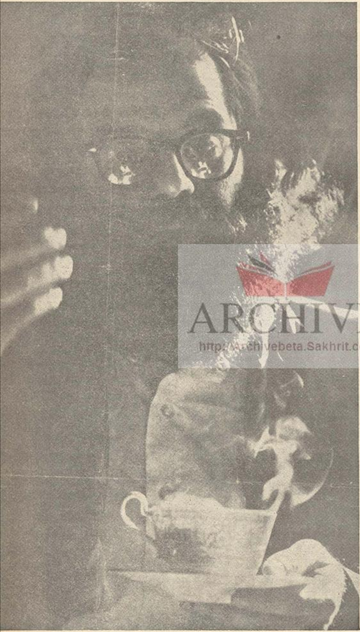
● الحنان هو الغذاء وهو الكساء .. وبدونه نصبح عرايا النفوس والابدان .. !!

● القتلى يا أماه .. أصحاب الأجساد الصفراء النحيلة .. ماذا نقول لهم يا أماه .. حين يسألنا الرب عنهم .. !!

● فى قطار يتحرك من كيوتو الى طوكيو تكشفت لى حقيقة طيبة .. فانا أعيش في جسد لابد أن يموت .. !!

قد يبدو الشاعر الأمريكى المعروف « اللن جينزبرج من خلال نظرة سريعة عابرة ظاهرة شاذة ومتناقضة وسط حضارة أمريكا التى تسحق بقوة المادة والعلم كل ما يقف فى طريقها ، غير أنه يبدو فى الوقت نفسه من خلال نظرة فاحصة انسانا معقولا ومتسقا مع ظروف حياته الخاصة ، ومع المبادىء الانسانية التى يدين بها ، ومع الرسالة العظيمة التى وهب نفسه لها ، فلكى نعرف حقيقة جينزبرج الانسان والشاعر يجب الكشف عما فى حياته من أحداث فريدة تركت بصماتها الواضحة على فكر جينزبرج وسلوكه .

وحياة جينزبرج فى جملتها تشبه الى حد بعيد ذلك العالم السرى المثير الذى تعيش فيه شخصيات شكسبير .. عالم الرؤى المسحورة والأشباح التى تلهم الانسان حلولا للمشاكل التى تعذبه . وهى تشبه أيضا حياة فيلسوف الدانمرك الحزين دائما المعذب دائما « سيرن كيركجور » .. الحياة المثقلة بالألم والندم والخطيئة والسعى الدائم الى التكفير .



كان مولده فى أسرة عرف كل أفرادها بغرابة التصرفات والسلوك ، وعرفوا أيضا بميولهم الالحادية رغم يهوديتهم الرسمية • وكان والده مدرسا فوضويا يحسن قول الشعر ، أما أمه فهى امرأة موفورة الجمال شديدة الشذوذ • وكان الشىء الوحيد الذى يجمع بل أجيال عائلة جينزبرج هو اصابتهم جميعا فى سن الشباب بالامراض النفسية ، ولقد شاهد الفتى بنفسه أمه الجميلة تتعذب بالشيزوفرانيا ، وبكى طويلا عندما أخذوها الى احدى المصحات العقلية حيث عاشت آخر عمرها ، ويبدو أن جينزبرج قد أخذ عن أمه حساسيتها الشديدة خاصة بالنسبة لآلام وعذابات الفقراء •

ومن المؤكد أن جزءا كبيرا من تصرفات جينزبرج الغريبة يمكن أن تفسر فى اطار البيت الذى ولد فيه •• البيت الذى لا يعرف التزامات دينيه أو اجتماعيه •• والذى يجمع بين كل أفراده حساسيه شديدة تصل فى معظم الحالات الى مستويات مرضية •

ومن ثم ، كان طبيعيا جدا أن يبدو الطالب الملسن جينزبرج الملتحق حديثا بجامعة كولومبيا سنه ١٦٤٣ عريب الطباع والأطوار بالنسبة لزملائه •• وكان جينزبرج فى هذا الوقت شديد الاحساس بنفسه ، وفى نفس الوقت شديد الاحساس بمشاكل زملائه الطلاب • غير أن سلوك الطالب الشاب قد حير ادارة الجامعة ، فقد تخطى من ناحيته مرحلة الاحساس الى مرحلة العمل • ولذا ، أخذ الفتى يقيم الندوات الشعرية يطالب بحقوق التلاميذ ويطالب بمزيد من المعونات المادية التى تقدمها الحكومة لهم • ولقد أطلق عليه زملاؤه فى هذه الفترة اسم « النبى الشاعر » ، وكان نبى جامعة كولومبيا يخرج فى كل يوم بعد انتهاء الدراسة ليبحث عن عمل يتكسب منه •• ولقد عمل هذا الانسان الحساس فى أعمال كثيرة مرهقة ومتواضعة •• من ذلك العمل كبواب ليلى للمتاجر الصغيرة •• وشيال بمحطات الأوتوبيس •• وجرسونا يغسل الصحون فى مطاعم الفقراء• ومن المؤكد أن ممارسة مثل هذه الأعمال البسيطة قد أكسبت شاعرنا معرفة وثيقة بالطبقات الفقيرة الممارسة لهذه الحرف ، وأنها كانت لديه طاقة أطل من خلالها على الواقع المثير للحياة الأمريكية الصاخبة •

وعلى الرغم من هذا كله ، كان من الممكن أن يكون جينزبرج انسانا عاديا جدا ، بل أن يكون نموذجا للأمريكى الرأسمالى الذى يبدأ من الصفر الى المليون ، بل أن يكون أكثر من هذا وريثا شرعيا لكل مافى التراث الأمريكى النفسى والخلقى من رذائل • ومن ثم يرى التفاوت الطبقى الشديد أمرا طبيعيا ، ويرى العدوان على فيتنام أمرا مطلوبا ، ويرى فى قوة المال كل شىء • كان من الممكن أن يكون جينزبرج هذا كله لولا أن عاملين هامين قد غيرا مجرى حياته : العامل الأول — هو هذه الحساسية النادرة تجاه كل ماهو انسانى ، والتى زادت بدون شك بسبب أمراضه النفسية، ومعاناته الفقر الشديد • والعامل الثانى — هو رحلته الى بلاد الشرق وخاصة الى الهند واليابان، واطلاعه خلال هذه الرحلة على فلسفات الشرق الروحية ، ومقارنتها بما فى وطنه من فلسفات •

فبفضل العامل الأول أدرك جينزبرج الحساس جوهر المجتمع الامريكى ، وأدرك الفرق المذهل بين باطن أمريكا وبين مظهرها • فلا شك أن المجتمع الامريكى يعانى تناقضا مثيرا بين الأصل والصورة ، بين الخارج والداخل ، بين الجوهر والعرض • بل ان امريكا هى البلد الوحيد فى العالم التى تصيب من يزورها لأول مرة بالدوار العقلى ، فالاطار الخارجى للحياة الأمريكية شىء لا يصدقه عقل • فامريكا من الخارج ضخمة للغاية ، أضخم من كل تصور ، والى درجه يشعر من يراها للمرة الأولى بالضآلة الشديدة • غير أن شاعرنا الشاب بما زودته به حساسيته من مقدرة على « الغوص » حتى قاع الحضارة الأمريكية استطاع أن يرى الحقيقة •• أن يرى حضارة مادية قامت على حساب حضارة انسانية •• وقوة عدوان هائلة قامت على حساب امكانية سلام ضخمة •• وجملة من المتناقضات المثيرة يجمعها الى بعضها اطار براق وشفاف • وعندما عرف جينزبرج الحقيقة تعذب كثيرا ، ولم يجد لديه غير الكلمات الصادقة دواء لعلة النفس والوطن • فاذا كانت كل فلسفة كيركجور تكفيرا عن خطيئة أبيه حين عارض السماء ذات يوم فى سهول جتلقد ، فان كل أشعار جينزبرج وتأملاته تكفير عن خطايا وطنه أمريكا •• خطايا ارتكبتها وترتكبها فى كل لحظة وفى كل شبر فوق الأرض •

وأمريكا عند جينزبرج هى بلد العقلاء جدا العاقل بالمجنون والمجنون بالعاقل حتى يتعذر على وبلد المجانين جدا ، أو هى البلد التى يختلط فيها العاقل بالمجنون والمجنون بالعاقل حتى يتعذر على المرء أن يفرق بينهما • ومن ثم فالحياة الأمريكية فى نظره «معرضا شاملا للجنون غير الرسمى» ،

ولابد لمن يعيش فى أمريكا أن يعيش داخل هـذا المعرض ويتجول فيه • وأمام هذه الحقيقة خطر لشاعرنا القيام بتجربة غامضة ومثيرة تشبه كل مافى وطنه من غموض واثارة ، فقد سأل نفسه : ماذا يفعل العاقل حين يجد نفسه فى مجتمع كل أفراده من المجانين ؟ • وأجاب نفسه : كى ينقذ مثل هذا الرجل نفسه لابد من التظاهر بالجنون • ثم ترجم جينزبرج هذه الاجابه عمليا بأن طلب ادخاله الى احدى المصحات العقلية كى يعالج من سـوداويه أليمه تمسك به دائما •• لقـد كان جينزبرج هنا مثل « علماء الطبيعة » فى مسرحية دورنمات المعروفه •• يحتمى بالجنون من سخافات العقل وأخطائه • وعاش جينزبرج فى المصـحة بضع شهور يلاحظ نزلاءها ويتتلمذ على أيديهم • ومن خلال هذه الاقامه عرف الشاعر جمله من الحقائق المثيرة ، عرف أن البراءة الخالصة توجد فقط لدى المجـانين ، فالبراءة توأم الجنـــون ، والخطيئه توأم العقل • واكتشف جينزبرج أن المجنون هو الانسان الوحيد الذى يصرح بكل ما فى أعماقه بغير تحفظات تفرضها شروط العقل ، وها هنا زاد وضوح الطريق أمام الشاعر •• فلا بد أن يرتفـع صوته أراد الآخرون أم لا •• ولابد أن يخرج مافى جوفه تقبله الاخرون أم لا • وقلت للطبيب : « أريد أن أتحرر من كل قيد •• من مـلابسى ورباط عنقى •• وأريد أن أفعـل ما أشاء » • وترك جينزبرج المصحة الى الحيـاة الصـاخبة ، الى المعرض الشامل للجنـون غـير الرسمى ، وقرر على الفور أن يقوم بجولة لحساب كلمة الحق فى كل أنحاء أمريكا •

وما أن يظهـر جينزبرج فى مكان ما حتى يعرفه الجميع من مظهره الغامض المثير •• بملابسه القديمة غير المهندمة •• بجسده النحيل الضعيف •• بصوته العميق المقنع •• بشعر رأسه الآشعث ولحيتـه المرسلة • وما أن يظهر حتى تتغير كل ملامح المكان ، ففى لحظات قليلة يندفع النـاس حـوله خاصة الشباب ، وتتوقف الحيـاة تماما ويتحول الجميع الى آذان صاغية •• وكالسـحر تتسلل كلمـــاته الى أعماقهم •• كلمـات حلوة مثقلة بالانسانية •• وكلمـــات قوية تدافع عن الحق •• وكلمات سلام تستنكر العدوان • ومن الطبيعى أن لا تطول اقامة جينزبرج فى مكان ما ، اذ سرعان ما تطارده « السلطة الأمريكية » ويزرع البوليس العيون من حوله • وقبل أن يأخذوه – أو يعيدون – الى السجن يكون الرجل قد اختفى وقد ترك خلفه فى كل النفوس أشياء جديدة ••

وترك الجميع يختلفون حوله • بعضهم يقول هذا مجنون مخبول العقل •• والبعض الآخر يقول بل هذا عبقرى ونبى يبشر بالمحبة والآخاء •• !

ثم حدث التحول الكبير فى حياة الشـــاعر عندما قام بزيارة الشرق فى عام ١٩٦١ • وآخذته هذه الرحله الى بلاد الهند ، وفى مدينـة كالكتا أعطته الحكومة الهندية – بعكس الحكومه الامريكية – تصريحا بقول الشعر فى كل مكان ، ومع التصريح رجاء حار بأن يفعل ما فى وسعه حتى لا يسبب للهند أزمات سياسية مع حكومة بلاده • ولفت نظر الشاعر فى الهند ذلك الثراء الروحى الكبير المميز لهذا الشعب الفقير جدا ، وفتنه بصـــفة خاصة الجمعيات الروحيه التى تمارس ما يعرف فى الهند ب « شعائر الجورا » ، وهى ضرب من الرياضيات الروحية جوهرها مقاومه الشـــهوات ومجاهدة الماديات – وأعتبر الزائر الامريكى نفسه عضوا منتسبا فى انديه الجورا •• وآخذ يمارس طقوسها باخلاص مثير •• فيسير الســـاعات الطويلة حافى القدمين فى جبال الهملايا الوعرة ويقوم بزيارات متكررة لبـــلاد التبت المسحورة وللجبال المقدسة التى تحيط بها ، وأخذ جينزبرج يمارس رياضة اليوجا العظيمة • وصرح الشاعر برغبته فى قبوله عضوا بجمعية « مانجا » البوذية للنشاطات الروحية ، وفى احتفـال دينى بهيج احتفل بقبول عضويته وعشق جينزبرج الترانيم والابتهالات الدينية البوذية ووهب نفسه منـذ هذه اللحظة للسماء •

وكان المفروض بعد هـذا أن يعـود جينزبرج الى بلاده ، غير أن هاتفا فى أعماقه دفعـــه الى الذهاب الى اليابان فى ربيع ١٩٦٣ ليتزود من روحانيات الشرق – وفى اليابان أصبح شـاعرنا تلميذا مخلصا لأساتذة جمعية « زف » للبحوث الروحية وفى مقدمتهم « شيقا » و « فيشفو » ومما يروى عن زيارته هذه لليابان أنه قد أصيب بحمى شديدة وهو فى القطار ما بين مدينة كيوتو ومدينة طوكيو ، وأثناء الحمى العنيفـــة تملكت

الشاعر حالة من حالات الشفافية الكاملة وتكشفت له حقيقة بسيطة كثيرا ما تغيب عنا ونحن فى زحمة حياتنا اليومية ٠٠ فالانسان يعيش فى جسم لابد من فنائه ٠٠ بل ان كل ما يحيط بالانسان أشياء زائلة ٠٠ فكل ما فى الوجود مرتبط بالموت ٠٠ والموت هو الحقيقة الوحيدة التى تجمع بين كل مفردات الوجود ـ وخلال هذه الحمى كتب جينزبرج قصيدته « التغير » ليقول :

« فى قطار يتحرك من كيوتو الى طوكيو تكشفت لى حقيقة طيبة ٠٠ فأنا أعيش فى جسد لابد أن يموت » ٠

على هذا النحو قدر لوليد الحضارة المادية الملحد المعذب ، أن يتلقى على يد الشرق أرقى الدروس الروحانية ، وأن يتحول بفضل هذه الدروس الى عابد كبير لكل ما فى الوجود من حق وخير وجمال ٠ وعاد الرجل الى وطنه وفى وجدانه تعاليم الشرق وفى صدره قلب حكيم من حكماء البوذيين ـ ومنذ أن عاد وهو يطوف بكل شبر فى الولايات المتحدة بل ويتعداها الى غيرها من الدول الاوربية ، ليبشر بالانسان وسط حضارة تذبح فى كل لحظة وجود الانسان ٠ ومن الطبيعى أن تسبب له مثل هذه الجولات الانسانية الكثير من المشاكل والمواقف الحرجة ٠



فذات يوم فى صيف ١٩٦٥ وقف يلقى أشعاره فى جامعة « بتراسكا » وأمامه خمسة آلاف طالب ، وتحول المكان كله الى كتلة من الصمت لا يدب فيها غير صوته يقول : « لنقل للصغار على مائدة الافطار ٠٠ هيا كونوا انفسكم ٠٠ واخرجوا من خلف سدود القلق » ٠ وينصت الجميع وهم يستمعون الى فلسفة قادمة اليهم من أقصى الشرق : «الحنان هو الغذاء وهو الكساء ٠٠ وبدونه نصبح عرايا النفوس والأبدان » ٠ ويشتعل المكان بالتصفيق ويسرع البوليس الى فض الندوة قبل أن « يعرج » الشاعر كعادته على مناقشة الحكومة الامريكية سياستها فى الداخل والخارج ٠٠ وهو الموضوع المفضل لديه ٠

وقد تعرض جينزبرج خلال جولاته لمواقف حرجة أليمة ٠٠ فخلال زيارته لمدينة لندن عقد ندوة شعرية كبرى فى « البرت هول » أمام جمهور بلغ أفراده سبعة آلاف ٠ وقبل أن يفتح الشاعر فمه ارتفع الصفير من كل أركان القاعة، وتعالت الصيحات تسخر من مظهره الفوضوى

المثير ومن شعره الاشعث المترب دائما ، وفى لحظات حزينة قذفه البعض بالزهور الذابلة والزجاجات الفارغة . وأمام هذا العداء ظل جينزبرج صامتا يتحمل كل شىء ثم فتح فمه وقال : أنتم اخوتى .. البيض والسود اخوتى .. الحمر والصفر اخوتى .. برغم الحدود .. برغم السدود .. الكل اخوتى » .. وطوال ساعات ثلاث كاملة اخذ يتحدث عن اهمية الحرية بالنسبة للجنس البشرى كله . وفى لحظات مثيرة تملك الجميع الذهول والندم .. وفى نفس اليوم خرج محمولا على الاعناق فى مظاهرة رائعة طافت بالشوارع الرئيسية فى لندن .. وبالاضافة الى هذا كتب مدير « البرت هول » فى اليوم التالى اعتذارا رسميا نشرته الصحف اللندنية وأذاعتها اذاعتها .

ولم تأت متاعب جينزبرج من ناحية الجماهير فقط بل كانت أيضا من ناحية الحكومات . فخلال زيارته لكوبا ولتشيكوسلوفاكيا أخذ يتحدث عن متاعب وآلام الانسان فى ظل النظام الشيوعى بنفس الحماس الذى يتحدث به عن تدمير الرأسمالية الفاسدة لروح الانسان . ولم تجد الحكومة الكوبية أو الحكومة التشيكوسلوفاكية من حل سوى طرد هذا الرحالة الامريكى الذى يتحدث بروح الشرق وقلب الشرق .. والذى لا يعجبه العجب .. !!

والشىء الذى يعذب ضمير جينزبرج هذه الايام هو ما تفعله حكومته فى فيتنام .. وهو لا يمل الحديث عن العار الامريكى فى آسيا .. ولا يكف عن استثارة الضمير الامريكى لايقاف حد لهذه المجزرة الاليمة . ومن أشهر ما قاله جينزبرج فى هذا الموضوع قصيدته المطولة التى القاها فى جامعة كانشاسا والتى بدأها بعبارة صارخة : « من هنا أعلن نهاية الحرب» ، ويستمر قائلا :

القتلى يا أماه ..

قتلى الحرب وقتلى الجوع ..

قتلى البيت الابيض المجنون ..

قتلى عذاب الأرواح ..

قتلى قضبان السجون ..

القتلى يا أماه .. أصحاب الأجساد الصفراء النحيلة ..

ماذا نقول لهم يا أماه .. حين يسألنا الرب عنهم .. !!

ولا يقف جينزبرج عند حدود القاء القصائد بل يتعداه الى التحدى الصريح لكل مسئول عن العدوان ، ولقد وجه ذات يوم خطابا الى «روبرت ماكنمارا» قائلا : « عزيزى السيد ماكنمارا ، قبل كل شىء أرجو أن تحتفظ بهدوئك وبرودك فليس هناك يا سيدى أى خطر رئيسى يمكن أن يهدد وجود أى انسان بصفة نهائية .. ولا حتى أنت .. فأنت أيضا فى مأمن وسلام .. بنفس الدرجة التى نفترض فيها كون أعدائنا فى مأمن وسلام » .

ويظل جينزبرج يتحرك ويتحرك .. ويكفى أن يظهر فى مكان ما حتى تتغير كل ملامح المكان .. يندفع الناس حوله .. وتتسلل كلماته الى أعماقهم .. كلمات حلوة مثقلة بالانسانية .. وكلمات سلام تدافع عن الحق .. وكلمات حرة تستنكر . ويختفى الرجل بسرعة قبل اعتقاله وبعد أن يترك فوق الالسن عبارات متناقضة « هذا مجنون مجنون » لا بل هذا نبى يبشر بالمحبة والسلام .

« عبد الحميد فرحات »

العدد القادم من الفكر المعاصر

عدد خاص عن قضايا العلوم الانسانية

يشترك فى تحريره الصفوة المثقفة من

أساتذة الجامعات والنقاد والمثقفين .

عناصر الحرب النفسية

د. أحمد فايق

يتساءل الدكتور مصطفى زيور فى مقالـه عن « التفسير النفسى للسلوك الاسرائيلى » (الأهرام ٩ ـ ١٠ أغسطس ١٩٦٩) : كيف أمكن أن ينقلب الرعديد الجبان (اليهودى) سفاحا ، ثم جنديا مقاتلا بين عشية وضحاها ؟ . يقوم هذا التساؤل على ملاحظة عميقة الأثر فى تكوين فكرة فخطة للحرب النفسية مع اسرائيل . من الواضح أن انقلابا خطيرا قد حدث للشخصية اليهودية فى الفترة الأخيرة تحول فيها الشباب منهم الى مقاتلين شرسين بعد أن كان يعرف عنهم فى العالم أجمع الوداعة والخنوع ـ ونزع الشيوخ منهم أقنعة الاهتمامات المادية البسيطة والشخصية المحدودة ليكشفوا عن وجوه جهمة فيها من الصلافة ما فيها .

وأهمية التساؤل تتركز فى أنها تثير قضية الحرب النفسية من جذورها : هل من الممكن أن يتحول وينقلب البناء النفسى لأمة من الأمم انقلابا



جذريا يجعل الخانع منها عصيا والخائف مخيفا والذليل مذلا ؟ لقد فاجأتنا حرب يونيو ١٩٦٧ بأن أمرا من هذا القبيل قد حدث لتلك الاشتات الانسانية المبعثرة فى العالم أجمع فتجمعوا على البعد وتهجموا بعنف ـ عنف لا يفسره تأييد الولايات المتحدة وحدها ـ ويفسره تغير قد حدث فى هذه الفئات • فكان الأمر لنا أشبه بصحوة بعد طول نوام ، فاتجهت أبصارنا الى عريق مجد كنا فيه ونظن أننا ما حرمنا منه رغم السنين ،وجالت العقول فى النفوس تبحث فاذا ببعضها يلمح تغيرا قد حدث لنا ولكن فى الاتجاه المعاكس • لقد كنا فأصبحنا •• وقد كانوا فأصبحوا •

نعود الى التفسير الذى قدمه الدكتور زيور لما حدث من انقلاب فى الشخصية اليهودية • لقد رجع الدكتور زيور هذا الانقلاب الى خبرات اليهود خلال فترة الاضطهاد النازى لهم وفتكه بهم وتهديده بافناء جنسهم • فتلك الخبرة ـ على حد قول الدكتور زيور ـ خبرة فريدة فى تاريخهم الحديث حركت لديهم عملية نفسية لا شعورية هى التوحد والتعيين الذاتى بالمعتدى فالجيل القديم الذى أنقذ من معسكرات الاعتقال النازى ، تمثل مثل هؤلاء السافحين تمثلا قهريا وامتص ـ تحت وطأة الخوف ـ عقلية القتل والفتك والصلافة العنصرية التى كانت لجلاديه • وبتلك العملية اللاشعورية أنقذ هؤلاء الشيوخ أنفسهم من « الجنون » الذى يهدد من يتفاداه الموت وهو به محيق لقد • كان فرار جيل المعسكرات من الموت خبرة نفسية مريرة مرارة الموت نفسه ، تغلبوا عليها بتقمص لا ارادى ولا

شعوری لشخصية النازی السفاح فصاروا مثله بعد أن كانوا تحت رحمته • وتركز فی عدد من هؤلاء الناجين كل مشاعر الخوف وكل عوامل النجاة النفسية من آلام الخبرة ، فغدوا أشبه بمولد عالی الشحنة ـ يشحن الجيل الجديد من اليهود بشحنات الخوف من الفناء (على يد العرب) وشحنات القسوة والشراسة التی كانت لجلاديهم الحقيقيين •

على هذا النحو استبدل اليهودی الجبان شخصية بشخصية ، وعدل من قوام الجديد فی نفسه فاستبدل « بالعنصرية الآرية » عنصريته السامية وبالتفوق الالمانی التفوق اليهودی• لقد تغلب جيل ـ واجه الفناء الذی كثيرا ما حدث نفسه به ـ على خوفه بأن أصبح مخيفا شرسا ، وأمكنه أن يجعل الجيل الحديث يتوحد به فغدا اليهودی الشاب على ما هو عليه حاليا من غرور وعنت وصلافة تذكرنا بشبيبة النازی وما كانوا يفعلونه فی شوارع ميونخ وفيينا قبل استيلاء هتلر على أوروبا •

من الممكن اذن أن يحدث انقلاب فی الشخصية القومية تحت ظروف معينة •• انقلاب أعمق بكثير من مجرد التأثير السطحی الذی تحدثه الحملات الاعلامية والأساليب التقليدية لرفع الروح المعنوية • هذه الظاهرة •• ظاهرة الانقلاب الشامل للانية هی الحرب النفسية • فالحرب النفسية ليست ـ كما تدل العبارة ـ هجوما يأتی من خارج بل هی أنجح ما تكون عندما يشنها الشعب على نفسه ليعدل منها • ان الحرب النفسية هی التعامل الجاد مع المكونات الأساسية للشخصية : **طاقاتها** تعيد توزيعها على أهداف جديدة ملائمة ، **نظامها** فتعيد تكوينه ليتلاءم مع مسئوليات مستجدة، **استجاباتها** فتخلق منها أنماطا أكثر نضجا وتناسبا مع ما يحوطها من ظروف • بعبارة أخرى الحرب النفسية هی اقامة أنية جديدة مبنية على تعيينات ذاتية أكثر رقيا • وعلى خلاف ذلك تكون الحرب المعنوية ، تعاملا مع قشرة الشخصية ولفترة مؤقتة وبأسلوب غير فعال : تعامل مع مثل وقيم هی ذاتها لا تعد أسبابا بل نتائج ، اتجاهات وميول تدل ولا يدل ، ومعتقدات وتعصبات مصيرها محتوم ببعد الواقع عن المجتمع •

سؤال محير :

اذا كانت الحرب النفسية التی شنها اليهود على أنفسهم دفاعا عن سلامتهم العقلية نتيجة للظروف التی تعرضوا لها أثناء الحرب ، فهل يعنی ذلك أن ثورة النفس من صنع التخطيط العلمی والقصد الاجتماعی ، أم هی حتم تاريخی ؟

ان المؤمن بقوانين الحتمية التاريخية والمادية التاريخية يقف أمام السؤال السابق حائرا : هل جاءت الثورة والانقلاب النفسی للشخصية اليهودية كحتم تاريخی أم نتيجة تخطيط مسبق ؟ ولهذا السؤال وجهه الآخر الاكثر أهمية : هل سوف يحدث لنا أن ننقلب على أنفسنا ونبلغ ما نريده لها كحتم تاريخی لا يحتاج الى أكثر من انتظاره ، أم يجب علينا أن نسعى ونعمل من أجل هذا الانقلاب ؟

هناك ميل واضح لدى الكثيرين من مؤرخی الحرب العالمية الثانية الى التأكيد على دور الرأسمالية اليهودية فی تدعيم النازية ودفع المانيا الى الحرب بل والى اشعال نار الاضطهاد العنصری ضد الساميين • ورغم أن هذا التأكيد يعوزه التأكد فی كثير من جوانبه ، وبالرغم من أن تصور الأمور على النحو السابق يجعل تدبير الصهيونية أمرا يفوق قدرتها الحقيقية الا أن قدرا ما من الحقيقة يظل واضحا من خلال معايب ومثالب هذا الرأی • فليس هناك شك فی أن الصهيونية لم تفرط فی استغلال أبسط الامور وأقل الأحداث أهمية لمصلحتها وليس هناك شك كذلك فی أن الصهيونية لم تخطیء خطأ واحدا ملحوظا فی تحويل ظروف الحرب العالمية الثانية لمصلحتها • حتى أن انتصار الجيش الأحمر نفسه على ألمانيا ـ وهو ما لا يتمشى مع مصالح الصهيونية ـ استغلته لزيادة الريبة فی السوفييت لدى الدول الرأسمالية حتى لايحدث تقارب بين المعسكرين ، ان كان ذلك ممكنا ، فتضيع المكاسب التی حققوها • وكان أسلوب الصهيونية فی استغلال تلك الظروف ذا شقين :

الأول : اثارة عطف شديد عليهم بما كان يحدث لهم والمبالغة فی هذا الاتجاه الى حد نقل الاهتمام من الجانب الاقتصادی للحرب الى الجانب الانسانی ـ بوصفهم أول الضحايا • **ثانيا :** تفجير طاقات العدوان الكامنة لدى اليهود أنفسهم والتی اختفت لأجيال منهم وأجيال وراء ستر العزلة والفزع المبالغ فيهما • ونجحوا من تحويل هذه العدوانية (السادية) الى هدف واحد هو اقامة دولة ومملكة (اسرائيل) •

على هذا الأساس يمكننا أن نجيب عن تساؤلنا الخاص بحتمية التاريخ والتدبير البشری فی خلق انقلاب فی الانية • من الممكن أن تتدخل

أمة من الامم فى تاريخها المحدود وذلك باستغلال ظروفها استغلالا جيدا ، وباستبصارها ووعيها — مع قيادتها — بمستقبل الأحداث · وبتفاعل الامم الاخرى معها يمكنها أن تستفيد من ظروفها وظروف غيرها الفائدة التى تسمح للتاريخ العام لها أن يكون ذا معنى · بعبارة أخرى ان الأمم الجادة هى التى تتدخل فى مجرى تاريخها العام باستغلال جيد لتاريخها المحدود وأحداثه الطارئة · فالتاريخ العام — ولامتداده الزمنى العريض العميق — لا يسمح للجماعات البشرية المحدودة العمر بالتدخل الحاسم فيه · ولكن التاريخ المحدود — أى الاحداث ذات القيمة القصوى لفئات بشرية معينة — يسمح للأمم بأن تأخذ منه موقفا ايجابيا ، وذلك بتأمل فى جزئيات تراكمات الماضى ودراسة الأحداث الطارئة وتصور مصير تفاعل الماضى مع الحاضر ، فتضع الخطط الفعالة للمستقبل ·

هذه القضية فى الواقع تحل لنا قضية فرعية أخرى ترتبط بها وتحظى حاليا باهتمام أكبر من اللازم : هى قضية النوعية البشرية للشعب المصرى وغيره من الشعوب · ان ما يميز أمة عن أخرى ليس تاريخها العام · فالتاريخ العام يخلق الظروف والاحداث بأسلوب معقد لتدخل الأمم الأخرى فيه لذلك يكون تعديله والتدخل فيه أمرا ليس بالميسور والسهل · ولكن التاريخ العام فى نفس الوقت يتخلق — فى جانب منه — من التدخل البشرى الجزئى والمحدود الى حد ما · لذلك يكون الفرق بين الأمم فى قدرتها وذكائها واصرارها على استغلال تاريخها المحدود أحسن استغلال بحيث يمكنها أن تكون ومن يتلوها من أجيال أكثر ايجابية بصدد التاريخ العام · ان الحرب النفسية فى الوقع جزء هام من صراع الشعوب من أجل تاريخ عام مثمر ·

ان ما يخصنا من هذه الأفكار يتعلق فى الواقع بالصراع الفكرى الذى يدور فينا حاليا · ماذا نفعل ·· هل نغير أنفسنا أم أنها سوف تتغير بفعل التاريخ ؟ أننا الآن أمام قضية غير فكرية ولا بد أن نأخذ منها موقفا غير فكرى · فالموقف الذى نمر به حاليا مشابه لمواقف سابقة عشناها أفدنا من بعضها فأصبنا تقدما وفرطنا فى بعضها فأقعدنا أنفسنا عن التقدم · والظروف التى خلقها لنا الصهاينة وغيرهم من الأعداء والانصار ، فضلا عن الظروف التى صنعناها عبر تاريخنا العام تواجهنا باستشكال حاسم : نحن فى موقف يسمح لنا — بل ويلزمنا — بأن نستغله استغلالا جيدا وعلى أسس علمية دقيقة فنحدث فى أنفسنا وانيتنا انقلابا يناسب الحرج الذى نحن فيه · ان الظرف الحالى موات — لا للانتصار العاجل فحسب — بل لخلق أمة على غرار جديد وعلى نمط يلائم عصرا فريدا بدأ ·· موقف اذا فرطنا فيه ونظرنا اليه بوصفه كارثة لا بد من ازالة آثارها نكون قد فرطنا فى هدية تاريخية غير متوقعة ، واذا أحسنا استغلاله أزلنا الكارثة بانتصار كبير وأقمنا انية جديدة لمصر تلائم ما ينتظرها فى المستقبل وبعد ازالة العدوان ·

وقفة قبل الانطلاق :

قد يغرينا صوغ قضية الحرب النفسية على النحو السابق الى الاندفاع السريع نحو وضع خطة لشن حرب نفسية · ولكن يجب أن ننتبه الى بعض الحقائق قبل أن نشرع فى ذلك ·

١ — لا يمكن لأى جهد مهما كان أن يخلق فى أمة ما ليس فيها وأن يكون فى شخصيتها ظاهرة جديدة كل الجدة · فمن الصعب — ان لم يكن من المستحيل — أن يحدث أى جهد انقلابا فى انية أمة فيخلق فيها الشراسة خلقا أو يقيمها على الدعة قسرا · من الممكن أن يظهر شىء خبىء ، ولكن لا يمكن أن يظهر ما ليس موجودا أصلا · وقاعدة هذه الحقيقة هى أن كل خاصية فى شخصية ما — ولتكن الشخصية القومية — تخفى نقيضها فى حالة كمون قابل للتجلى والظهور فى ظروف معينة وتحت شروط خاصة · لذلك ليست الحرب النفسية سحرا يخلق بل عملا يظهر ويكشف ·

٢ — ان الخصائص البارزة فى انية أمة من الأمم تخفى نقيضا لها مماثلا لها فى القوة · فاذا تبين أن أمة من الأمم تبدو أو تبدى سمة ما وبشدة معينة نستطيع أن نتنبأ أن نقيض هذه السمة وبنفس قوتها موجود ويمكن استفزازه · فالخنوع الشديد ليهود ما قبل الحرب العالمية الثانية كان يخفى ما تكشف حاليا من خصائص لها قوة مماثلة لذلك تكون الحرب النفسية دقيقة وواضحة : دقيقة لأنها عملية تفجير للمسمات النقيضة دون الاخلال بتماسك الشخصية ، وواضحة لأنها تقوم بعمل معلوم هو ابراز سمة معروف مسبقا كنهها وشدتها ·

٣ ـ الحرب النفسية هى استغلال مناسب لظروف مواتية تسمح بتفجير السمة الخبيثة والتى تكون أساس الانتصار فى المعارك التى تخوضها الامم ، وليس الحرب النفسية ابتكارا واصطناعا لمواقف وظروف من هذا القبيل • لقد عاش اليهود قرونا طويلة فى هلع من وهم سيطر عليهم هو كراهية العالم لهم وترقبه لفنائهم • وخدمهم هذا الوهم فى الانزواء بعيدا عن أخطار بعضها واقعى وبعضها كان لهم بمثابة الواقع • ثم جاء الظرف المواتى الذى قلبهم الى النقيض •

ثلاث حروب نفسية خضناها :

ان ما قدمناه هو الجانب العام من الحرب النفسية ولكن للحرب النفسية جوانبها الخاصة التى تسمح بالتطبيق المباشر •• لذلك سوف نتعرض لثلاثة مواقف كانت بمثابة حروب نفسية خضناها ومنها يمكن أن نضع عناصر الحرب النفسية وأسس تطبيقها عمليا • ولن نعرض هذه الحروب الثلاثة فى تفاصيلها التاريخية أو العلمية حتى لا نبعد عن هدفنا •

أ ـ الثورة العرابية : ان الدارس لثورة عرابى سوف يلحظ أمرين هامين فيها : **أولا :** تجمع شعبى ضخم حول زعيم جديد يبشر بانية مصريه حديثة ، ايجابية •• انية تبزغ فى ظروف تاريخية دقيقة • **ثانيا :** انهيار سريع لهذا التجمع الشعبى دون مبررات تتناسب مع حجمه وقوة مده الاولى لذلك تعد الثورة العرابية نموذجا طيبا لدراسة حرب نفسية دفاعية فاشلة وأخرى هجومية ناجحة كانت الانية النفسية المصرية التى تمثلت فى وقفة عرابى بميدان عابدين عام ١٨٨١ محاوله جادة لتحطيم انية قديمة خاضعة لنفوذ تركى منحل وغزو رأسمالى أوروبى حديث • ولكن عرابى كزعيم وطنى وقائد لهذه الثورة النفسية ، لم يدرك ادراكا سياسيا واعيا الظروف المواتية لتحقيق هذه الانية المصرية الجديدة • كانت الامبراطورية العثمانية فى انهيار يسمح للخديوى توفيق بالاعتماد على أوروبا فى دعم سلطانه • وكانت الرأسمالية الزراعية المصرية فى بداية ممارستها لفاعليتها السياسية وتطلعها لاصلاحات تضمن لها حقوقها • وكان الصراع بين انجلترا وفرنسا على التركة العثمانية صراعا غير خفى • كل ذلك كانت عوامل ايجابية لدعم الثورة المصرية • الا أن عرابى حول الموقف من حرب نفسية الى معركة عسكرية فوضع الشعب المصرى فى أزمة يصعب حلها • لقد كان تحويل الثورة الى معركة عسكرية هو الفرصة المواتية للاستعمار فى شن حربه النفسية الهجومية بعبارة ثانية ، لو كان قد أمكن لعرابى أن يتفهم الظروف السياسية للثورة لاستطاع أن يشن حربا دفاعية عن الانية المصرية الحديثة ، ولم يكن مصير هذه الانية الواد المبكر ، ورغم زيادة فرصة الهزيمة العسكرية أمام الاستعمار • ان الخطأ الذى ارتكبه عرابى وقوعه فى الفخ السياسى الذى نصبه الاستعمار للثورة وهو تحويلها الى معركة عسكرية

أما الاستعمار فقد استغل نقطة ضعف وحيدة استغلالا جيدا هى عدم وضوح الوجهة القومية للانية المصرية • وجه الاستعمار حربه النفسية الهجومية من هذه الزاوية حيث أشاع أن الثورة موجهة ضد خليفة المسلمين ـ وبذلك طعن الثورة طعنة عكسية • فبدلا من أن يستغل عرابى ورفاقه عنصر الدين والقومية لمصلحتهما تركوهما سلاحا فى يد عدوهم •

اذن ، يعد أول درس نأخذه من الثورة العرابية هو أهم عناصر الحرب النفسية : استغلال مناسب لظروف مواتية • ففى هذه الثورة ساء استغلال عرابى لظروف مواتية وجاء سوء استغلاله فى شكل قلب الثورة الى معركة عسكرية فسمح للاستعمار بحسن استغلال ظروفه لأن هدف الاستعمار كان تحويل الثورة الى معركة حربية تمكنه من سحق الانية المصرية عسكريا •

ب ـ ثورة ١٩١٩ : ان ثورة ١٩١٩ تعد نموذجا لحرب نفسية ثانية أمكن لنا فيها أن ننتصر دفاعيا وان ينهزم العدو فيها هجوميا • استطاع سعد زغلول أن يستفيد من نتائج الحرب العالمية الأولى وما طرحته معاهدة فرساى من شعارات عديدة • واستطاع كذلك أن يستغل الخضوع السافر من السراى للمندوب السامى البريطانى بأن طرح الشعارات الدستورية وتقييد السلطة الملكية• فضلا عن كل هذا أمسك سعد بأطراف التطور الرأسمالى الزراعى وبزوغ الرأسمالية الصناعية (أو أفكارها الوليدة)وبأطراف الانية الوطنية بقيادة البرجوازية المصرية ومزج بين هذه الأطراف مزجا لا بأس به وبادارة هذه الظروف جميعا تحت شعار الاستقلال أمكن لسعد زغلول ان يشن حربا نفسية دفاعية ناجحة حمت الانية المصرية الوطنية من ضغط الاستعمار عليها ومحاربته لها فى شكل تأييد

للسراى والملك • لم يترك سعد زغلول فرصة مناسبة للاستعمار لى يطعن الثورة النفسية لدى الشعب باثارة اليأس من الكفاح ـ كما حدث أيام عرابى ، ولم يسمح بفرصة للرجعية كى تخون بسفور آمال الشعب عن طريق اثارة قضية ملك البلاد ، لقد أمكن لسعد ورفاقه أن يحولوا الثورة النفسية لدى الشعب تطلعا الى انية جديدة ، أن يحولوها الى مظاهرات هى بدورها كانت مجالا لنضج هذه الانية •

ويواجهنا تأمل تفاصيل ثورة ١٩١٩ بأمرين : لقد استطاع سعد زغلول أن يصبح زعيما يتوحد الشعب ـ فى أغلبية ساحقة به ـ ولمدة طويلة ، بل وأهم من ذلك أن يتوحد الشعب به حتى بعد وفاته • فحتى عام ١٩٤٢ كان التأييد الشعبى للوفد مجرد امتداد لتأييد سعد الذى أقام الوفد بمعنى آخر ، كان التوحد بسعد رمزا لحاجة الانية المصرية الى نواة تنضج حولها • فسعد كان الوفد والتوحد به هو أساس تأييد الوفد • وظل التأييد للوفد اصرارا على التوحد بسعد • ولم ينفض الشعب عن الوفد الا بعد أن أثبتت قيادته التالية على سعد عدم قدرتها على جعل الشعب يتوحد بها • ولكن أهم من ذلك ، كانت حاجة الانية النفسية الى نواة لها تمثلتها فى سعد زغلول ، كانت هذه الحاجة عاملا هاما فى تغاضى الشعب عن أخطاء جسيمة ارتكبها سعد البرجوازى المنبت وتحمل الشعب مثالب عديدة ارتكبها الوفد بعد سعد أوصلته الى حد خيانة الاهداف التى نال بها تأييد الامة • ان الثورة النفسية تحتاج الى زعيم يمكن الشعب ـ أو أكثر فئاته أهمية ـ من التوحد به ـ وفى سبيل هذه الحاجة قد تتغاضى الانية الجديدة عن كثير من الامور •

والأمر الثانى يتعلق بطبيعة الحرب النفسية الدفاعية • لقد كان لنجاح سعد زغلول فى شن حرب نفسية دفاعية عن الانية المصرية نتائج كثيرة ، أبرزها أن نجاح الدفاع النفسى يعطى للشعب مناعة ضد الانهيار النفسى تستمر مدة طويلة حتى بعد انتهاء الزعامة نفسها واختفاء قائد هذه الحرب • فبعد حياة سعد لم يتوقف الشعب عن تدعيم انيته فى انتفاضات متتالية الى عام ١٩٤٢ • ولكن هذه المناعة تضعف ما لم تجد زعامات تالية تدعمها • فعندما تبين للشعب عام ١٩٤٢ أن قيادة حزب الوفد لم تعد على عدائها الصريح للقصر وللاستعمار بدأت الدفاعات النفسية المستمدة من التوحد بحزب الوفد تنهار • وبلغ ضعف الانية القديمة حده الأقصى عام ١٩٤٨ وبدأت الانية الجديدة تظهر لتقوم ثورة ١٩٥٢ ومن بعدها ثورة القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١

أما ثورة ١٩٥٢ فلها طابع آخر • ان الانية الجديدة والمتولدة من حرب ١٩٤٨ قد ولدت ثورة ١٩٥٢ • ولكن هذه الثورة ذاتها استطاعت فى عدة مواقف هامة أن تقفز بالانية قفزات غير متوقعة ففى عام ١٩٥٦ حدث تطور هام فى الانية المصرية هو الانتباه الى الامكانيات الذاتية ممثلة فى الدفاع الحربى عن الاستقلال • وفى عام ١٩٥٨ انضاف الى الانية المصرية عنصر جديد هو التفتح على مبدأ مهاجمة الاستعمار فى قواعده المحيطة بنا • وفى عام ١٩٦١ ظهرت المبادىء الاشتراكية كنواة أساسية فى الانية المصرية • لذلك يحسن تناول ثورة ١٩٥٢ تناولا خاصا من حيث هى حرب نفسية دفاعية وهجومية •

وقبل أن ننتقل الى عناصر الحرب النفسية يمكن أن نوجز ما خرجنا به من تأمل هذه الحروب النفسية الثلاثة • ان نجاح الحرب النفسية الدفاعية يعنى قوة تستمر ولكنها تحتاج الى تدعيم متجدد من زعامات متطورة ، فان لم تجدها ماتت كذلك يتوقف نجاح الحرب النفسية الدفاعية على مقدرة قائدها على فهم متطور للأحداث وعلى صلابة خاصة أمام عناصر الضعف فى معاونيه وهى العناصر التى قد تطرأ عليهم أثناء الصراعات التى توجبها الحرب النفسية •• فيستبدلها فى جرأة بعناصر فى صلابته • وقد كان سعد زغلول مغاليا فى هذا الجانب كما كان عرابى متهاونا فيه تهاونا كبيرا • والجانب الثالث الذى نخرج به من دراستنا هو دينامية العلاقة بين القائد والشعب المتجدد الانية ان الحرب النفسية تبدأ فى ظاهرها نتيجة قيادة وزعامة ماهرة تفجرها ، ثم ينتهى الأمر بأن تحتضن الموجة الشعبية زعاماتها فتكشف عن أصلها وهو أنها هى التى تخلق زعاماتها بنفسها •

اذن ، فبدون زعامة يتوحد الشعب بها لا يمكن أن تنجح حرب نفسية دفاعية • كذلك لا يمكن لحرب نفسية هجومية أن تنجح ما لم تضرب ما بين الزعامة والشعب لتحطم الانية النامية فى نواتها وهى اسقاط أفكارها على شخص الزعيم •

عناصر الحرب النفسية :

يمكننا أن نبرز عناصر الحرب النفسية بسهولة من مقارنة أحداث عدوان ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧ . فبعد انهيار قيادة حزب الوفد للشعب ، أخذت تتكون عدة قيادات سرية بقصد قيادة الشعب فى ارساء قواعد انيته الحديثة . وتمكنت أكثر القيادات قدرة وأقربها فهمــا لطبيعة الظروف العالمية والمحلية من القيام بثورة ١٩٥٢ . وبذلك انتهت انية تكونت خلال ثورة ١٩١٩ وظهرت انية جديدة قضت على النظام الملكى وطردت جيش الاحتلال . ولكن لم تنقض أربعة أعوام على الثورة حتى تعرضت هذه الانية الى هجوم جديد عليها – ومن نفس القوى القديمة التى ثارت ضدها . وكان هذا هو العدوان الأول .

فى عام ١٩٥٦ كانت الظروف الداخلية تغرى الغرب بشن حرب نفسية علينا لتحطيم انية جديدة بدأنا بممارستها . فآثار الصراع السياسى مع الرجعية المصرية والرأسمالية الزراعية لم تمكن الثورة من الاستقرار الهادىء بعد . فأحداث عام ١٩٥٤ كانت لا تزال فى الأذهان كما كان الملاك الزراعيون يمارسون ضغطا شديدا فى الريف وبقايا رجال السياسية القدامى يأملون بعد فى العودة الى الحكم . ولم تكن القوى العاملة تجد أمامها تنظيما سياسيا مقنعا يضمها ويقف بها أمام هذه القوى . أما الظروف الخارجية فكانت تبدو مواتية هى الاخرى . فأوروبــا فى ثوزة من تأميم القناة ، وأمريكا فى صراع مكشوف معنا حول خطط التنمية وعلى رأسها تمويل السد العالى ، ولم يكن المعسكر الاشتراكى قد حدد موقفه من قضايانا تحديدا تاما ولا يمكن الاطمئنان بعد الى تأييده .

وقد ركز الاستعمار حربه النفسية علينا عام ١٩٥٦ فى هدف واحد هو تحطيم الجيش أولا لتفقد الانية المصرية الجديدة دعامتها النفسية . ولا شك أن تحطيم الجيش فى تلك المرحلة كان كفيلا بتمزيق الانية المصرية لأن الشعب كان يضع آماله فى تحقيق أهدافه على قوة الجيش التى أصبحت لأول مرة – بعد عرابى – ملكا له . ولكن يبدو أنه كانت هناك نقاط هامة غابت عن الاستعمار فى تحليله لظروف عدوانه على مصر ، ولعل مرد غياب هذه النقاط يرجع الى غرابة التحالف الذى قام ضدنا: حزب محافظ (بريطانيا) وآخر اشتراكى (فرنسا) وتنظيم فاشى (اسرائيل) .

استطاعت القيادة السياسية فى مصر وبالرغم من الظروف غير المواتية أن تشن حربا نفسية دفاعية ناجحة نجاحا تاما . فقد كان حدس عبد الناصر الحقيقى فى سحب الجيش من سيناء ، حدسا سياسيا قبل أن يكون عسكريا . أمكن لعبد الناصر أن يستغل العنصر الأساسى فى الحرب النفسية وهو عدم تناقض الشعب مع قيادته ، فسحب الجيش من سيناء لينقذ دعامة الانية المصرية الجديدة ، وليهزم العدوان فى تفويت الفرصة عليه فى بلوغ هدفه النفسى . وسحب الجيش بأقل الاضرار وتركيز الدفاع عن القناة كرمز لانجاز هام للانية المصرية الجديدة ، أصبح الانتصار النفسى على مصر مستحيلا مهما كانت النتائج العسكرية . لقد كانت القيادة الثورية وزعيمها نماذج واضحة يسهل على الشعب أن يتوحد بها ليحافظ على انيته الجديدة وقوامها التلقائية والمبادأة ، البديلة عن انية قديمة قوامها الشك والتردد فى امكانية الانطلاق الحر دون مساعدة خارجية خبيرة . كانت هذه القيادة تعطى نماذج متتالية من التلقائية (تسليح الجيش بسلاح سوفيتى دون التسليم بالمبدأ الماركسى) وبالمبادأة (تأميم القناة لبناء السد العالى) ، وكانت تظهر نفسها يوما بعد يوم من عناصر تفقد رباطه جأشها وتميل الى النكوص نحو الانية القديمة اذا ما تخيلت صعوبة أو مشقة

اتجه عبد الناصر الى الجامع الأزهر ليبدأ حربه النفسية الدفاعية عن الانية المصرية الجديدة . وكان محور خطابه من الجانب النفسى هو : هل ندخل المعركة العسكرية مع الاستعمار بوصفها مجرد معركة عسكرية ، أم ندخلها كمعركة نفسية فنقع فى الفخ المنصوب لنا ؟ والأسئلة عادة تحدد مضمون الاجابة : اذا دخلنا المعركة على أنها عسكرية خالصة فلن يضيرنا الانسحاب وفقدان جولتها

الأولى ـ أما اذا دخلناها على أنها معركة نفسية ذات شكل عسكرى وجب علينا أن نصمد ونجازف فننتصر أو ننهزم فلا تقوم لنا قائمة. وأجاب الشعب اجابته المعروفه : نضحى بمعركة لنكسب اخرى أكثر اهمية هى المعركه النفسية . كان سؤال عبد الناصر هو صياغة لفكرة شعورية اجتاحت نفوس الشعب وهو يعيش عدوانا عليه يثير فيه الرغبة فى الانتقام ، كانت الفكرة الشعورية نقاتل ونموت أبطالا ولو فى غباء العنيد . ولكن صياغة الفكرة الشعورية هى السبيل الى انطلاق الفكرة اللاشعورية وهى : ننسحب ونعيش لكفاح يتسم بذكاء المصر اللبق .

اول عنصر اذن فى الحرب النفسيه هو حسن استغلال الزعامه للظروف المتاحه لها فتدافع او تهاجم . ومده هذا العنصر هو قدرة الزعامه على صياغه مضمون الشعور الشعبى صياغه سليمه وفى ضوء الظروف المحيطه به وطرحها على الشعب فينطلق نقيض الشعور ـ أى اللاشعور ـ فتحدث الثورة النفسيه او تتحرك العمليات النفسيه الدفاعيه حركه قويه . اما اسلوب نشاط هذا العنصر فهو تحويل المعركة النفسيه الى معركه عسكرية أو اقتصاديه ، وعدم السماح لتلك المعارك أن تتسلل بنتائجها الى الشعب فتصيب انيته . والدليل على ذلك أن بريطانيا فى حربها الأخيرة مع المانيا كانت تحصر النتائج العسكرية فى اطارها العسكرى ، بينما كانت المانيا تحول انتصاراتها العسكرية الى صيغ نفسية داخليا وخارجيا .

ويتضح لنا العنصر الثانى من الحرب النفسيه من تحليل عدوان ١٩٦٧ . كانت الظروف ما بين ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ ظروفا مختلفه . فالتحول الاشتراكى ومشاكل التطبيق والادارة حالت دون بقاء القيادات السياسية لثورة ١٩٥٢ على صلاتها الوشيجه بالشعب ، كما كان الحال فى بداية الثورة ونتيجة لذلك انشغلت القيادات الثورية عن الشعب بالاهتمام باقامة الدولة الجديدة وحلت محلها عناصر أقل منها كفاءة تولت مهمة الاتصال المباشر بالجماهير . وليس هناك ما يضير من أن نكرر تحليل الرئيس عبد الناصر لبعض مثالب هذه الفترة وأهمها انحرافات شديدة اقترفها بعض المسئولين فى جهاز الدولة ـ مما أثار قلقا لدى الجماهير من النكوص الى انية ما قبل عام ١٩٥٢ وأصبحت العناصر الثورية الشريفة محاصرة بين مراكز قوى يؤدى هدمها الى تفجير صراعات داخلية عنيفة وبين ضرورة رفع هذه الاثقال عن أقدام الشعب لينطلق الى آفاق أبعد . وكانت الظروف الخارجية كذلك غير مواتية تماما .. الولايات المتحدة فى حاجة الى تعويض هزائمها فى فيتنام بعمل جديد ، والمعسكر الاشتراكى يعانى من اثار خلاف الصين مع الاتحاد السوفيتى ، والمد الثورى فى العالم العربى فى أحد دورات جزره الشديدة بذلك تهيأت الفرصه أمام الاستعمار لعدوان جديد وللمرة الثانية يخفى على الاستعمار جانب هام فى المعركة النفسيه مع مصر .

لم يكن الجيش فى عام ١٩٦٧ نواة الانيه المصرية كما كان الحال عام ١٩٥٦ . لقد كانت الاشتراكية هى نواة هذه الانية . وهزيمة الجيش عام ١٩٦٧ لم تكن لتؤثر على الدوله الا تأثيرا وقتيا ومحدودا . لذلك لم يدرك الاستعمار أن انحراف بعض العناصر فى مصر وانعزال البعض الآخر يثير مجرد الضيق فى نفوس الناس ولكنه لا يثير فيهم الانزعاج الشامل . بل لقد وجد الشعب فرصة مواتية للتخلص من هذه العناصر بعد ان جمع شتات نفسه بعد النكسة . وفضلا عن كل هذا ، بقيت بعض العناصر الثورية بعيدة كل البعد عن غضب الشعب ـ وبغض النظر عن النتائج ـ وعلى رأس هذه العناصر الرئيس عبد الناصر . لذلك فعندما أعلن عبد الناصر رغبته فى التنحى متحملا مسئولية الأحداث ، فهو انما كان يصوغ فكرة شعورية كادت أن تغزو نفوس الجماهير وهى فى حيرة من أمرها ، فتفجر للمرة الثانية اللاشعور الجمعى معلنا عكس هذه الفكرة فأصر على بقاء رئيسه ، واعترض فى عنف على التنحى . وتحول الهجوم علينا الى فشل ونجح الدفاع النفسى مرة أخرى .

العنصر الثانى فى الحرب النفسية هو زعامة

شعبية صلبة يمكن للشعب التوحد بها فى أحلك ظروفها وظروفه • فقد شاع أن القيادة فى مصر تعيش على الانتصارات ، ولكن ٩ ، ١٠ يونيو اثبتت انها تستطيع ان تعيش لذلك فى ظروف الهزيمة القاسية • فالتوحد بالزعامة امر يخضع لقوانين نفسية عميقة أهمها – وهو مضمونها كذلك – ارتباط مصير الشعب بمصير الزعامة • لهذا تعد أكثر الزعامات ضمانا للسلامة النفسية لشعب ما تلك التى تقوم على المذهبية لا الشخصية حيث يمكن للمذهب ان يبقى – لمدد أطول من الافراد – نواة للانية القومية • أما اسلوب هذا العنصر الهام فى الحرب النفسية فهو الحركة المتمشية مع العدو لاثارة الحركة العكسية لدى الشعب • فهدف الاستعمار كان تنحى عبد الناصر ،متمشيا مع الرغبة الخفية للعدو ، فأثار بذلك الحركة العكسية لدى الشعب ، أى رفض التنحى رغم التقبل الشعورى للمأساة •

أما العنصر الثالث فى الحرب النفسية فيأتينا ايضاحه من مقارنة سريعة للموقفين السابقين • ان نجاح ذات القيادة فى شن حرب دفاعية عن الانية النفسية بأسلوبين متناقضين انما يدل على قدرة على فهم وتقدير الظروف بمرونة ضرورية • فمن النادر فى التاريخ ان نجد زعامة واحدة تستطيع أن تنجح مرتين فى عملية حماية الانية القومية • وندرة هذا الامر تعود الى أن أى زعامة انما تقوم على فهم محدد للامور ومكانتها لدى الشعب لذلك يصعب عليها تغيير أسلوبها • ولكن القيادة فى مصر أمكنها ان تتطور ذاتيا بحيث كانت فى ١٩٦٧ – ورغم كل الصعاب – زعامة متجددة مختلفة تماما عن زعامة ١٩٥٦ • فلا شك أن انتصارا نفسيا يأتى شعبا من الشعوب لا يكون وليد مجرد حدس زعيم او ضربة حظ ، بل هو دائما تفاعل مناسب بين ظروف داخلية واخرى خارجية يخلق مجالا مناسبا للحفاظ على نواة الانية القومية واستغلال القيادة للظروف ، أو سهولة التوحد بالقيادة لا يكفيان وحدهما للانتصار فى الحرب النفسية • ان عنصر تفاعل التوحد بالقيادة واستغلال القيادة للظروف هو ضمان الانتصار النفسى • ويمكن أن نعبر عن عنصر التفاعل – ثالث عناصر الحرب النفسية – بقولنا أنه قدرة القيادة على ملاءمة نفسها للظروف وتطوير عقليتها لمواجهة كل جديد فليس من الممكن لأية قيادة أو زعامة مهما بلغت مهارتها أن تجعل الظروف تلائمها ، بل لا بد وأن تتلاءم هى مع الظروف •

ونوجز عناصر الحرب النفسية الثلاثة فيما يلى :

١ – ظروف مواتية تخلقها تجمعات بشرية معينة (دول) لتجمع بشرى بذاته (دولة) ، بحيث تخلق هذه الظروف معنى خاصا لظروف داخلية خلقها تاريخ هذه الدولة •• فيحدث فيها انقلاب نفسى شامل فى شكل ظهور انية جديدة •

٢ – استغلال مناسب للموقف التاريخى الناتج عن تفاعل الظروف الداخلية والخارجية بحيث يمكن احداث هذا الانقلاب النفسى العميق (لأكثر فئات الشعب أهمية) لمصلحة التقدم والتطور بدلا من الاتجاه النكوصى والردة الى انية قديمة •

٣ – قيادة سياسية واضحة المعالم تخطط للمستقبل وتعى الحاضر وتفهم الماضى وتكون قادرة على التطور الملائم للظروف المستجدة بحيث يسهل على الشعب التوحد بها وتمثل قدراتها فى انيته

فبدون العنصر الأول لا يحدث الانقلاب النفسى ولا تنجح الحرب النفسية • ومثالنا على ذلك نجاح شى جيفارا فى كوبا وفى الصعيد الطلابى وعدم نجاحه فى أمريكا اللاتينية • ولا يمكن للحرب النفسية أن تنتهى الى انتصار بدون العنصر الثانى – ونأخذ الثورة العرابية نموذجا لذلك • ولايمكن للحرب النفسية أن تبلغ من آثارها قدرا من الثبات والاستمرار بدون العنصر الثالث • ومثالنا على ذلك سرعة انهيار الزعامة البرجوازية المتمثلة فى الوفد بعد موت سعد زغلول ببضع سنوات •

بمعنى آخر ، ان لم تتحقق العناصر الثلاثة معا فان الحرب النفسية تنتهى الى هزيمة وسوف تنهار دعاماتها : سوف ينهار الموقف التاريخى بدون زعامة ، وسوف تنهار الزعامة بدون موقف تاريخى

ويمكن أن ننظر الى الحرب النفسية – فى ضوء هذه العناصر الثلاثة – نظرتنا الى أى حرب بالمعنى التقليدى ، أى يمكننا أن نجد حروبا نفسية هجومية وأخرى دفاعية • ولكن ذلك يحتاج الى تعرض مسهب لتفاصيل هذه العناصر الثلاثة فى ضوء معرفة أعمق وأشمل بسيكولوجية الجماهير •

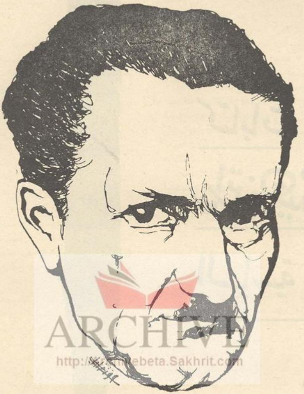
أحمد فايق



كتابات مارتن هيدجر السياسية

تأليف : جان ميشيل بالميه
عرض : سمير عوض

مارتن هيدجر هو أكبر فيلسوف ألمانى معاصر ومن أعظم فلاسفة القرن العشرين . ولد عام ١٨٨٩ ودرس الفلسفة بجامعة فريبورج بألمانيا وتتلمذ على الفيلسوف هوسيرل صاحب فلسفة الظواهر وحصل على الدكتوراه برسالة عنوانها «مذهب المقولات ودلالتها عند دبنيس سكوت» اشتغل بتدريس الفلسفة بجامعة فريبورج حتى عام ١٩٤٩ . وانتخب مديرا لنفس الجامعة فى مايو ١٩٣٣ وأعلن تأييده التام للحركة الوطنية الاشتراكية وتقديره الكامل لهتلر على نحو ما جاء فى خطبه ومقالاته السياسية العديدة .



م . هيدجر

أهم مؤلفاته : **الوجود والزمان ، كنت ومشكلة الميتافيزيقا ، ما هى الميتافيزيقا ؟ . ماهية الحقيقة ، متاهات ، هيلدران وماهية الشعر ، عن مسالة الوجود ، مقالات ومحاضرات ، رسالة كنت عن الوجود .**

عرف هيدجر كأعظم مفكرى الوجودية المعاصرة وأعمقهم فكرا ، فلسفته أنطولوجية بمعنى أنها تدرس مقومات الوجود الانسانى لا مجرد صفات الوجود الفردى. **وهو أول من** أثار مسألة العدم من الناحية الوجودية . **والعدم عنده يكتشف من خلال حالة القلق . فالقلق يؤدى الى العدم ومن العدم يتفجر كل شىء فى الوجود .** كيف يحدث ذلك ؟

ثمة قلق أصيل يباغتنا في لحظات نشعر فيها وكأن الوجود قد فنى ، والسبب فى هذا الاحساس أن الامكانيات لا تتحقق دفعة واحدة ، لان تحقق امكانية معناه سلب امكانيات أخرى كان فى الوسع أن تتحقق ، لكنها انتزعت من الوجود بتحقيق امكانية أخرى . هذا السلب هو العدم وبدونه لن يتم التحقيق ، لان التحقيق يقتضى اختيار امكانية دون أخرى .

العدم اذن فى فلسفة هيدجر يدخل في تكوين الوجود وهو شرط لتحقيقه . ويقول هيدجر عنه : **ان هذا العدم الذى يختلف عن كل الاشياء المعينة لا يمكن أن يكون شيئا آخر غير الوجود نفسه .** ومعنى هذا أن الوجود والعدم مترابطان استنادا الى الشعور بالقلق الذى يؤدى الى العدم . لهذا لا يعى الانسان نفسه كموجود الا بخوض تجارب معينة كتجربة القلق التى تضعنا أمام العدم .. والعدم ايجابى لانه علة هذا العالم الذى يتفجر منه .

وتحتل مكانة الموت مكانة رئيسية فى فلسفة هيدجر. فوجود الانسان وجود متناه لان الموت يضع حدا له .

ويصف هيدجر الوجود الانسانى بانه وجود نحو الموت . والوجود كله هو وجود الى الفناء . هذا التناهى والأجل المحدود هو الذى يضفى على القلق وجهه الفاجع . لكن الموت يحرر الانسان من كل ألوان الهم ، لهذا بالشعور بالموت ينطوى على شعور بالحرية والتحرر من كل شيء .

كتابات هيدجر السياسية

وبعد كتاب **«كتابات هيدجر السياسية»** الذى نقدمه فى هذا العرض أوفى وأحدث دراسة عن أفكار هيدجر السياسية ، وهو من تأليف باحث فرنسى شاب يدعى **جان – ميشيل بالميه** ، وله دراسة منشورة عن هيجل **«رسالة عن صياغة مذهبة هيجل»** وغيرها عن **هربرت ماركيوز ولاكان** . ويتناول بالميه فى كتابه الافكار السياسية للفيلسوف هيدجر كما جاءت فى خطبه ومقالاته ومحاضراته عام ١٩٣٣ ومابعده ، والتى تحدث فيها عن الحركة الاشتراكية الوطنية والفوهرر ومفهوم العمل والتكنيك العالمى وكتاب العمل الذى كان قد الفه ارنست يونجر الكاتب النازى صديق هيدجر .

يقرر المؤلف فى البداية أن هذه الدراسة لكتابات هيدجر السياسية ليست اتهاما موجها لهيدجر ، ولا هى بالمرافعة التى تدفع عنه تهمة النازية ، لهذا فالسؤال القائل : **هل كان هيدجر نازيا ؟** لن يلق جوابا فى هذه الدراسة ، ولن يكون له أى مدلول . لقد ارتكب هيدجر خطأ تاريخيا فادحا شاركه فيه الكثير بتأييده المطلق لزعامة هتلر وايمانه الكامل بدوره العظيم ، بل انه أعلن ذلك مرارا فى محاضراته وخطبه السياسية ظنا منه بأن الاشتراكية الوطنية . تستطيع أن تنقذ ألمانيا من محنتها وأن تقضى على البطالة والفقر ، ومن ثم كان يرى فى هتلر أملا لحياة أفضل وأرغد .

فى أبريل ١٩٣٣ انتخب هيدجر مديرا لجامعة فريبورج بالاجماع تقريبا (باستثناء صوت واحد) تقديرا لمكانته الفكرية كأكبر فيلسوف فى ألمانيا . وكان حتى ذلك الوقت بعيدا عن مجالات السياسة ، اذ لم يكن يمارس أى نشاط سياسى ، ولا كان عاطفا على أى حركة سياسية او حزبية بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الاولى ، كما كان مستقلا عن دوائر القوميين الذين احاطوا بارنست يونجر وارنست نيكيش فى شمال ألمانيا . وبعد انتخابه انضم الى الحزب الوطنى الاشتراكى بناء على طلب وزير التعليم الذى لفت نظر هيدجر الى ماسوف يتعرض له من حرج كمسئول فى الدولة اذا لم ينضم للحزب .

ولكى نفهم هنا معنى رئاسة هيدجر للجامعة لابد أن يؤخذ فى الاعتبار الموقف الدرامى للجامعة الالمانية . بمجيء النازى الى الحكم كانت الجامعات تدخل مرحلة يائسة ، وكانت رئاسة هيدجر قصة محاولة وسقوط تام للتغلب على أزمة كانت تحتدم آنذاك . فهو قد ظن أنه قادر على اصلاح الجامعة داخل هذا الموقف السياسى والتمرد على الانظمة الجامعية . وفى مايو ١٩٣٣ ألقى هيدجر خطابا عن استقلال الجامعة حيث نطالع بوضوح تبريرا نظريا لانضمامه للحزب النازى . وفى الاشهر العشرة التالية التى أمضاها فى منصبه ، ترددت فى خطبه عبارات تؤكد تأييده الايجابى لهتلر ، بل انه منح تأييده المطلق للحركة القومية وسمح باستغلال اسمه فى أغراض دعائية .

وقد اهتم هيدجر فى خطاب العمادة بتحديد ماهية الجامعة الالمانية ، والدور الذى يحددها لها التاريخ فى هذه المرحلة من تاريخ الشعب الالمانى : **« ماذا يعنى استقلال الجامعة ؟ ان تأكيد شخصية الجامعة هو ارادة جوهرها الاصيل . ومع ذلك لا يعنى هذا الاستقلال عدم الاتفاق بحال مع الامة ومصيرها ، فالجامعة تضرب جذورها فى قلب الشعب والجماعة التى تتألف منها ، والجامعة الالمانية بالنسبة لنا هى المدرسة العليا التى تعد موجهين وقادة لمصير الشعب الالمانى »** . ثم طالب هيدجر تلاميذه بأن يكفوا عن هذه الحياة السهلة وهذه الحرية السطحية المزيفة لكى يحققوا المعنى الاساسى لمهمة الجامعة ورسالتها المصيرية .

ويعلق المؤلف على هذه الفقرة من خطاب العمادة بقوله أن سوء الفهم والظن قد تحالفا ليصدر البعض قرارا بادانة هيدجر لمصادرته أى مظهر للحرية الجامعية لكى تحقق الجامعة أهداف الدولة . وبعبارة أخرى ، حين تصبح الجامعة جزءا من الدولة الشمولية استنادا الى عبارة هيدجر **« ان الحرية الجامعية التى طالما تغنى بها الناس لم يعد لها مكان فى الجامعة »** . وبذلك لا يقتنع المدير الجديد للجامعة بتوكيد تعاطفه مع النازية والثورة الالمانية ، بل يبتهج بسيطرة الحزب على الجامعة وبمصادرة حرياتها . لكن المؤلف يتصدى للدفاع عن هيدجر – وهو دفاع يتردد على صفحات الكتاب بقوله : **ان الحرية التى كان هيدجر يندد بها ليست حرية التعليم أو التعبير وانما هى الحرية المرادفة للاهمال واللامبالاة !**

ثمة مظهر آخر من مظاهر انخراط هيدجر فى صف الحركة الاشتراكية الوطنية ، هو تلك النداءات التى وجهها الى الجامعة أساتذة وطلابا يومى ٣ و ١٠ نوفمبر ١٩٣٣ ، وهى بلاشك شهادة مؤسفة على تواطئه الكامل وتأييد للنظام النازى . اذ أعلن هيدجر فى خطابه : **«فى ١٢ نوفمبر يحدد الشعب الالمانى بأسره مستقبله . والشعب لايمكن أن يختار هذا المستقبل ويصوت بنعم استنادا الى اعتبارات مزعومة دون أن يتضمن موافقته على الفوهرر والثورة التى يقودها – ليست هناك سياسة خارجية وسياسة داخلية ، بل ارادة واحدة هى أن يمنح الشعب وجوده للدولة . هذه الارادة التى بعثها وأمسك بزمامها الفوهرر فى الشعب كله وهو فى كامل يقظته . ليس طموح الفوهرر هو الذى دفعه الى الخروج من عصبة الامم ولاعشق المجد ولا العناد الاعمى ولا الرغبة فى العنف بل فقط الارادة**

الواضحة في أن يكون مسئولا مسئولية بلا حدود ليتحمل مصير شعبنا ويحكمه . »

ومن هذه العبارات وغيرها يظهر بجلاء اندفاع هيدجر الاعمى لمناصرة النازية ، الذى جعله يتوهم أن هتلر هو حقا الزعيم المتطلع الى اجراء اصلاحات اجتماعية وخلق نهضة شاملة . لكن المؤلف يلتمس لهيدجر الاعذار ويصف حماسه للنازية بأنه سقطة غير قاتلة صادرة عن نية حسنة، وانها ارتكبت دون وعى أو علم بمقاصد الحركة الاشتراكية وجاء فى تبرير بالمييه (ص ٨٢) : خدع هيدجر فى دلالة الثورة الالمانية كما صورها الاشتراكيون الوطنيون . كل شيء كان يمضي كما لو كان هيدجر لايبصر الاهداف الحقيقية للوطنيين ، والنوايا الطيبة التى نعتهم بها تشهد بسوء تقديره .

كان لابد من مرور عام حتى يكتشف هيدجر ماهية الفكر النازى ويدرك مظاهر الجنون الاجرامى الذى اندفعت اليه سياسة ألمانيا . ففى الوقت الذى ألقى فيه هيدجر خطاب العمادة كان يظن أن الهزة التى أحدثتها الاشتراكية الوطنية سوف تفتح عصرا جديدا لألمانيا وتقيمها من حطامها . لكن سرعان مااستقال من منصبه فى ابريل ١٩٣٤ عندما طلب اليه عزل الاستاذين فولف وميليدروف نظرا لعدم تعاطفهما مع النازى . ويقول المؤلف أن هيدجر منذ ذلك التاريخ تعرض لهجوم مفكرى الحزب النازى الذين أثاروا الشبهات حول ولائه للنظام الرسمى وعابوا عليه نزعته الارستقراطية .

غير أن انضمام هيدجر الى الحركة الوطنية ـ فضلا عن أنه نتيجة منطقية لفكر هيدجر الفلسفى ـ كانت له أسوأ الآثار ، اذ أنه سمح أثناء عمادته لجامعة فريبورج باستغلال اسمه لاهداف دعائية ـ بتأييده الايجابى للحزب بالخطب والمقالات ـ مما دعا أساتذة وطلابا كثيرين ممن كانوا يؤمنون بزعامته الفكرية للانخراط فى عجلة الحركة الاشتراكية الوطنية ، وبذلك أصبحت مسئوليته التاريخية **جسيمة حتى لو أدركنا ماقد يجعل هذا الانضمام ممكنا .**

لكن المؤلف يحاول أن يقلل من شأن انضمام هيدجر للحزب بحجة أنه ماكان ليقدم على هذه الخطوة بدافع من ولائه واقتناعه الشديد ، بل من المحتمل أنه ماكان سينضم الى الحزب مالم يكن مديرا لجامعة فريبورج .

كل انسان كما قال هيجل ابن لزمنه ، وهيدجر وان كان مفكرا عظيما الا أنه معرض كأى مفكر آخر لهذا الخطر. فهو قد أخطأ كما أخطأ العجوز **افلاطون** وكما أخطأ **هيجل** الذى وحد بين الروح المطلقة ونابليون . وخطأ هيدجر انه كان ينتظر **انطلاق الحياة ممن كان يحمل فى ذاته نسمة الموت .** ومن خلال خطته هذا شهد بارتباطه الوثيق بمصير الامة الالمانية ، لهذا فقبل اصدار حكم على هيدجر ينبغى أن يوضع فى السياق التاريخى لاعماله السياسية .

الفيلسوف فى سياقه التاريخى

عندما تنحى هيدجر عن عمادة الجامعة وضع تحت مراقبة محكمة. في محاضراته عن اللوجوس هاجم بيولوجية المفكر النازى **روزنبرج** والنظريات العنصرية . ومحاضراته عن **نيتشه** تضمنت نقدا حادا للفلسفة النازية وممثلها الرسمى **الفريد باوملر** . ولم يكن فى مقدور هيدجر التصدى لموضوعات الايديولوجية النازية مباشرة ، بل كان يكفيه أن يعرض فكره الخاص لكى يبرز تناقضه مع النازية . وتعرض هيدجر لهجوم مفكرى الحزب ، منهم **ارنست كريك** مدير جامعة هيدلبرج الذى أصدر حكلما بالموت على الفلسفة الغربية والميتافيزيقيا لانها لم تعد بذات جدوى بعد ظهور النازية . وكريك هو مؤسس مذهب التربية الاشتراكية الوطنية ومؤلف **«انثروبولوجيا شعبية »** ، وكتاباته ذات صبغة جرمانية متطرفة ويتلخص هجومه على هيدجر فى الآتى :

هيدجر وريث اليهود وهوسيرل وأعداء الشعب الالمانى ، ان مضمونه الفكرى غامض . فمن يجرؤ على القول بأن هذه العبارة **«ان العدم هو الذى يعدم»** عبارة ألمانية ؟ ان **«الوجود والزمان»** كتاب لاينتسب الى الميثولوجيا الالمانية . وهيدجر استلهم مصادر اغريقية ويهودية ، وهو غريب عن الاشتراكية الوطنية ، ولايستطيع بحال أن يعتبر نفسه فيلسوفا ألمانيا ، انه تلميذ **ارسطو** وتوما **الاكوينى** وبالتالى **كيركجورد** واليهودى **هوسيرل** وهم فلاسفة لاشأن لهم بالجرمانية .

ان مضمون هذه الفلسفة الحاد صريح وعدمية ميتافيزيقية ، وهى خميرة للانحلال والدمار موجهة للشعب الالمانى . فى كتاب **«الوجود والزمان»** بحث عن الوجود اليومى لكننا لانجد شيئا عن الجنس وجميع قيم تصورنا لعالم الاشتراكية الوطنية .

يبلغ عدد نصوص هيدجر السياسية الهامة فى حوالى الثلاثين ، وهى تشهد بلا شك بخطأ تراجيدى عندما كان ينتظر اصلاحا جذريا لالمانيا على يد الثورة الاشتراكية القومية ، ويتضمن بعض اشارات جوهرية لماهية العلم والعمل والتكنيك العالمى ، وهى لم تترجم جميعا الى الفرنسية والانجليزية . انما تؤلف لحظة أساسية فى اتجاهه الفكرى

ولا يعنى المؤلف بالمييه بتقديم تفسير كامل لهذه النصوص بل يشير فقط الى الآفاق التى تكتسب فيها معناها ، وهو تحقيق الميتافيزيقا فى ماهية التكنيك الكوكبى . وبعض النصوص معروف خارج ألمانيا وكثيرا مايرد ذكرها كشاهد على ماضى هيدجر النازى .

يلتقى هيدجر مع الايديولوجية النازية فى مفاهيمها الأساسية التى نراه يتبناها فى خطبه ونصوصه . فى مايو ١٩٣٣ نشر هيدجر بمجلة الجامعة مقالا عن مرفق العمل والجامعة وتحدث فى الموضوعات التى تناولها عن النداءات القادمة : « **لن تظل المدرسة والجامعة مصادر وحيدة للتربية ، فثمة قوة جديدة تشق طريقها ، هى ضريبة العمل التى تاخذ مكانتها الى جانب الجامعة والمنزل وبيوت الشباب** » . ويشيد هيدجر فى هذا النص بالعمل .. لا يوجد سوى قطاع واحد من الحياة

الالمانية هو العمل المتأصل فى أعماق شعبنا ويخضع لارادة الدولة ، ان طابع العمل مرسوم فى حركة الحزب الاشتراكى الوطنى للعمال » ·

ويشير هذا النص بوضوح الى التزام هيدجر بالثورة الاشتراكية الوطنية وتأييده لها ·

ذلك لأن تمجيد العمل اليدوى كان موضوع دعاية نازية يتردد دائما فى خطب هتلر نظرا لما كان ينطوى عليه من دلالات هى :

- **انقاذ ألمانيا من ضائقتها الاقتصادية بتوجيه نداء لجميع العمال دون تفرقة ·**
- **اخفاء التناقضات والمنازعات الاجتماعية بالسعى لخلق مجتمع مصطنع عن طريق اسطورة العمل الشامل والاخلاص المطلق للمجتمع الشعبى ·**
- **مكافحة الشيوعية ونظرية صراع الطبقات ·**

الى أى مدى انساق هيدجر فى تيار التزييف الايديولوجى ؟ لنقرأ مثلا فقرة مما جاء فى خطابه الذى ألقاه فى ٣٠ أكتوبر ١٩٣٣ :

« **ان المعرفة والحصول عليها بالمعنى الذى تفهمه الاشتراكية الوطنية لا تقسم الأفراد والوطن والولايات الى طبقات بل على العكس توحد وتضم الجميع فى الارادة الواحدة العظمى للدولة· وهكذا فان كلمات المعرفة والعلم والعامل والعمل قد اصبح لها معنى آخر وصوت جديد · كلمة العامل مثلا ليست كما تريدها الماركسية الموضوع الوحيد للاستغلال · ان دولة العامل ليست طبقة المعدمين الذين يشعلون صراع الطبقات** » ·

الا أن هيدجر يتخذ من ماركس موقفا مغايرا تماما لما جاء فى كتاباته قبل ثلاثين عاما ، فقد نشرت له دراسة عام ١٩٦٣ بعنوان « **رسالة كنت عن الوجود** » حيث تحدث عن « **الايديولوجية الالمانية** » و « **رسائل عن فويرباخ** » لكن الشىء الذى لم يتغير هو يقينه بأنه لا يستطيع أن يتصور أى تغير للعالم خارج الميتافيزيقا التى تعد أساسا له ·

المضامين السياسية لفلسفة هيدجر

هل تنطوى فلسفة هيدجر على مضامين سياسية ؟

هذه المضامين هل هى اشتراكية وطنية ؟

وهل هى تكفى لتفسير تأييده للنازية والتقائه مع أرنست يونجر الاديب الالمانى الذى كان متحمسا لاستيلاء الاشتراكيين الوطنيين على الحكم ؟

حول هذه الأسئلة ظهرت ثلاثة دراسات كتبها **كارل ليفيت** تلميذ هيدجر **والكسندر شفان وبول هرفيلد .**

حاول **ليفيت** أن يستخلص فى دراسته عن هيدجر المحتوى السياسى لفكر هيدجر فى الوجود كما جاء فى كتابه الرئيسى « **الوجود والزمان** » · لقد أطلق ليفيت على أستاذه هيدجر العدمى · والنصوص الأساسية التى ناقشها ليفيت هى : نداءات هيدجر لعام ١٩٣٣ · والوثائق التى أوردها ليفيت ليزعزع الثقة فى صورة هيدجر عبارة عن رسائل شخصية كان قد تلقاها من هيدجر ·

وفى مقال له عن مضمون فكرة الوجود عند هيدجر يفسر ليفيت فلسفته كلها ابتداء من عبارة مأثورة للشاعر الالمانى **راينيه ماريا رلكه** ، ويعتقد أنها تشرح بايجاز عدمية هيدجر :

« **بقوة الاعتقاد فى التقدم والانسانية نسى العالم البرجوازى اللحظات الأخيرة للحياة البشرية وهو يعلم بان الموت والله قد تجاوزاه الى الأبد** » ·

وأشار ليفيت الى أن « **الوجود والزمان** » يجد صداه فى التعبيرية الألمانية · ويرسم لهيدجر فى مقاله صورة متشائمة فى مقابل عدمية النازى وخطرها التراجيدى المتصاعد· كما يرى ليفيت أن انضمام هيدجر للحزب الاشتراكى الوطنى يبدو نتيجة حتمية لمنطق لا بديل له هو : كيف لا ينبهر هيدجر العدمى بعدمية النازى ؟ ان مفتاح تفسير التقائه مع النازى يكمن فى التفسير الذى قدمه للوجود فى كتاب « **الوجود والزمان** » ، وهو أن الدور المهيىء لهم والقلق وتعريف الانسان كموجود نحو الموت تبدو كعناصر صادفت استجابة سريعة فى الأسطورة الهتلرية ·

ويقودنا ليفيت عبر الطريق الموصل من **لوثر الى هتلر** مارا بهيدجر الذى سار فى نفس الاتجاه الذى انتهى **بهتلر** · والا فمن أين جاء هذا التصور الهيدجرى للوجود ان لم يكن تفكيره مشبعا باللاهوت · بالاضافة الى أن لوثر وكلفن مذكوران صراحة فى كتاب « **الوجود والزمان** » ·

ان ليفيت يفكر مثل انجلز فى أشكال الدولة ، فالمانيا ظهر فيها الفلاسفة الذين تستحقهم واستحقت فى مصيرها المأساوى هيدجر الذى يعتبر أعظم مفكرى عصر الضيق والانحلال · فى قصيدة « **خبز ونبيذ** » يتساءل **هيلدرلن :** لماذا يظهر شعراء فى زمن الضيق ؟ ويتساءل ليفيت . لماذا يظهر فلاسفة فى زمن الضيق ؟ ألا يمثل هيدجر ــ مثل **ريتشارد فاجنر** ــ القيم العليا للانحلال ؟

ويواصل ليفيت نقده قائلا : باسم جو القلق والتشاؤم واليأس الذى يخيم على كتابات هيدجر كان يعتبر شخصية مرموقة فى الاشتراكية الوطنية وأحد الذين مهدوا لها بحماس ·

أما **الكسندر شفان** فقد أجاب فى رسالته « **الفلسفة السياسية فى فكر هيدجر** » عما يتطلبه كل تفسير حقيقى لكتابات هيدجر عام ١٩٣٣ · ويستفسر شفان عن **المعنى الدقيق** لعبارة « **فلسفة سياسية** » وهل تنهض على أساس واضح ؟ ويبرر شفان مشروعه ابتداء من أسانيد عديدة هى :

- هناك اشارات متفرقة فى نصوص هيدجر الى أحداث وموضوعات أساسية فى التاريخ : حكم التكنيك العالمى ، العصر الذرى ، التآمرك ، أوروبا بين فكى كماشة ، الدولة الشمولية ، **الاشتراكية الوطنية** ·
- طائفة من محاضرات هيدجر التى حاول فيها **تحديد** ماهية السياسة ·
- تأييد هيدجر للاشتراكية الوطنية وخطبه ومقالاته التى لا تدع سبيلا للشك فى ولائه التام **للفوهرر** وتعاطفه معه ·

كما أشار شفان الى أن هيدجر اتخذ موقفا من التاريخ

العالمى ، **لكن هل يكفى هذا كله للحصول على فلسفة سياسة عند هيدجر ؟** يجيب شفان بأن هيدجر في خطبه وكتاباته السياسية قد حدد فلسفة سياسية للموقف الروحى لهذا العصر . وحتى لو ظلت تلك الاشارات أحاديث بسيطة غير ناضجة ومبعثرة فى سياق مباحث أخرى ، ينبغى أن تؤخذ مأخذ الجد وأن تكون حاسمة فى الحكم الذى يمكن للمؤرخ أن يصدره على فلسفته كلها .

لكن الى أى مدى تنطبق هذه الآراء على ماهية فلسفة هيدجر ومشكلاته الأنطولوجية ؟ حاول شفان أن يبرهن على أن النشاط السياسى لهيدجر هو أسلوب للكشف عن الحقيقة . وتحديد ماهية السياسة عنده هو أن توضع الحقيقة موضع العمل . ويجب أن يحدد مجال السياسة كتعبير أيضا عن ماهية الحقيقة . فالسياسة فى جوهرها هى الحقيقة فى موضع العمل . والسؤال المطروح دائما يتعلق بالتركيب السياسى بمعناه الأصلى حتى يأتى التحديد مطابقا لمصير الكشف عن الحقيقة . ومن خلال التساؤل عن ماهية الحقيقة يناقش شفان مسألة انضمام هيدجر الى الحركة الوطنية الاشتراكية . وتمر جولة شفان بمراحل عدة :

- **النشاط السياسى لهيدجر** ينبغى أن يدرس ابتداء **من ماهية الحقيقة حيث تظهر** السياسة فى ماهيتها : **ماهية الحقيقة فى الممارسة .**
- **يرجع** تحديد **ماهية السياسة** الى **المحاضرات التى ألقاها هيدجر عام ١٩٣٦** حول **ماهية العمل الفنى ودروس مدخل الميتافيزيقا .**
- **دراسة الحقيقة فى الممارسة** التى تعرف بوصفها كشف **عن ماهيتها يؤدى الى تفسير** فلسفة سياسية تتفق **مع الممارسة .**
- **الفلسفة السياسية التى تتفق مع التطبيق لا تنفصل بحال عن الحركة الشمولية (الديكتاتورية) التى اتخذ منها هيدجر موقف التأييد التام .**
- **اعتناق هذا المبدأ يفسر انضمام هيدجر الى الحركة الاشتراكية الوطنية ، وتأكيده لنظرية دولة الفوهرر كما أشارت اليها خطبه ونصوصه المنشورة أثناء عمادته للجامعة .**

ويفرد المؤلف فى كتابه فصلا عن كتاب « **العامل** » **لأرنست يونجر** الكاتب الألمانى صديق هيدجر الحميم ، وهما اللذان التقت أفكارهما ونظراتهما بشأن صورة العامل والتكنيك العالمى ، مما دعا هيدجر الى أن يخصص بعض نصوصه السياسية للتعليق على كتاب « **العامل** » . لهذا يعد هيدجر الذى انبهر بمضمون هذا الكتاب أكبر مفسر ليونجر . وليس « العامل » سوى امتداد وتنويع للمسائل التى طرحها هيدجر عن التكنيك **الكوكبى** للانسان الغربى الذى يعمل ويصمم .

ينتسب يونجر الى فريق الساسة والمفكرين الذين لعبوا دورا غير محدد فى اطلاق حركة الاشتراكية الوطنية ، لكن المؤلف ينكر خطورة هذا الدور ويقول : **اذا كان يونجر يعد داعية للنازية فهل ثمة حاجة بنا للعناية بكتابه ؟ كلا ، فأولئك الذين ينظرون الى يونجر كأحد الايديولوجيين النازيين انما يغفلون معنى كتاباته .**

فى عام ١٩٣١ نشر يونجر الجزء الأول من كتاب «العامل» بعنوان **«التعبئة الشاملة»** الذى حاول فيه ان يبرز حقيقة جديدة هى بزوغ فجر السيطرة العالمية للتكنيك . هذه الرسالة تؤكد السيطرة المتزايدة للتكنيك على العالم . وفى هذه السيطرة تحقق ارادة القوة غاية انجازاتها ، من أجل هذا يقول هيدجر فى مقاله « **عن مسالة الوجود** » ان يونجر يفكر فى الموجود ككل فى ضوء وظلال ميتافيزيقيا ارادة القوه .

كتاب العامل هذا اعتبره البعض خلاصة ايديولوجية للبولشفية ، بينما اعتبره **جورج لوكاتش** دفاعا عن النازية وتمهيدا لها . وقد أبدى هيدجر اهتماما بالغا بهذا الكتاب حتى ان روايات غير مؤكدة تجزم بأنه جعل قراءة « العمل » شرطا لحضور ندواته .

ما المعنى الذى استخلصه هيدجر من كتاب «العامل» ؟

حاول يونجر كشاهد على انحلال العالم وهزاته الأخيرة أن يفكر فى أساسه ، وأدرك ماهية العصر كحكم غير شرطى للتكنيك . وهيدجر فى حواره مع يونجر يريد أن يبين أن حكم التكنيك العالمى ليس الا خاتمة الميتافيزيقا اليونانية

هيدجر هو المفسر الأول لكتاب « **العامل** » . ومن ثم يجب أن يفهم مغزى كتابات يونجر فى اطار المشكلة الهيدجرية . هذه الكتابات عبارة عن تأمل للعدم وعلى الأخص الصورة التى تتخذها العدمية فى سيطرة التكنيك . ومن العبث أن يجد المرء مؤلفا يعرض متناقضات العالم الحديث والقوى العظمى مثلما جاء به كتاب « **العامل** » .

لكن من المؤكد أن المرء لن يعثر عند يونجر على العمق الميتافيزيقى الذى تتصف به معالجة هيدجر لمشكلاته . ان تحليلات يونجر ــ وهو أديب فى المقام الأول ــ هى توكيدات براقة لتحليلات هيدجرية ، الا أنها لا تتجاوز نطاق الملاحظة الدقيقة الحادة الواضحة لانسان ليست لديه أشياء غريبة . والكتاب حافل بتأملات للأحداث العالمية . واذا اعتبرنا العلم الحديث علم التكنيك فقد اتخذ يونجر من التكنيك موضوعا رئيسيا لتأمله .

وترجع أهمية هذا اللقاء وهذا الحوار بين هيدجر ويونجر بشأن كتاب « العامل » الى اعتبارات عدة هى :

- **ان أى تساؤل عن ماهية التكنيك العالمى موضوع يتكرر دائما فى كتابات هيدجر الأخيرة ولا ينفصل بحال عن تأمل هيدجر لكتاب « العامل » .**
- **ان وصف اكتمال الميتافيزيقا الغربية وتحققها فى ماهية التكنيك مأخوذ عن كتاب يونجر ، و «العامل» فضلا عن ذلك مذكور فى نص هيدجر مقالات ومحاضرات الذى تناول فيه موضوع تجاوز الميتافيزيقا .**
- **يونجر هو الذى قدم وصفا هاما للعدمية الايجابية فى انجازاتها الأخيرة ولمجىء التكنيك الكوكبى .**

- **يمثل يونجر حلقة أساسية فى سلسلة تضـم هيدجر ونيتشة .**
- **بالاشارة الى اشكالية « العامل » ليونجر يتضح لنا المعنى التاريخى الذى اقره هيدجر للحركة الاشـتراكية الوطنية العمالية الألمانية كلقاء بين التكنيك العالمى المنظم والانسان الحديث .**

ويتفق يونجر وهيدجر على ارتباط ماهية التكنيك العالمى بالانسان الحديث . وكتاب « العامل » لا يفهم دون العودة دائما الى **السياق التاريخى الذى دون فيه** . كان **نيتشة** يؤكد أن الشجرة كلما ارتفعت أغصانها **فى** السماء امتدت **جذورها** فى الأرض . هذه العبارة يمكن أن تعد **مدخلا لتفسير كتاب** يونجر اذا فهمت بمعناها الصحيح .

ويعود بالمييه مؤلف « **كتابات هيدجر السياسية** » أن يبرىء كتاب « العامل » من أى تورط فى الايديولوجية النازية وهو التفسير الذى طالما ردده المفكرون الماركسيون **ادورنو ولوكاتش ونيكيش** ، الذين يعتبرون الدوائر القومية التى ظهرت فى شمال ألمانيا مهد النازية وفلسفتها ولا سيما أن يونجر كان أحد دعائمها . ثم يقول بالمييه ان مثل هذا الفهم الخاطىء لكتاب يونجر لايدع مجالا لتكوين فكرة صحيحة عنه ، بل ان بعض موضوعاته تناولها النازيون وحرفوها ، وهو رأى لم يتأكد صدقه . وهيدجر فى مقال له يرى أن « العامل » يجب أن يفهم ابتداء من الماهية الهيجلية للعمل ومن تحديد كينونة الموجود بوصفها ارادة القوة التى تجد عنـد نيتشة أساسها الأخير فى صورة مذهب القيم .

لكن ما الذى تكشفه صيغة العامل عنـد يونجر؟
ماذا يعنى فجر التكنيك الكوكبى ومجيئه ؟ ان صـورة العمل كمصير انسانى لم تكن واضحة . كل **يختبر العمل لذاته** ، فى مقدمة العامل يذكر يونجر بعض الايضاحات التى يحدد بها صيغة العامل :

« **ترمى خطة الكتاب الى ايضاح صيغة العامل باعتبارها قوة فعالة تترك آثارا عميقة فى التاريخ ، وهى تحدد صـورة عالم متغير . ولا يقصد بها نظام أو فكر جديد بل حقيقة جديدة ظاهرة للجميع** » ويرفض يونجر تبعا لذلك تناول هذا الكتاب كبرنامج سياسى أو أيديولوجى بسيط . ان حقيقة العـامل تعرف اذن كصيغة ، انها قوة مؤثرة ينبغى الاعتراف بها تعلو كافة التقسيمات التى جاءت بها **الأحزاب والأحكام القبلية** ، هذه الصيغة لم تكتشف الا منذ وقت قريب .

هذه الخلاصة السريعة للمقدمة تستوقف الانتباه، ان كتاب «العامل» يثير الشكوك : اذ كيف يمكن أن يتحدث يونجر عن العامل كصيغة ، كصورة ، ككل ؟ أليس ذلك نذيرا بمقدم الأسـطورة الهتلرية التى جعلت من العـامل والصانع عمالا فى خدمة أهداف دولة شمولية ؟ كيف يسـع يونجر ومثله هيدجر أن يجرد العامل من موقفه التـاريخى ؟ الم يقرأ ماركس ؟ هل فاته معرفة أن المجتمع منقسـم الى طبقات متصارعة ؟ أليس العمال هم الفئة الكادحة فوق الأرض؟

من هـذه الوجهـة تعرض كتاب « العـــامل » لهجوم ونقد الماركسيين .

انسان ارادة القوة

جورج لوكاتش فى نقده لكتاب « العامل » يؤكد أن يونجر فى تحديده لعلاقة العامل بالتاريخ انما كان يبشر بأفكار هتلر وروزنبرج ، لكن بالمييه يتساءل : هل أدرك لوكاتش حقا ما كان يعنيه يونجر ؟

ان صورة العامل عند يونجر باعتبار أنها تشير الى تحقيق السيطرة المطلقة للانسان على الأرض انما تنتمى الى التحديدات الأساسية لارادة القوة عند نيتشة . فصيغة العامل هى القوة الميتافيزيقية التى تنقش تاريخنا على صورته ، لكن ماذا تعنى كل من هذه الصيغة وحكمها ؟ يؤمن هيدجر بسطرة صيغة العامل على العالم ، وهى سيطرة تتحقق فى **التعبئة الشاملة** ، المرحلة الأخيرة لميتافيزيقا القوة .

ان صيغة العامل هى القوة أو العظمة التى ينبغى أن تضفى معنى على العدمية الفعالة . وفى عالم حزين يفسـر العامل القوة الوحيدة التى تدرك المصير الحقيقى للانسان . **والعامل عنده أيضا هو صورة انسان ارادة القوة .**

ويونجر لم يكن يفكر **فى** ماهية ارادة القوة بالعمق الذى كان يفكر به نيتشة فيها عندما **تحدث عن علاقة الفن بارادة القوة** . ولكن تفسير هيدجر **لكتابات نيتشة تنحصر فى** اظهار كيف أن ارادة القوة بوصفها **ماهية الحياة والوجود تخفى** داخلها هذين المظهرين . كذلك اذا كنا نريد أن نفكر فى ماهيةارادة القوة كتحديد تاريخى لوجود **الكائن ينبغى أن تدرك كيف أن** الانسان الأعلى عند نيتشة والعامل عند يونجر ينتسبان كلاهما الى ماهية ارادة القوة وغايتها . وهذا ماعبر عنه هيدجر بقوله: **ان ماهية صيغة العامل تنتمى وتضرب جذورها فى ماهية صورة زارادشت داخلميتافيزيقا ارادة القوة** .وعن طريق تحديد الموجود كقوة عاملة فان نشاط الواقع الذى تحدث عنه هيجل يعود الى الظهور . وأخيرا ان علاقة ماهية العمل بالألم تنتمى الى التحديد الهيجلى للعمل كعملية سلب للبناء .

معنى ذلك أن ارادة القوة باعتبارها نشاطا لما هو كائن تحديد لكينونة الموجود . ويؤكد هيدجر أنه فى نهاية هـذه العملية التى تشمل الكينونة .بوصفها نشاطا ينبغى أن يظهر بالضرورة فى صورة العمل . كذلك تتحد الكينونة بالعمل عند يونجر فى نهاية االأمر .

ثم يطرح المؤلف عدة أسئلة للمناقشة هى :
- **فيم ينتمى تحـديد ماهية العمل عنـد يونجر الى ميتافيزيقا هيجل ؟**
- **ما دلالة تحـــديد ماهية العمـل فى اشكالية ارادة القوة ؟**
- **ماذا يعنى اندماج كينونة الكائن بالعمل بالنسـبة لماهيته العصرية ؟**

ويحتل التكنيك العالمى مكانة فريدة فى كتابات هيدجر السياسية . والفيلسوف لايتساءل عن االتكنيك كظاهرة بين ظواهر أخرى ،، بل باعتبار ان الميتافيزيقا تتحقق فى النهاية

من ماهية التكنيك وتندمج معها • ولم يتضمن خطاب العمادة أية اشارة الى التكنيك فى حديثه عن العلم وماهية العمل وكان قد تناوله بايجاز فى كتاب « **الوجود والزمان** » من خلال « الشيء والأداة » •

ظاهرة التكنيك

ويظهر اهتمام هيدجر بالتكنيك لأول مرة فى محاضرة (**مقدمة للميتافيزيقا**) (١٩٣٥) والمنشورة ١٩٥٣ • ومعظم النصوص التالية تحوى اشارات أو اضافات حول التكنيك العالمى وماهيته • فى « زمن التصورات العالمى » (١٩٣٨) يتساءل عن ماهية الأزمنة الحديثة ويسوق آراءه حول ظهور التكنيك الحديث وعلاقته بماهية الميتافيزيقا • وفى « **تجاوز الميتافيزيقا** » يتحدث عن العامل عند يونجر • ويتساءل هيدجر فى مقاله « **لماذا ثمة شعراء** » ؟ (١٩٤٦) عن علاقة التكنيك بماهية العصرية من خلال شعر رينيه ماريا رلكه •

ويمكن تحديد اتجاهات هيدجر ويونجر فى التكنيك على النحو الآتى :

- **يتميز العالم الحديث بمجيء التكنيك العالمى وحكمه •**
- **يقصد بفجر عصر جديد ، تعبئة شاملة للبشرية فى صيغة العامل •**
- **هذه التعبئة الشاملة تتفق مع المرحلة الأخيرة من ميتافيزيقا ارادة القوة •**
- **يسيطر التكنيك على الانسان أكثر مما يسيطر الانسان عليه •**

ويعتبر هيدجر التكنيك الحديث خطرا لا يفوقه خطر آخر • ففى محاضرته عن رلكه « **لماذا ثمة شعراء** ؟ » يبين كيف أن التكنيك قد خطط المنظر الطبيعى الذى يحيط بالانسان بل وخطط وجودنا بأسره • ومن هنا تندمج ماهية العصرية مع حكم التكنيك • والتكنيك بقدر مايسود كل كائن فانه يسدل على وجوده قناعا يعترض انفتاحه ، ويخفى حقيقة ماهيته • والفن الحديث لا يتسنى فهمه أيضا الا بالاستعانة بالتكنيك وماهيته •

ويفترق هيدجر عن **رلكه** فى حكمه على التكنيك فماهية التكنيك عند الأول لا حد له ، وهى خلاص كذلك •

عند **نيتشة** نجد المصدر الأول والرئيسى لفكر يونجر الذى يعترف فى تحليلاته بصورة العدمية التى أعلن نيتشة عن مجيئها • وليست العدمية قدر أوروبا أو الغرب فقط بل أصبحت قدر العالم • لم تعد العدمية أشد مايفزع له البشر، بل صارت حالة عادية لا تثير القلق ، وفى مجال العدمية **الكوكبية** يتأمل هيدجر كتابات يونجر ويعلق : « ان مجيء العدمية **الكوكبية** وسيادتها تتسم بخصائص العصرية • هذه العصرية تميز العدمية باعتبارها تحقيقا لخراب الأرض • لكن هل كان مبدأ الخراب معروفا عند نيتشة ؟ ماذا قال نيتشة عن الوجود ؟ يجيب هيدجر فى «المدخل الى الميتافيزيقا» بان **الوجود عند نيتشة لا يقبل الوجود كالعدم** ، فهو كالعدم يعرف بوصفة كلمة فارغة • ان دلالة هذا الوجود ليس سوى بخار وهمى ، كذلك يسمى نيتشة الوجود الدخان الاخير لحقيقة متبددة •

ماهية الميتافيزيقا تبلغ منتهى تحققها فى ماهية التكنيك، والموضوع الرئيسى لكتاب العامل وهو : « **لقاء الانسان الحديث والتكنيك الكوكبى** » يستمد أساسه ومبرراته من كتابات نيتشة • ويونجر قد أعلن عن الموضوعات الرئيسية التى سيتناولها فيما بعد فى رسالة التعبئة الشاملة (١٩٣١) حيث نطالع اتجاهاته حول ماهية الحرب الحديثة وعلاقتها بالتكنيك وهى التى تظهر من خلال العمل كأسلوب فى الوجود• وفى « **التعبئة الشاملة** » يتحدث يونجر عن تحقيق المرحلة الأخيرة لارادة القوة عند نيتشة وهى تنذر بالمثل بنهاية الميتافيزيقا الغربية •

على هذا الطريق يلتقى نيتشة وهيدجر ويونجر • انهم يشهدون بدرجات متفاوتة على قدوم هذه المرحلة • ان صيغة العامل عند يونجر ، التى تعبىء البشر عن طريق التكنيك ، يجب أن تفهم باعتبارها شكلا تاريخيا للتحقيق الميتافيزيقى • انها الكلمة الاخيرة لارادة القوة . فليس «العامل» ضيفا منعزلة بل ينبغى أن تفهم باعتبار أنها تحدد وجود الانسان فى نطاق ميتافيزيقا متحققة •

المعنى التاريخى للحركة الاشتراكية الوطنية •

ان لقاء الانسان الحديث والتكنيك **الكوكبى** موضوع كتاب « العامل » هو المعنى التاريخى الذى أقره هيدجر للحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية •

لكى نفهم هذا المعنى نتأمل قليلا العبارة التى جاءت فى « **مدخل الى الميتافيزيقا** » : « فى عام ١٩٢٨ ظهر الجزء الأول من بيبلوجرافيا عامة عن تصور القيمة ذكر ناشرها أسماء ٦٦١ مؤلفا عن « القيمة » ، من المحتمل أن يبلغ الرقم الآن ألفا • ذلك هو ما يطلق عليه لفظ فلسفة ، وعلى الأخص فان ما يطرح فى الأسواق اليوم باعتباره فلسفة الاشتراكية الوطنية والذى لا تربطه أى علاقة بالحقيقة الصادقة لهذه الحركة وعظمتها انما يلقى شباكه في بحر مضطرب ، بحر هذه القيم والكليات » •

ان ذكر الاشتراكية الوطنية والاعتراف بعظمتها وحقيقتها الصادقة عام ١٩٣٥ ثم عام ١٩٥٣ عندما نشرت المحاضرة المذكورة ، كانت موضع انتقاد حاد من المثقفين والنقاد ، ذلك ان هيدجر لم يكن قد طرح عنه يوما ما ماضيه الملوث وأن المدير السابق لجامعة فريبورج كان لايزال حتى عام ١٩٥٣ منبهرا بما أسماه عظمة الاشتراكية الوطنية •

ويعلق **هوهينزفلد** على هذه الحادثة فى كتابه عن هيدجر (١٩٦١) :

« **ان انضمام هيدجر للحزب النازى وتأييده للحركة الوطنية الاشتراكية ليس حدثا مؤسفا فى حياة هيدجر ، بل ان معنى فلسفته كلها يتحدد ابتداء من هذا الاتجاه •• ان هيدجر الذى كان نازيا بالقوة فى كتابه « الوجود والزمان » أصبح نازيا بالفعل بعد عام ١٩٣٣ ، وليس تحوله عنها دون نقد ذاتى الا محاولة للتكيف لاتجاهات مابعد الحرب** » •

هيدجر والخطأ التراجيدى

اعترف بالمييه بالخطأ التراجيدى الذى ارتكبه هيدجر عندما تورط فى تأييده السياسى الكامل للفوهرر والنازية ، لكن هذا لم يصدر فى تصوره كنتيجة منطقية لفلسفة هيدجر كما جاءت فى كتابه الرئيسى « **الوجود والزمان** » . بل ان هذا التأييد انما أعلنه هيدجر فى لحظة انبهار بما يمكن أن تقدمه الاشتراكية الوطنية من اصلاحات جذرية لمشكلات المجتمع الالمانى ، لكنه لم يلبث أن تراجع عن موقفه واستقال من منصب العمادة وترك الحزب النازى وهاجم النازية فى محاضراته الجامعية ، كما تعرض لهجوم المفكرين النازيين . ثم ساق المؤلف الدليل تلو الدليل لتبرئة هيدجر من تهمة التشيع للنازية ولتوكيد استقلاله التام عن الفكر الرسمى للدولة بعد أن تخلى عن منصب مدير جامعة فريبورج .

لكن اذا كانت كل خطيئة هيدجر كما زعم المؤلف هو أنه خدع فى دعاوى النازية ، **فالنازية لم تكن حركة ايديولوجية سياسية ظهرت بغتة الى الحياة الألمانية** . فمن المعروف أن خطوطها العريضة مرسومة فى كتاب هتلر « **كفاحى** » (١٩٢٤) . وكل من اطلع على هذا الكتاب وتابع نشاط الحزب النازى حتى عام ١٩٣٣ يستطيع أن يتعرف بسهولة على ماهية الحكم فى ظل حكومة نازية : **دولة تقوم على العنصرية ومصادرة كافة الحريات** والتسليم المطلق **بزعامة قائد يقبض بيد من حديد على كافة** مقاليد الامور وهووحده **مصدر السلطات** . أمة ينهض بناؤها الاقتصادى على التعبئة الشاملة لجميع الامكانيات البشرية والمادية لخدمة أهداف عدوانية توسعية تمجد القيم العسكرية .

ان من أخص خصائص الفكر الفلسفى البحث عن الحقيقة، النظرة التنبؤية والنفوذ الى أغوار الواقع منقبا ومتسائلا وناقدا . فكيف فات هيدجر وهو مفكر من الطراز الاول أن يستشف حقيقة نوايا هتلر الاجرامية المدمرة ، وأن يدرك جوهر النازية بكل ما تنطوى عليه من عنصرية ممقوتة وعنف بالغ واهدار للكرامة الانسانية ؟

ان فيلسوفا كهيدجر كان ينبغى ان يكون أول من يعى ويتنبأ بالطريق الوعر المظلم الذى ستنزلق اليه الأمة الألمانية فى ظل حكم نازى . وفى الوقت الذى زعم فيه مؤلف « **كتابات هيدجر السياسية** » أن هيدجر قد خدعته الاصلاحات المادية العديدة التى شرع يجريها النظام الجديد ، نجد أن أعدادا هائلة من المفكرين والكتاب والفنانين الألمان كانوا يعذبون ويعدمون فى معسكرات الابادة بينما فر آخرون الى الخارج أمثال **بريخت و توماس مان** ، وهكذا لم يبرر مفكر أو كاتب حر للاشادة بالاشتراكية الوطنية ومفاهيمها على نحو ما فعل هيدجر ومن هم على شاكلته ممن هللوا لسيطرة النازى .

ويونجر صديق هيدجر يعرف فى رسالة «**التعبة الشاملة**» الدولة الشمولية بأنها « **الدولة التى تصل الى تأكيد سيطرتها بالتكنيك وصوره المنتظمة على الحياة كلها** » وهيدجر يرى أن هذه التعبئة الشاملة تؤذن ببدء مرحلة أخيرة لميتافيزيقا ارادة القوة والدولة الشمولية التى تعتمد على التعبئة الشاملة اعتمادا كاملا انما تنتمى فى صيغتها وحكمها الى هذه المرحلة ، وهو ما أشار اليه هيدجر بوضوح فى كتابه « متاهات » .

ماذا تعنى التعبئة الشاملة ؟ تعبئة العمال والصناع وجميع الطاقات وأصحاب الكفايات العلمية لخدمة أهداف دولة شمولية تحقق ميتافيزيقا ارادة القوة عند نيتشة . ومن ثم تصبح التعبئة الشاملة معسكرات عمل الزامية دائمة لطبقة الرقيق كما كان يدعوها نيتشة ، لايمكن أن تقوم حضارة الا حيث توجد فى المجتمع طبقتان متمايزتان ، طبقة العاملين وطبقة المترفين الذين يمكنهم أن يعيشوا دون عمل ، أو بتعبير اقوى، طبقة العمل الالزامى وطبقة العمل الحر » . وبذلك استحالت فكرة التعبئة الشاملة التى طالما تحدث عنها كل من يونجر وهيدجر الى فكرة أساسية فى الايديولوجية النازى .

وفكرة العمل التى تناولها هيدجر فى كتاباته السياسية كدعامة لسيطرة التكنيك **الكوكبى** لم يلبث أن أشاد بها حتى عندما تحولت الى ضرب من الرق والسخرة فى ظل حكم فاشى ، وتشهد بذلك عباراته فى العمل التى جاءت مطابقة لأحداث الفوهرر عنه .

وبالمييه مهما ساق من الحجج لتبرئة كتاب العامل من أن يكون ارهاصا لنظرية النازى فى العمل فسوف تخذله عبارات يونجر نفسه التى وردت فى حديث له نشر بصحيفة الفرنسية (يناير ١٩٦٩) والذى عبر فيه عما كان يكنه من اعجاب وانبهار بالاشتراكية الوطنية حتى عام ١٩٤٢ ! بل انه لم يكتم تقديره السابق لهتلر : « **ان رجلا كان يخاطبنا مثل هتلر كان يستطيع ان ينتزع اعجابنا بسهولة** » . وفى الحديث أيضا عبر يونجر عما كان يجيش فى صدره من ارتياح وغبطة ازاء الغزو البربرى النازى للاتحاد السوفييتى عام ١٩٤١ اذ قال بالحرف الواحد. « **اعتقد أنه عند دخول الجيوش الألمانية الأراضى الروسية تذكرت بأى ترحاب كنا نستقبل** » .

القلق عند هيدجر يؤدى الى العدم والعدم نشعر به من خلال القلق ومن العدم يتفجر كل شىء موجود وفيه يتهدد الزوال كل شىء فى أية لحظة . أليس هناك اتفاق بين أشكالية هيدجر كما جاءت فى كتاب « **الوجود والزمان** » وبين أفكاره السياسية ؟

ألا تعد كتابات هيدجر السياسية تعبيرا صادقا عن فلسفته فى الوجود وتطبيقا عمليا لها ؟ وآراؤه السياسية أليست هى تحقيقا لامكانية ما دون سائر الامكانيات ، بل هى اطلاق لأفضل الممكنات فى حيز الممارسة والتحقيق ؟ وبذلك صار هيدجر داعية للنازية وبوقها المدوى بين الجامعيين والمثقفين الألمان . ولا تصبح النازية فى اعتقاده ـ بمقاصدها الوحشية المدمرة ـ سوى ممارسة لفلسفة انسان يجد نفسه أمام لاشىء ، أمام العدم ، تحكمه فكرة جوهرية هى أن العلاقة الأساسية بين الانسان والعالم تتجاوب مع هذا الموقف الذى ينزلق فيه الوجود بأسره فى هاوية الفناء .

الم يتحقق اذن للأمة الألمانية فى مسارها التاريخى ما كان يؤمله هيدجر من فلسفته ؟

سمير عوض

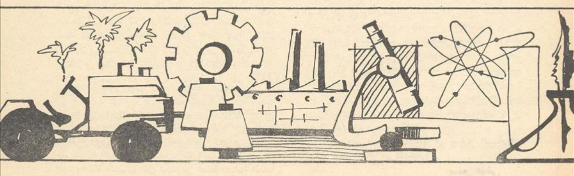
مكان العلم فى المجتمع المعاصر

عرض: زكريا فهمى

أود أن أتناول بالبحث فى هذا المقال أربعة جوانب لمشكلة تفسير العلم وانتشاره • وسوف أتحدث أولا عن سبب أهمية العلم ، وان كان ذلك سوف يتضمن تكرار بعض الحقائق الواضحة الى حد ما • ثم أشرح لماذا كان تفسير العلم لعامة الناس على درجة كبيرة من الصعوبة • وبعد ذلك سوف أبين لماذا كان هذا التفسير ضروريا بصفة خاصة فى الوقت الحاضر • وأخيرا ، أود أن أعرض بعض الأسباب العامة التى ينبغى من أجلها أن يسير تبسيط العلم للجماهير قدما باستمرار ، بتشويق ولكن ليس بتفاهة على الاطلاق ، بالدقة ولكن بوضوح ، بتواضع ولكن بحماس ، بحرارة ولكن بصبر وأناة •

وعلى الرغم من أن أهمية العلم تبدو أمرا واضحا نان هناك أساسا حقيقيا للسؤال عن سبب هذه الأهمية • ذلك لأن العلم يحظى من العامة فى كثير من الاحيان باحترام لا يستحقه ، ولا يحظى منهم بقدر كبير من الاعجاب الذى يستحق بالفعل قدرا عظيما منه •

ومن المفيد أن نبحث أهمية العلم عند مستويات مختلفة • ان الكلمة الرئيسية التى تعبر عن أهمية العلم عند مستوى التجربة الاكثر شيوعا ومحسوسية لدى الشخص العادى هى « اليسر » وهذه الكلمة تجعل من الواضح أن هذا المظهر الأول لأهمية العلم ليس على درجة كبيرة من الجدية أو العمق • **فالعلم يسهم عن طريق التكنولوجيا ، حليفته العملية ، فى كل ساعة من كل يوم فى يسر الحياة وسهولتها** • والمواطن فى المجتمع المتقدم



إن الحياة فى العالم الحديث ، دون قدر مناسب من معرفة العلم إنما تعنى قصورًا خطيرًا فى أية محاولةٍ تبذل لفهم كثير من القوى الرئيسية التى تشكل مجتمعنا الحاضر

علميا تتاح له باستمرار مجموعة كاملة من الأجهزة والأدوات . ولقد أصبحنا ، فى كثير من أجزاء العالم ، معتادين على هذه الأجهزة الى درجة نسينا معها أن الكشوف العلمية الأساسية هى التى أتاحت هذه الأجهزة وجعلتها ممكنة . ومن سوء الحظ أن اسم « العلم » يرتبط فى معظم الأحيان ، وعلى نحو رخيص ، بكل هذه الأدوات الثانوية المميزة للحياة العصرية . ذلك لأن العلم ليس ذا طابع أداتى على الرغم من أنه يجعل هذه الأدوات النافعة ممكنة .

ولكن عددا كبيرا من هذه الأدوات والاجهزة قد يستخدم فى كثير من الأحيان فى خدمة الناس على أنحاء أكثر جدية وأهمية الى حد كبير . فالمكالمة التليفونية قد تنقذ حياة ، والسيارة قد تكون مركبة اسعاف أو سيارة شرطة ، وجهاز تكييف الهواء قد يستخدم فى غرفة الجراحة فى مستشفى والرسالة اللاسلكية قد تكون من رئيس دولة كبرى . فالعلم ، اذن ، عند مستوى أعلى من الأهمية ، خادم هام بحق لكل انسان . ويكفينا للتدليل على هذه الانحاء الأكثر أهمية التى يخدم بها العلم الانسان أن نذكر الطب ، الذى يخفف الألم ، ويشفى المرض ، ويطيل الحياة ، والزراعة الحديثة ، التى تحمل فى طياتها أملا على أعظم جانب من الأهمية ، وأعنى به أمل الطعام الأوفر والأفضل

بعد ذلك تأتى عند مستوى أوسع من التأثير ، وان لم يكن دائما عند مستوى أعمق أو أهم ،



الأنحاء العديدة التى أصبح بها العلم الآن يتداخل على نحو معقد فى كل الجوانب الاقتصادية والسياسية للحياة الحديثة · فكل صناعة نشيطة وايجابية يتعين عليها اليوم أن تجرى بحوثا أساسية، والا استحال عليها أن تتقدم بمنتجات جديدة ، واختراعات جديدة ، ومنافذ جديدة لزيادة رأس المال ، وفرص جديدة للتشغيل والعمالة · هذه العلاقة النفعية المتبادلة بين العلوم البحتة ، والتكنولوجيا ، والسلامة الاقتصادية للأمة أصبح معترفا بها الآن بصفة عامة · ويمكن الحصول على دليل قاطع على هذه العلاقة من أقرب المصادر الى الطابع العملى وأبعدها عن الطابع الأكاديمى – وأعنى بها صفحات الجرائد والمجلات التى تشهد تقديرا واضحا وناشطا للدور الذى تلعبه البحوث الأساسية ، وتعلن عن وظائف تطلبها الشركات الكبرى لعلماء رياضيين ، وفيزيائيين ، وكيمائيين ·

والواقع أن اسهام الحكومات فى العلم ظاهرة من أكبر الظواهر الاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية فى عصرنا الحاضر · فالولايات المتحدة مثلا ، تخصص « للبحوث والتنمية » فى الوقت الحاضر مبلغا سنويا يزيد عما كانت عليه الميزانية الفيدرالية كلها قبل « **بيرل هاربر** » ·

ان السلطات الفيدرالية فى الولايات المتحدة تقوم فى الوقت الحاضر بدراسة مشكلة أفضل المواقع الجغرافية فى البلاد لانشاء معمل للجسيمات ذى طاقة هائلة · فمن الذى يبحث هذه المشكلة ؟ هل هم علماء الفيزياء النووية فقط ؟ وهل هذه مشكلة علمية وفكرية فقط ؟ كلا ، مطلقا · ولأقتبس ما قالته فى هذا الصدد احدى المجلات العلمية الواسعة الانتشار : « **لقد أدى هذا البحث الى قيام كثير من المجتمعات المحلية بعملية فحص دقيقة لنوعية برامجها الجامعية ، ومرافقها التعليمية العامة ، وحياتها الثقافية ، وخدماتها العامة · كما أدى الى تضافر أساتذة الجامعات ، ورجال الأعمال والسياسيين** » · كل هذا يعكس الاعتراف المتزايد بأن العلم مرتبط ارتباطا مباشرا بازدهار الصناعة وكذلك بالحياة الثقافية العامة للمجتمعات المحلية المعنية ·

اننا حين تحدثنا أولا عن الأنحاء التى ييسر بها العلم حياة الأفراد ، ثم عن الاتجاه التى يتعامل بها العلم مع الضرورات الهامة لمجموعات الأفراد ثم عن الانحاء التى يدمج بها العلم على نطاق واسع فى البناء الكلى لحياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاضرة ، انما كنا فى الواقع ننتقل من مستويات للأهمية تزداد ارتفاعا باطراد · ولكن تبقى بعد ذلك خطوة أخرى الى أعلى ، وهى خطوة على جانب كبير من الاهمية ·

ذلك لأن كل الكشوف والابتكارات العلمية التى تمر بمرحلة تكنولوجية ثم تمس معظم العلماء مسا ثابتا وملموسا هى ، فى رأى معظم العلماء على الأقل ، على مستوى من الأهمية أقل من تلك الانتصارات العلمية التى لا تنتج عن ضغط الحاجة أو طلبات السوق ، أو الرغبة فى الكسب أو التيسير أو الأمان ، بل تنتج عندما تحاول العقول الباحثة المنظمة أن تجد حلا لأسرار الطبيعة المعقدة، وتنشد فهمها ·

أعنى أن الأهمية الحقيقية للعلم لا ترتكز على منجزاته العملية ، سواء أكانت هذه المنجزات نافعة أم عظيمة القيمة ، بل على أن العقل العلمى اذ يحاول كشف غموض الطبيعة الشديد التعقيد انما ينجز عملا من أعمال الابداع الفنى ،وذلك عندما يقوم ، وسط كل التعقيد الظاهر ، بادراك واظهار ، وتفسير علاقات تتصف بالبساطة لم تكن موضع شك حتى ذلك الوقت · تلك هى اللحظة التى يؤكد فيها الانسان دوره بوصفه ذروة الطبيعة كلها ، ويبرر جدارته بالجهاز المخى الذى استغرق التطور فترة طويلة لتزويده به ·

ان الجنس البشرى لا يكاد يستطيع أن يفخر كثيرا بالطريقة التى عالج بها عددا كبيرا من تحديات الوجود – **كالحرب** ، أو **السلام** ، مثلا · ولكن عندما قام العلم بالاستكشاف داخل نواة الذرة ، وداخل جينة الخلية ، ووصل فى استكشافه الى سطح المريخ وتعداه الى مسافات تبعد ملايين السنين الضوئية ، فان الانسان يمكنه ، بحق ، أن يعتبر أنه يتصدى ، بشجاعة واقتدار لتحدى غوامض الطبيعة وأسرارها ·

***

نعم ، ان العلم على جانب كبير من الأهمية · فهو منتشر على نطاق واسع فى أجزاء كبيرة من كوكبنا ، ويقوم بغزو الأجزاء الباقية بسرعة هائلة

وهو يحدد قدراتنا الطبيعية الى حد كبير . كما أنه يؤثر في حياتنا بعمق ، ابتداء من المستوى السطحي الخاص بأدوات المطبخ الآلية ، حتى المستوى العميق الخاص بالاهتمام الخلقي فيما يتعلق بدورنا في الطبيعة ومصيرنا النهائي .

من الواضح ، اذن ، أن العلم قوة حاسمة كبرى في مجتمعنا الحديث ، ينبغي على كل شخص أن يسعى الى فهمها . لقد قال اللورد « تود » الانجليزية ، وهو أحد علماء الكيمياء العضوية العظام بحق في عصرنا ومستشار علمي رئيسي لحكومته : **« لقد أحدثت السنوات المائة الماضية ، بلا ريب ، تغييرا في الجوانب المادية للحضارة أكبر مما حدث في تاريخ البشرية السابق برمته .. وكل التغيرات التي حدثت يمكن أن تعزى الى العلم والى الشكل الحديث للتكنولوجيا التي هي تطبيق المنهج العلمي ونتائج البحوث العلمية على مشكلات الصناعة ، والزراعة ، والطب ، والدفاع ، والادارة . ونتيجة لهذا ، فان العلم والتكنولوجيا يتطرقان الآن الى كل جانب تقريبا من جوانب الحياة العامة والخاصة ، ويؤثران تأثيرا عميقا في أنظمتنا الاجتماعية ، التي تطورت ببطء على مدى قرون عديدة . والأمر الذي يدعو الى القلق هو أنه على الرغم من أن العلم والتكنولوجيا يتقدمان بسرعة هائلة ، فان الاتجاهات والأنماط الاجتماعية تتغير ببطء ، والواقع أن التباين بين معدل التغير في العلم ومعدل التغير في السلوك الاجتماعي بأوسع معانيه هو أساس معظم الضغوط والتوترات الموجودة في العالم اليوم » .**

ولكن اذا كنا نصادف العلم على هذا النحو الشامل ، فلماذا لا نفهمه أيضا على نحو شامل ؟

هناك صعوبتان أساسيتان . الأولى أن الشخص البالغ العادي يجد صعوبة في فهم علم هذه الأيام لأن تعليمه المدرسي لم يعده اعدادا فعالا لاستيعاب العلم الذي يصادفه الآن في حياته البالغة . والثانية أن التعبيرات الفعلية المستخدمة في العلم لا الأفكار العلمية الجديدة وحدها ، كثيرا ما تكون غير مألوفة وعويصة ، وعندما يستخدم المؤلف الذي يقدم العلم بطريقة مبسطة تشبيهات ومجازات ، ويحاول الاستعاضة بكلمات وأفكار أبسط وأكثر شيوعا ، فانه يتعرض لاساءة التفسير الى حد خطير .

على أنه ينبغي ألا ندهش أو نفزع من الصعوبات التي تصادفنا في شرح العلم وتبسيطه ، ولكن علينا أن نعرف أن هناك عبئا لا يقع فقط على عاتق العلماء **(الذين ينبغي أن يتحملوا قدرا أكبر من المسئولية لجعل مجالات نشاطهم مفهومة)** وكذلك على عاتق كتاب العلم **(الذين ينبغي أن يقوموا ، عن طيب خاطر ، بدراسة أكثر جدية للعالم الذي يشرحونه) بل يقع أيضا على عاتق الجماهير (الذين ينبغي ألا يقصروا شهيتهم على الغريب ، أو الملفت للنظر ، أو السطحي ، والذين ينبغي أن يقوموا ، عن رغبة صادقة ، بشيء من التفكير الجاد) .**

* * *

وأنتقل الآن الى ثالث الموضوعات التي أعلنتها في البداية ـ وأعني به : لماذا كان من المهم بصفة خاصة ، في هذه الآونة بالذات من التاريخ أن يفسر العلم على نحو فعال ؟

لقد اعتادت مجموعة من السادة أن تجتمع في حانة بلندن بعد ظهر كل خميس ، قبل حوالي ثلاثمائة عام ، هؤلاء السادة هم : **سير «كريستوفر رن »** ، الذي كان يعمل أصلا أستاذا للفلك بجامعة أكسفورد ، ولكنه قام بتصميم الاستحكامات الدفاعية لمدينة لندن وكذلك عدد كبير من العمائر الشهيرة البديعة ، ومن ضمنها كاتدرائية سانت بول ، **« وروبرت بويل »** ، الفيزيائي العظيم ومؤلف كتاب « حماية المسيحية » ، **واورد** « براونكر » ، وهو راع لكل فروع العلم والمعرفة **والأسقف « ويلكينز »** ، الذي كان كاهنا ، ورئيسا لكلية ترينيتي ، وخبيرا في نظرية كوبرنيق ، **وسير « وليام بتي »** ، الذي كان عالما في الاقتصاد السياسي ، **وأستاذا** للتشريح في جامعة أكسفورد ، وأستاذا للموسيقى في كلية جريشام **« وصامويل بيبس »** ، كاتب اليوميات المشهور ، والعالمان الأمريكيان الكبيران : **بنجامين فرانكلين وبنجامين طومسون** . كانت هذه المجموعة تضم أعضاء في البرلمان ، ونقادا ، وموظفين مدنيين ، وكتاب مقالات . كما كانت تضم مستكشفين ورحالة ، وأثريين ، وأشخاصا من محبي الحياة الرغدة والمتع . لقد كانوا ، بجلاء ، رجالا ذوي اهتمامات واسعة : رجالا يتمتعون بحيوية فكرية وبدنية معا ، ويتميزون بقدر كبير من حب الاستطلاع . وكانوا يجتمعون ، بعد ظهر كل خميس ، ليجروا تجارب ، ويأكلوا ويشربوا معا ولكنهم كانوا يجتمعون أساسا لمناقشة العلم .

تلك كانت بداية « **نادى الجمعيـــة الملكية** » ، وهى مجموعة منحها الملك مع آخرين فى الخامس عشر من يوليو عام ١٦٦٢ ، اسم الجمعية الملكية ، تلك المنظمة العظيمة التى ظلت طوال ثلاثـــة قرون تقريبا مركزا للعلم البريطانى ، وجزءا كبيرا من العلم فى العالم الغربى ٠

ان من المفيد لنا أن نمعن الفكر فى هذه المجموعة من الرجال ٠ انهم لم يكونوا علماء يحصرون أنفسهم بين أربعة جدران أو أخصائيين ضيقى الأفق ، بل كانوا رجالا تشغلهم أمور منوعة وهامة ، رجـــالا كرسوا أنفسهم لنشاط ، هو الدراسة الجـــادة للعلم ، وهو نشاط أصـــبح اليوم أقل شيوعا وأهم فى نفس الوقت مما كان عليه آنذاك ٠

ذلك لأن معرفة شىء عن الطرق الجديدة لفحص الطبيعة ، وتحليلها ، وفهمها لم تكن أكثر من ترف فكرى بالنسبة الى رجال القرن السابع عشر هؤلاء المفعمين قوة وحيوية ، الذين كانوا يلاحظون قدر استطاعتهم فى ذلك الوقت البدايات العظيمة للعلم الحديث ٠ فالعلم لم يكن حتى ذلك الوقت قد مس حياتهم اليومية والأعمال التى يمكن أن يشتغلوا بها الا مسا خفيفا جدا ، بل انهم كانوا لا يكادون يعرفون شيئا عن العلم ، ومع ذلك كانوا يعيشون حياة متوازنة الى حد كبير ٠ لقد كان على أبنـــاء أحفادهم ، لا عليهم ، أن يواجهوا الانقلاب الصناعى ان مواطن تلك الأيام كان يمكنه تقدير قيمة الطابع التاريخى لوثيقة الحقوق الصادرة فى عام ١٦٨٩ وكان يمكنه أن يكون آراءه عن حكومة لويس الرابع عشر الاستبدادية دون أن يستعين فى ذلك بأية حقائق من الفيزياء أو الكيمياء ٠ كما كان يمكنه أن يشذب شمعة ، أو يسرج حصانا ، أو يوفـــد خادما برسالة خطية دون أن يستخدم أية أداة علمية ٠

أما الموقف اليوم فقد انعكس تماما ٠ فالعـــلم قد أصبح موزعا على عشرات التخصصات المعقدة ، والمجال الشامل للمعرفة العلمية أصبح واسعا الى درجة لا يستطيع معها العالم المتخصص ذاته أن يتطلع الى تكوين فكرة ، ولو سطحية ، عن العلم كله ، ولكن الأهم من ذلك كثيرا ، من الناحيـــة الاجتماعية العامة ، أن تداخل العلم فى عدد هائل من المشكلات – الشخصية ، والمحلية والاقتصادية ، والقومية والسياسية ، والعالمية – بلغ اليوم من التعقيد حدا لا يستطيع معه أى شخص أن يتفاعل ويتجاوب مع هذه المشكلات بفهم وادراك الا اذا كان على شىء من المعرفة بالعلم الحديث ٠ وبعض هذه المشكلات تواجه الأشخاص الفرادى :كوالدى الطفل المعوق ، والشخص المدخن الذى يتساءل ان كان ينبغى عليه ان يقلع عن التدخين ، والمرأة الشابة التى تريد أن تعرف الحقائق الخاصـــة بتشوهات الولادة والمجازفات التى ينطوى عليها تعاطى الهورمونات لزيادة الخصوبة أو ازالتهــا ، ورجل الصناعة الذى يريد أن يعرف الأثر الذى سوف تحدثه تطورات التسيير الذاتى (الأوتوميشن) المقبلة فى صناعته ، والفلاح الذى يحتاج الى أن يعرف التأثير الاجمالى للمبيدات الجديدة ، والمجتمع المحلى الذى يبحث مشكلاته الخاصـــة بالتلوث ، والمواطنين الذين يتعين عليهم أن يبتوا فيمـــا اذا كان ينبغى أولا ينبغى أن ينفقوا البـــلايين على المخابىء الواقية من القنابل ، وكم من الدخـــل القومى ينبغى أن يخصص لبحوث الفضاء ، وما مقدار الدعم الذى ينبغى أن يعطى للبحوث الأساسية بالنسبة الى ما يعطى للتطوير التكنولوجى ، وأن يتخذوا قرارا ربما كان أصعب القرارات جميعا – بشأن الدور المناسب الذى ينبغى أن يقوم به العلماء فى الحكومة ٠

وربما كان هناك أشخاص لا يزالون يعتقدون أن أسئلة كهذه ينبغى أن يجيب عليها جميعا « شخص آخر » ٠ أما بالنسبة الى أولئك الذين يؤمنون منا ايمانا عميقا بأهمية الفرد وبأن أســـلوب الحياة الديموقراطى هو الأســـلوب القويم من الناحيـــة الأخلاقية ، فان كل هذه الأسئلة ينبغى فى المدى الطويل أن يواجهها الأفراد فى حياتهم الشخصية والمواطنون الناخبون فى حياتهم العامة ٠ صـــحيح أنهم لن يقترعوا ، كل على حدة ، على وحـــدات الاشعاع التى تؤلف ، بالضبط ، جرعة « مأمونة » من السقط الذرى ، ولن يبتوا مباشرة ، كل على حدة ، فيما اذا كان يتعين على حكومتهم أن تنفق مبلغا باهظا على بحوث السرطان ، أو على حفر ثقب عميق فى قشرة الارض ، أو على بنـــاء معمـــل للجسيمات ذى طاقة فائقة ٠ ولكن من الصحيح تماما أننا اذا كنا نريد للأســـلوب الديموقراطى أن يعمل فى العالم العلمى الحديث ، فان كل مواطن على حدة ينبغى أن تتاح له الحقائق العلمية التى تمكنه من البت فى هذه الأمور على أســـاس سليم ٠

وثمة سبب آخر لضرورة تفسير العلم لعامة الناس فى الاونة الحاضرة من تاريخ العالم · هذا السبب يرجع الى أن ملايين عديدة من البشر لدين يسكنون مناطق كبيرة من كوكبنا ظلوا يعيشون حتى اليوم فى مجتمعات زراعيه غير علميه ، بل فى ظروف بدائية · ولكن كل هذا يتعرض الان لتغير سريع ويكفينا فقط ، للتدليل على سرعة اقتحام هده الشعوب لأبواب العالم الحديث ، أن نتذكر أن احدى وستين دولة كانت أعضاء فى الأمم المتحدة قبل عام ١٩٥٠ ، وان ثلاثا وخمسين أمة جديدة أصبحت أعضاء منذ ذلك الوقت ، منها احدى وثلاثين فى السنوات الخمس الماضية ·

هذه الأمم ، « الجديدة » من الناحية السياسية الرسمية ، والتى لدى أغلبها مع ذلك تاريخ حضارى سابق لتاريخ كثير من الدول الغربية بوقت طويل تدفعها مقتضيات الظروف الحاضرة الى دخول العالم التكنولوجى الحديث دفعة واحدة · ذلك لأنه يتعين على هذه الأمم ، التى حرمت من الاستفادة بقرنين من التكيف على مهل ، أن تنتقل ، فى بعض الأحيان ، على نحو يكاد يكون فجائيا ، من ثقافات بدائية نسبيا الى عالم يتميز بالالكترونيات ، والعقول الالكترونية ، والتسيير الذاتى ، والطيران النفاث ، والطاقة النووية ، وأحماض الوراثة الشديدة التعقيد · ومن الواضح أن بعض هذه الأمم الناشئة يتعين عليها أن تصنع اقتصادها اذا ما أرادت أن تكون قادرة على البقاء ، وهذا يعنى أنه يتعين عليها أن تدرس العلم بأسرع ما يمكن ·

ان الحياة ، فى العالم الحديث ، دون قدر مناسب من معرفة العلم انما تعنى قصورا خطيرا فى أية محاوله تبذل لفهم كثير من القوى الرئيسية التى تشكل مجتمعنا الحاضر · انها تعنى أن تكون كل الحواس متبلدة ، ليس فقط بالنسبة الى ما يجرى فى العالم ، بل أيضا بالنسبة الى جمال العلم ومغزاه الروحى (وهنا أصل الى موضوعى الأخير والرئيسى) ، فتصبح بذلك غافلة عن الطريقة التى ينتظم بها كوكبنا ـ تلك الطريقة الرائعة الى حد لا يكاد يصدق ـ كما تصبح غير واعية بالوحدة الملهمة التى تربط معا كل ما هو حى وما هو فى هذه اللحظة غيرص ، ولا تثير فيها رؤيا قدرات الانسان الجديدة على التحكم فى بيئته وتحرير نفسه من أجل بلوغ مصير جديد أسمى من أى احساس ·

انه لمما يدعو الى الأسى أن عددا كبيرا من الناس لا يفكر فى العلم الا من خلال الاجهزة والأدوات التى يتيحها هذا العلم · كما أن من المؤسف أن ذوى الرؤية الأوضح قليلا يرون العلم أساسا على أنه هو الذى يقدم الشفاء والغذاء · على أن الأسوأ من ذلك كله ألا يصبح فى الامكان ، على المدى البعيد ، جعل الناس يفهمون الطبيعة الاساسية الكامنة للعلم ·

وهناك بعض الناس بلغ بهم التضليل حدا ينظرون معه الى العلم على أنه وحش آلى ، لا تكف تروسه عن الدوران ، منتجا آلات فظيعة للدمار ، ودافعا كل شىء الى توافق كئيب مع المنطق الصارم الخالى من الروح ، ومحولا كل شىء الى معادلات عويصة ولكنها ذات قدرة شاملة فى نفس الوقت·

* * *

ان العلماء أنفسهم بشر قبل كل شىء ، ومن ثم فان كثيرا منهم ، وخاصة الذين لا يقفون فى الصف الأول ، يلازمون أجهزتهم الى درجة أنهم أنفسهم يفرطون أحيانا فى تأثرهم ببعض الجوانب السطحية للعلم · وبعضهم من الحماقة بحيث يعتقد أن العلم فى الواقع قادر على كل شىء ، وأنه يمكن أن يكون دقيقا بلا حدود وموضوعيا تماما ، وأن أساليبه الفنية يمكن أن تحل كل المشكلات ، وأن فلسفته هى المرشد الوحيد الذى نحتاج اليه ·

وفى رأيى أن تصحيح هذه الآراء الزائفة واجب رئيسى يقع على عاتق أولئك الذين يشرحون العلم ويفسرونه للجماهير · ذلك لأن هذه الآراء الزائفة تفصل العلم عن بقية جوانب الحياة · واذا كانت هذه الآراء صحيحة ، فان الهوة التى يرى بعض المفكرين أنها تفصل بين العلم والفنون الانسانية تصبح هوة يمكن عبورها ·

ولقد كان هناك من يرى ، منذ عهد **روجر بيكون** أن مهمة العلم لا تعدو جمع عدد كبير من «الحقائق» **(نطلق عليها فى كثير من الاحيان اسم الحقائق الثابتة ، مدللين بذلك على دوامها ، ودقتها ،**

وموضوعيتها اللازمة) ، ثم بناء نظرية لتفسيرها • وبذلك تكون هذه النظرية « صحيحة » ، ومن ثم يتعين على الجميع أن ينحنوا لها اجلالا وخشوعا •

ولكننا نعرف الآن تماما ما كان ينبغى علينا دائما أن نعرفه – وأعنى به ، أولا ، أننا لا نحصل على ما يسمى بالوقائع الا عن طريق الملاحظة ،وأن القائم بالملاحظة هو نفسه جزء أساسى من نسق الوقائع ، وبذلك يقضى ، بضربة واحدة ، على الدقة النهائية والموضوعية النهائية معا ، وثانيا نعرف أن عناصر الاختيار ، وهى مسلمات لا تقوم على أساس واقعى أو منطقى تحليلى ، بل تقوم على أساس شخصى وثقافى ، هذه العناصر تدخل فى بناء كل النظريات وفى اختيار مجموعة « الوقائع » التى ينبغى التعامل معها • وأولى هاتين النقطتين نتيجة رئيسية للتطورات التى حدثت فى نظريتى النسبية والكم طوال نصف القرن الماضى ، وقد قام « مايكل بولانى (على نحو رائع ، بدراسة الجوانب الأقرب الى الطابع العام لما يمكن تسميته « بسراب الموضوعية » • أما النقطة الثانية فقد أوضحها عدد كبير من الكتاب ولكنى أشير بصفة خاصة الى كتاب **جيرالد هولتون** : الافتراض المسبق فى النظريات ، وكتاب **توماس س • كون** : بناء الانقلابات العلمية

ففى أول هذين المرجعين ، قام هولتون بتحليل عملية اتخاذ القرارات كما تدخل فى بناء النظريات العلمية ، ونشر ، على نحو مقنع ، بحثا مفاده أن « **عملية بناء نظرية علمية فعلية تقتضى قرارا صريحا أو ضمنيا ، كالأخذ بفروض ومعايير سبق اختيارها وليست على الاطلاق « صحيحة » علميا بالمفهوم •• المعترف به عادة** • ويذهب « كون » فى كتابه الى أنه فى أية فترة واحدة من التاريخ ومعترف به من الاوساط العلمية كلها ، تطور فى نطاقه « العلم العادى » الخاص بتلك الفترة • وفى نطاق هذا الاطار ، فضلا عن ذلك ، فان البحث يوجد اطار من المفاهيم والادوات ، متفق عليه العلمى « **ينزع الى أن يكون صورة من صور حل الألغاز ، لا استكشافا للمجهول** » • أما الكشوف الجديدة غير المتوقعة – الهامة منها على الاقل – فانها لا تحدث الا عن طريق انهيار فى القواعد المسلم بها قبلا • هذا النوع من الانهيار يحدث مرارا وتكرارا ، وذلك عندما تؤدى الطريقة المتبعة فى أسلوب العمل العلمى الى اثارة أزمات لا يمكن حلها فى نطاق الاطار العادى القائم فى ذلك الوقت وقد قام « كون » ، بوصفه مؤرخا للعلم ، بتحليل تقدم العلوم الطبيعية على مر السنوات الثلاثمائة الماضية ، وذلك لتقديم أدلة تؤيد بحثه الهام •

* * *

والواقع أن الأدلة التى قدمها هذان المؤلفان تثبت الوحدة الاساسية التى تربط العلم بجميع جوانب ثقافتنا الاخرى ، وتؤكد الاعتقاد ، الذى يؤمن به العلماء الآن على نطاق واسع ، وهو أن « **العلم ، أيا كانت نظرتنا اليه ، ليس الا صورة من صور الفن الخلاق** » •

وهناك رأى يدافع عنه دفاعا تفصيليا ومقنعا عالم المنطق والفيلسوف الكبير كارل ر • بوبر

هذا الرأى هو أن معرفتنا العلمية تتقدم « بواسطة توقعات ليس لها ما يبررها (ولايمكن تبريرها) ، وبواسطة تخمينات ، وحلول مؤقتة لمشاكلنا ، وحدوس » ، وأن هذه الحدوس « **لايمكن أبدا تبريرها ايجابيا** » ، على الرغم من أنها تضبط وتنقح بواسطة النقد • ويقول « بوبر » ان العلم يتقدم ، لا عن طريق اثبات أن بعض البيانات صحيحة ، بل عن طريق اثبات أن بعض البيانات غير صحيحة • فاذا كان هذا الرأى ينسف الخرافة التى تطمئن البعض ظاهريا ، وان كانت مفزعة فى أساسها ، وهى أن العلم هو الوصى الصارم على الحقيقة التى لا يمكن دحضها ، فلتلاحظ أنه يقوم ، فى نفس الوقت ، بدفع العلم الى الترابط مع جميع الاهتمامات البشرية الأخرى – فنحن جميعا نتعلم من أخطائنا •

وينبغى ألا نفترض ، نظرا الى أننى أشرت الآن الى « بوبر » ، أن الفلاسفة والمنطقيين هم وحدهم الذين يعترفون بأن للعلم طبيعة مرنة ، مؤقتة ، تخيلية ، ومحددة ثقافيا ، وفنية ، وروحية أساسا فبوسعى أن أذكر أقوالا مؤيدة ذكرها عدد كبير من علماء عصرنا العظام بحق – أقوالا كتلك التى

ذكرها روبرت أو بنهيمر عن جوهر الفيزياء المعاصرة أو بوسعى أن أحيلك الى الفصل البـديع المسمى « بالبصيرة الفيدانتية » فى كتاب صغير ولكنه متعمق ولطيف فى نفس الوقـت ألفه المرحوم **اروين شرودينجر** ، الذى اكسبته بحوثه الفيزيائية جائزة نوبل .

ولكني أود ألا يسىء أحد فهمى بالنسبة الى السبب الذى ذكرت من أجله هذه التعليقات عن الطبيعة الأساسية للعلم . اننى ، قطعا ، لم أفعل ذلك للانتقاص من الفائدة العملية للعلم ، أو لتقليل قيمة الانجازات الرائعة التى حققها العلم . ولكن هذه الانجازات نفسها ، عندما ينظر اليها سطحيا وعندما يبالغ فى تقدير قيمتها ، كما يمكن أن يحدث بمنتهى السهولة ، تؤدى الى فصل العلم عن بقية جوانب حياة الناس . هذا على حين أن ما نحن فى أمس الحاجة اليه ، فى الوقت الذى يسير فيه العلم قدما ، هو أن نضمن أن يدخل هذا العلم في زمالة ذات نفع متبادل مع كل الفنون الانسانية ، ومع الفلسفة والدين .

فليسمح لى القارىء بأن أضرب ، فى صورة شديدة التركيز ، مثالا لتوضيح نوع العلاقة المتبادلة النافعة التى أتصورها .

اننا جميعا نعرف حق المعرفة الوصف التقليدى للمنهج التجريبي الذى بدأ العلم يحدد معالمه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، والذى وسع الى حد كبير بعد استحداث الاجهزة والمعدات المناسبة . ان بوسع العلماء الذين يستخدمون هذا المنهج أن يصوغوا مشكلة ، ويرسموا خطة لكشف وقائع تتعلق بهذه المشكلة ، ويحللوا هذه الوقائع ، ويستنبطوا نظريات ، ويعدوا تجارب جديدة لاختبار هذه النظريات ـ كل هذه فى دورة من التحسين لا تنتهى أبدا .

ويستطيع العالم الآن ، بعد أن لم يعد عبدا للسطحيات التى تؤدى الى الملاحظة الفجة ، أن يستخدم التخمين ، والحدس ، والخيال ، والالهام بأمان . ويمكنه ، على نحو مناسب ، أن يكون مدفوعا بحب الاستطلاع ومؤزرا بالشجاعة . كما يمكنه أن يجازف بهذه العوامل المساعدة الشكلية لأن الأسلوب العلمى يخضع جميع النتائج للاختبار الدقيق على أساس من الواقع التجريبى .

وعلى الرغم من أن فائدة المنهج التجريبى قد اعترف بها اعترافا شاملا دون شك ، فاننى لا أظن أنه كان هناك تأكيد كاف للحقيقة القائلة ان هذا المنهج قد حرر العالم ليعيش الحياة الخلاقة التى يعيشها الفنان . ذلك لأن العالم ، الذى لم تعد تقلقه الأمور غير القابلة للاثبات ، يمكنه الآن ، من ناحية ، أن يسترشد بايمانه بمعقولية الطبيعة وامكان اكتشاف قوانينها ، وأن يعتمد على هذا الايمان ، ويمكنه ، من ناحية أخرى ، أن يجمع فى عمله على نحو كامل بين الفكر الطليق والفكر المقيد بالمنطق . اذ ان المنهج العلمي يهيىء له ، فى الواقع حلا لمشكلة العلاقة بين الحرية والتقيد بالنظام . فهو مطلق الحرية فى أن يجرب أى شىء ، ولكن المنهج كفيل بتصحيح كل أخطائه وارشاده برفق فى خطوته الجريئة التالية .

لقد أشار اينشتين مرة الى أن أشد الأمور غموضا فى الكون هو أنه غير غامض . والواقع أن العلم لم يتوصل ، بأية حال ، الى ايضاح كل غموض الكون . ومن هنا فان الفنون الخلاقة والدين وخاصة الأخير ، تقع على عاتقها مهمة ايضاح واثراء ميادين واسعة من الخبرة لا يمكن أن يصل اليها العلم .

ان قدرة العلم المتزايدة على كشف نظام الكون وجماله ، ابتداء من أسرع الجسيمات الأولية زوالا حتى الذرة ، والجزىء ، والخلية ، والانسان ، وأرضنا بكل حياتها الزاخرة ، والمجموعة الشمسية وما بعد المجرة ، ورحابة الكون نفسه ، كل هذا يؤلف السبب الحقيقى ، السبب الذى لا جدال فيه لكون العلم هاما ، ولكون تفسيره وتوضيحه لكل الناس عملا على جانب كبير من الصعوبة ، والضرورة والأهمية ، والقيمة .

من الخيال إلى الحقيقة

هـ . ج . ويلز .. وأول رحلة إلى القمر

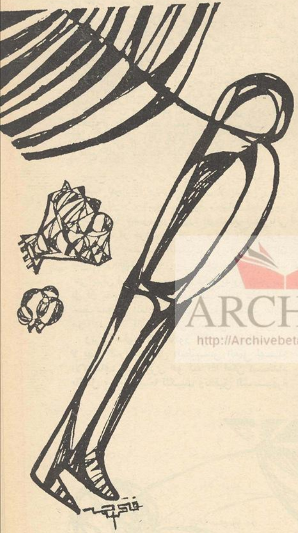
د . انجيل بطرس سمعان

ان هبوط الانسان على سطح القمر وتحقيق ذلك الحلم الكبير الذى طالما راود خيال بنى الانسان لا بد أن يذكرنا بتلك المحاولات التى قام بها رجال الأدب لتخيل السفر الى القمر والهبوط على أرضه ووصف الحياة به . فقد ألهب القمر أكثر من غيره من الكواكب الأخرى مثل المريخ والزهرة مثلا ، خيال الشعراء والقصاصين وفاز بأكبر قسط من اهتمامهم وأصبح موضوعا لكثير من القصص الرومانسية التى يطلق عليها عادة القصص العلمية .

ولعل من أهم أولئك الكتاب الروائى الانجليزى هـ . ج . ولز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) الذى أقام هذا النوع من القصص على أسس علمية سليمة واستخدم خياله الخصب وقدرته على الخلق والابداع لتصوير بعض النتائج البعيدة لتطوير العلوم ووضعها فى خدمة الانسان . ولقد كان ولز شديد الايمان بالعلم وبقدرته على خلق عالم مثالى ، كما كان مفكرا وفيلسوفا اجتماعيا نادى بضرورة استخدام العلوم ونشر مبادىء الاشتراكية والتنظيم الاجتماعى ليتحقق الفردوس على الأرض ويسود العدل والكفاية بنى البشر .

وقد ترك لنا هـ . ج . ولز عددا من القصص العلمية التى يطلق عليها عادة « الرومانسيات العلمية » من أهمها « آلة الزمن » (١٨٩٥) التى تصور آلة تحمل الانسان الى الامام وتهبط به فى عالم المستقبل ، و « حرب العوالم » (١٨٩٨) وتصور غزو أهل المريخ للأرض « وأول رجال فى القمر » (١٩٠١) و « أيام النجم المذنب » (١٩٠٦) وتصور مرور نجم ذى ذنب بالغرب من الأرض وما يثيره ذلك من رعب وفزع بين البشر .

وبالرغم من أن ولز لم يكتب هذه الرومانسيات العلمية لمجرد وصف السفر الى الكواكب أو لوصف العوالم الغريبة التى تنتهى اليها رحلات مثيرة فى الفضاء أو فى الزمن ، بل استخدم ذلك الشكل الادبى اما لنقد العالم الحاضر أو لتصوير عالم مثالى أفضل تتحقق فيه أحلام البشر فى المستقبل نتيجة لتقدم العلم وتحقق العدالة الاجتماعية ، الا أنه كان يملك من الخيال والقدرة على الابداع والتصوير ما جعل هذه الرومانسيات



العلمية أعمالا رائعة وجد فيها ألوف وألوف من القراء متعة كبيرة · فقد حققت هذه الأعمال نجاحا بالغا عند ظهورها فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى والسنوات الاولى من هـذا القرن ، وما زالت تشد اليها القراء حتى الآن · ولعلنا نذكر أن بعض هذه القصص قد حولت الى أفلام ناجحة وعهدنا « بآلة الزمن » على سبيل المثال ليس ببعيد ·

والذى يهمنا هنا بوجه خاص هـو قصة « أول رجال فى القمر » وقد كتبها هـ·ج·ولز مع مطلع القرن العشرين أى قبل أن يتحقق الحلم الكبير وتطأ قدم أول انسان سطح القمر بحوالى ٦٨ عاما ·

ولم يكن ولز أول من صور مثل هذه الرحلة المثيرة ، فقد سبقه الى ذلك عدد من الكتاب من أقربهم اليه الكاتب الفرنسى جول فرن مؤلف « مائة يوم حول العالم » ، « ورحلة الى بطن الأرض » التى اعترف بعض علماء الفضاء بتأثيرها القوى عليهم · فقد كانت مثل هذه القصـص بمثابة الالهام الذى ألهب خيالهم أثناء الصبا ثم دفع بهم فيما بعد الى البحث والتجريب وتسـخير العلم لتحويل الخيال الى حقيقة · فقصص الرحلات الى القمر قديمة قدم بلوتارك ، كتبها لوسيان ،وكبلر ووليم جودوين ، وجون ويلكنز ، وسـيرانو دى برجواك وغيرهم · وبالرغم من ذلك فان ولز يتحدى هؤلاء جميعا وغيرهم عندما يطلق على قصته عنوان « أول رجال فى القمـر » ولعله يرمى بذلك الى تأكيد أهمية الصورة التى يقدمها هؤلاء الرجـال لعالم القمر وليس مجرد الرحلة الى هناك ، كما فعل جول فرن وغيره من قبل · والواقع أن الرحلة كما يصورها ولز مثيرة ممتعة ولكنها مع الاستعداد لها لا تشغل أكثر من فصلين من فصول الكتاب الستة والعشرين ، وان كانت رحلة العودة التى يقوم بها أحد الرجلين تشغل فصلا آخر · وتبدو هذه الرحلة كمقدمة لوصف العالم الغريب الجديد الذى يكتشفه الرجلان اللذان يصـلان اليه · والواقع أنه بالرغم مما يمتاز به هذا الوصف من واقعية وجمال الا أن الدقة تقتضى أن نشير هنا الى أن العدد الأكبر من قراء هذه القصة يفضلون وصف الرحلة ويرون فيها أجمل جزء من أجزائها·

* * *

و « أول رجال فى القمر » مثلها مثل قصص ولز

العلمية الأخرى تبدأ بداية واقعية وتتقدم تدريجيا الى عالم التجريب العلمى وتنتهى بتحقيق عالم خارق مخالف للمألوف ، هو هبوط رجلين على سطح القمر • وتتلخص القصة فى أن عالما يدعى كافور يكتشف مادة حاجبة أو عازلة للجاذبية ، يطلق عليها اسم كافورايت نسبة اليه •ويتعرف هذا العالم أثناء قيامه بمفرده بالتجارب المتصلة بهذا الاكتشاف ــ فى بقعة نائية من ريف انجلترا ــ برجل مفلس من رجال الاعمال ، يدعى بدفورد ، يذهب الى نفس تلك البقعة ليكتب مسرحية عله يكسب شيئا من المال يقوم به أموره المالية اجرتبكة ويطلع كافور صديقه الجديد على اكتشافه •

يشرح كافور له أن جميع المواد « شفافة » أو خاضعة للجاذبية ولكنه يرى أن لا بد من وجود مادة عازلة أو حاجبة للجاذبية ، تماما كما توجد مواد حاجبة للضوء أو الحرارة أو التأثير الكهربائى للشمس ، أو حرارة الأرض • وكان كافور يعرف عن طريق بعض العمليات الرياضية أن مثل هذه المادة ممكنة ، بل وكان يعرف الظروف التى يمكن أن توجد معها • وهكذا يداوم التجريب الى أن ينجح أخيرا فى صنع هذه المادة عن طريق خلط عدد من المعادن بنسب معينة مع عنصر غازى هو الهليوم ، كان يأتيه من لندن فى آنية حجرية •

ويرى بدفورد أن كافور على عادة العلماء ، **لا يهتم كثيرا بمسائل التطبيق العملى لهذا الاكتشاف بينما يرى هو فيه اذا أمكن استخدام بالفعل ، بابا واسعا للكسب وتحقيق الشهرة والسطوة ، يتخيل التطبيقات العملية لهذه المادة فى ميادين الحرب والسلم ، لصنع المدافع والبنادق والسفن ، وفى أعمال النقل والبناء وجميع وجوه الصناعة الأخرى • ويحلم باحتكار حق الاختراع والتطبيق ، وبشركة كبرى تنمو وتنتشر نفوذها الى أن تسود العالم •**

وينتهى الأمر بكافور وصديقه الى التفكير فى صنع مركبة قمرية تنطلق بهما الى الفضاء ــ الى القمر اذ يحدث عفوا عند صنع المادة الجديدة انفجار عنيف يبعث بسقف المعمل وأجزاء كبيرة من منزل كافور والمنازل المجاورة الى عنان السماء • ويشرح كافور لبدفورد ما حدث قائلا انه عندما تم صنع مادة الكافورايت العازلة للجاذبية عزلت الجاذبية الأرضية عن طبقة الهواء الملاصقة لها فارتفعت الى أعلى وحل محلها طبقة أخرى من الهواء المحيط بها وعزلت هذه بدورها عن الجاذبية فارتفعت الى أعلى وهكذا ، فأحدث هذا تلك الفوضى التى شاعت فى كل تلك المنطقة ، ولولا أن طبقة الكافوريت التى تم صنعها كانت رقيقة وغير مثبتة تثبيتا كافيا بحيث اندفعت هى الاخرى فى النهاية الى أعلى لأدت هذه التجربة الى كارثة محققة نتيجة لاستنزاف هواء الأرض الى الطبقات العليا وهلاك كل من وما على الأرض من كائنات حية • الا أن ذلك يوحى لكافور بفكرة مركبة قمرية تستفيد من هذه الخاصية الهامة للكافورايت وتصمم بطريقة يمكن معها التحكم فيها وتوجيهها حيثما شاء راكبها •



وينقل الينا ولز ، على عادته ، وصفا دقيقا لهذه المركبة عن طريق الحوار الذى يجرى بين كافور وبدفورد فالمركبة أو « النجم » كما يسميه كافور كرة متعددة الاسطح ، ومصنوعة من الصلب ومبطنة بالزجاج السميك ، ومغطاة من الخارج بطبقة من الكافورايت ، أما الغلاف المعدنى الخارجى فيتكون من اطار ثابت تتحرك عليه نوافذ ترفع وتخفض حسب الحاجة مثل «الشيش» الحصيرة » الذى يستخدم فى بعض المنازل ، فاذا أقفلت جميع النوافذ ، اندفعت المركبة فى خط مستقيم نظرا لتحررها من الجاذبية الأرضية • أما اذا فتحت احدى هذه النوافذ ، فستقع تحت تأثير جاذبية أى جسم ثقيل يوجد فى هذا الاتجاه •وقد زودت هذه المركبة بالاضاءة والتدفئة الكهربائية وبكمية مناسبة من الهواء المجمد والطعام المركز وآلة لتقطير المياه وبعض اسطوانات الأوكسجين الى غير ذلك من مستلزمات • وصممت كوة صغيرة بأعلاها تسمح بالدخول والخروج دون تسرب الهواء • أما مادة الكافورايت التى تطلى بها المركبة فتصنع على مرحلتين مرحلة الطلاء أولا ، ثم مرحلة التسخين مع تمرير غاز الهليوم ثم التبريد ثانيا

ولا بد أن وصف المركبة قد بدا مقنعا لحد كبير لقراء ولز المعاصرين فى أوائل هذا القرن • أما الآن فعندما نقرأه اليوم للمرة الاولى أو نعود اليه بعد قراءة وصف الأقمار الصناعية التى تصنع الآن ، فمما لا شك فيه أن قمر ولز يبدو بدائيا ساذجا ، فاذا ما قورن « بأبوللو » مثلا وما يحويه من آلات ومعدات فسيبدو غير مقنع على الاطلاق الا أن ذلك لا ينفى ان ولز كان يفكر تفكيرا علميا سليما الى حد كبير • فبدلا من فكرة الصاروخ النفاث الذى يندفع الى أعلى نتيجة احتراق كمية من الأكسجين التى يحملها بداخله ، نجد هنا قمرا يندفع الى أعلى نتيجة التخلص من الجاذبية التى تشده الى الأرض ويتوقف أو يغير اتجاهه بالتعرض لجاذبية مصدر آخر • ومن الواضح أن فكرة التوجيه الآلى أو استخدام اللاسلكى لم تخطر لولز على بال • فقد كانت التجربة التى يقوم بها تجربة فردية • أما التجارب التى تجرى اليوم والتى حققت آخر تجربة منها ذلك النجاح المذهل فيشارك فيها آلاف من العلماء والفنيين وتقوم على توافق مئات من الاجهزة الدقيقة المعقدة •

ولعل ولز بوصفه روائيا فى المكان الأول يتفوق فى وصف سلوك شخصياته ومشاعرهم ومانعنيه تلك المغامرة الكبرى بالنسبة لهم • أما بالنسبة للعالم فهى رحلة استكشاف يجنى من ورائها ، اذا كلل لها النجاح ، معرفة جديدة • أما بالنسبة لزميله فهى وسيلة للحصول على كسب مادى اما عن طريق الحصول على بعض المعادن الثمينة التى قد توجد بالقمر ، أو كما يخيل اليه فى شطحة من شطحات الخيال ، باتخاذ القمر مكانا يقضى فيه من تتوفر لهم نفقات الرحلة الباهظة اجازاتهم • ومرة أخرى نجد أن ولز قد سبق الزمن وتنبأ بأشياء أصبحت اليوم أقرب الى الحقيقة منها الى الخيال ، فمن منا لم يقرأ أن آلوفا من الأشخاص قد حجزوا أماكنهم فى الرحلات المقبلة الى القمر •

الا أن الشك ما زال يراود بدفورد الذى لم يبد متحمسا تماما بهذه الرحلة منذ البداية • فعندما يشرح له كافور فكرة الرحلة الى الفضاء يبادره قائلا :

« ولكنى لا أرى لماذا تفعل ذلك • فهذا لا يعدو أننا نقفز من الأرض ثم نعود اليها » •

فيرد العالم قائلا « هذا صحيح • ولكن قد نتمكن من الذهاب الى القمر مثلا »

فيقول بدفورد « وما الذى نجنيه عندما نصل الى هناك ؟ ما الذى نجده هناك ؟ »

ويرد الآخر « سنرى ذلك • آه ! فكر فى تلك المعرفة الجديدة » •

ويسأل بدفورد « وهل سيكون هناك هواء ؟ »

ويجيبه كافور « قد يكون هناك هواء »

ثم يضيف قائلا ان الذهاب الى القمر ليس أسوأ من الذهاب الى المناطق القطبية • فهناك كثير من الرحلات الى القطب لا يرجى من ورائها كسب مادى ثم انه قد توجد فى القمر معادن مثل الكبريت أو الذهب أو عناصر جديدة أخرى • ثم « قد نذهب الى المريخ »

ويقتنع بدفورد مؤقتا ولكنه يعود الى التساؤل



والشك وهنا نرى بوضوح يد الروائى القدير الذى يعمل على ايهام القارىء بحقيقة ما يقص عليه وذلك عن طريق تلك اللمسات الواقعية التى تؤكد غرابة الرحلة من جهة وتشكك بدفورد الطبيعى وقلقه وتخوفه من عالم المجهول من جهة أخرى • فذات يوم مثلا وقد قارب العمل النهاية

يبادر بدفورد زميله قائلا :

« وما الذى نجنيه بعد كل هذا العناء ؟ »

ويجيبه زميله قائلا « المهم هو أن نذهب » • ويفكر الأول قليلا ثم يقول « ولكن ماذا تنتظر؟

لقد كنت أظن أن القمر عالم ميت »

ويهز الثانى كتفيه قائلا « اننا ذاهبون لنرى ذلك » ·

ويردف بدفورد « وهل سنذهب حقا ؟ »

ولكنه يستمر فى العمل وقد عاوده نشاطه · وعند نهاية عمله اليومى يذهب ليأخذ قسطا من الراحة كالمعتاد ، الا أن القلق والخوف من المصير المجهول — اذا ما ذهب فى هذه الرحلة المجنونة — يؤرقه ، فيترك المكان بعد أن يخبر كافور أنه لن يذهب معه ، ويقضى بعض الوقت بعيدا عن مكان التجربة ، ولكنه ما يلبث أن يعود وقد تغلب على مخاوفه ·

ثم تحل اللحظة الحاسمة ، لحظة الانطلاق ، ويدخل الرجلان مركبتهما وتقفل الكوة التى دخلا منها ، وينتظرا قليلا فى الظلام · ثم تحدث رجة صغيرة ويسمع صوت كالفرقعة التى تحدث عن فتح زجاجة من الشمبانيا فى حجرة مجاورة · وفجأة يعلن بوفورد أنه لن يذهب معه الى القمر · ولكن كافور يخبره أنه لم يعد فى وسعه أن يتراجع ، فقد أقلعت المركبة وهى الآن فى طريقها الى الفضاء الخارجى · وكل ما عليه هو أن يبقى فى مكانه ويقتصد فى الحركة والكلام ·

ويخبرنا بدفورد أنه شعر لمدة لحظة واحدة بضغط كبير واحساس عابر بأن قدميه تضغطان الى أسفل بقوة عدد لا يحصى من الأطنان · الا أن ذلك لم يدم طويلا · وسرعان ما يشعر بالخفة الناتجة عن انعدام الوزن ، يصحبها احساس غريب فى الرأس ، احساس يشبه الصداع ، وخفقان فى الأوعية الدموية بالأذنين · ولا تخف هذه الاحساسات بمرور الوقت ، ولكن بدفورد يعتادها شيئا فشيئا بحيث لا يشعر بشىء من عدم الراحة · ويخاطبه كافور قائلا :

« لا تتحرك · اجعل عضلاتك ترتخى كما لو كنت فى الفراش · فنحن فى عالم خاص بنا · أنظر الى تلك الأشياء » ·

ويقول بوفورد « وهنا رأيت جميع الحقائب واللفائف التى كانت موضوعة على البطاطين فى قاع المركبة تسبح الآن على بعد حوالى قدم من حائط المركبة » ويضيف قائلا :

« لم أصرخ ولم أحرك ساكنا · انما تملكنى الخوف · وشعرت كما لو كان شيىء يمسك بى ويرفعنى ، شىء لا أعرف ما هيته · وكانت مجرد لمسة من يدى للزجاج تحركنى بسرعة · فهمت ما حدث ، ولكن ذلك لم يمنع شعورى بالخوف · لقد حجبنا عن كل جاذبية خارجية ، وكان للأشياء التى بداخل المركبة جاذبيتها الخاصة · ونتيجة لذلك ، فان كل ما لم يكن مثبتا بزجاج المركبة أخذ فى السقوط — ببطء لصغر حجمه — نحو مركز للجاذبية فى عالمنا الصغير ، كان يبدو فى مكان ما قرب وسط القمر ، ولكنه أقرب قليلا الى كافور منه الى ، نظرا لكبر وزنه » ·

ويقول كافور « لا بد أن نستدير بحيث يواجه ظهر كل منا ظهر الآخر وتبقى الأشياء بيننا » ·

ويواصل بدفورد وصف مشاعره قائلا « لقد شعرت باغرب شعور يمكن أن يتصوره عقل ،ونحن نسبح هكذا منطلقين فى الفضاء ، وكان هذا الشعور الغريب مخيفا فى بادىء الأمر ، ولكن عندما زال الخوف ، لم يكن شعورا سيئا على الاطلاق ، بل كان شعورا مريحا جدا · والحقيقة أن أقرب شىء الى ذلك فيما نمر به من تجارب على الأرض هو الاستلقاء على فراش سميك جدا مصنوع من الريش الناعم · ولكن ما أغرب ذلك الشعور بالانفصال والاستقلال التام ! لم أكن أتصور شيئا من هذا القبيل · كنت أتوقع هزة عنيفة عند البداية ، وشعورا بحركة تسبب الدوار ولكن بدلا من ذلك كنت أحس وكأننى قد تحررت من جسدى · وكأن الأمر لم يكن بداية رحلة ، بل بداية حلم » ·

وبعد فترة قصيرة يطفىء كافور الضوء الذى كان قد أوقده حتى لا يستهلك أكثر مما ينبغى من الطاقة المخزونة ، ثم تبدأ عملية توجيه المركبة نحو القمر بفتح بعض النوافذ حتى تعمل جاذبية القمر على الأشياء الموجودة بالمركبة · ويصف بدفورد ظلام الكون ثم السماء المرصعة بالنجوم ثم ضوء القمر الذى يغرق المركبة عند فتح عدد من النوافذ · ويقضى الرجلان الوقت فى الحديث أو القراءة أو النوم ، ويلاحظان أنهما لا يحتاجان الا الى القليل من الطعام ، « يشعران أنهما فى حالة من الاستسلام بين اليقظة والنوم ، ويسقطان فى فراغ من الزمن لا ليل له ولا نهار ، يسقطان بصمت ، ورقة ، وسرعة الى أسفل نحو القمر » ·

ثم تقترب لحظة الوصول الى نهاية الرحلة ، وينشط كافور يقفل النوافذ ويفتحها ، يستخدم جاذبية الشمس تارة وجاذبية القمر تارة أخرى

يقوم ببعض العمليات الحسابية • ثم ينظر الى ساعته ، ويحول اتجاه المركبة كي يخفف من حدة الاصطدام بسطح القمر عندما تحل ساعة الهبوط وأثناء ذلك يرقب بدفورد القمر والشمس وبهاء ضوئها الذى يهلبه ويعمى بصره ، ثم حركة الاشياء داخل المركبة القمرية ، وتغير موقعه منها تبعا لتغير حركة الجاذبية التى تخضع لها • وأخيرا تستقر بهما المركبة القمرية فى فوهة ضخمة من فوهات البراكين العديدة على سطح القمر •

ويصور لنا ولز تلك اللحظات الحرجة التى تسبق هبوط المركبة القمرية على سطح القمر تصويرا رائعا ، الخوف من ألا تتمكن المركبة من الوصول الى القمر وتتوه فى الفضاء ، أو تصل الى القمر وتتحطم على سطحه ، أو لا يوجد الهواء الكافى لاستمرار حياة الانسان عليه • الا أن الرحلة يكلل لها النجاح وتهبط المركبة بسلام عند نهاية ليل القمر الطويل وبداية النهار • ثم يصف لنا ولز سطح القمر ومظاهر الحياة به من نبات وحيوان وسكان •

ولعل أروع ما يصوره ولز وما يدل على خصوبة خياله وقدرته على الخلق والابتكار هو أهل القمر أنفسهم • يعجب كافور وبدفورد اول الأمر لوجود حياة على القمر • ويزداد عجبهم ودهشتهم عندما يرون أهل القمر ويلاحظون مدى الاختلاف بينهم وبين سكان الأرض فهم أشبه ما يكون الى حشرة قريبة الى النملة نظرا لصغر أحجامهم ورقتهم وشفافيتهم • ويفشل الزائران الغريبان فى الوصول الى نوع من التفاهم مع أهل القمر • فتنشب معركة بين الطرفين عندما يرفض كافور وبدفورد عبور قنطرة ضيقة جدا مقامة على علو شاهق ، ويقتل بدفورد عددا من أهل القمر ، بينما يتشبث كافور برفيقه فى التفاهم معهم ، وخاصة عندما يدرك أنه على عتبة عالم غريب ، ويستنتج ما يراه من آلات ضخمة أن لأهل القمر حضارة متقدمة فى بطن القمر وعلى شواطىء بحاره الدخلية التى لا بد أن تنتهى اليها تلك الممرات والسراديب التى تبدأ مع السطح وتغطى فتحاتها أبواب متحركة ضخمة • ويفترق الصديقان فى محاولة للعثور على مركبتهما ليحتميا بهما مؤقتا من البرد ومن أهل القمر • ولكن بدفورد يجرها ويعود بها الى الارض بينما يقع كافور فى أيدى أهل القمر • ويبقى معهم فترة ، يتعلم لغتهم وشيئا عن طرق حياتهم ، ويبعث بما يجمع من معلومات فى اشارات لاسلكية الى أهل الأرض ، عملا بفلسفة العالم الذى يسعى لتحصيل المعرفة ثم نشرها • وفجأة تنقطع هذه الاشارات ويبدو أن كافور قد لقى مصرعه على أيدى أهل القمر اللذين عرفوا من طباع أهل الأرض ماجعلهم يعجلون بالقضاء على الشخص الوحيد الذى يعرف سر الوصول الى عالمهم •

ويعوزنا الوقت لشرح جميع وجوه الحياة مع القمر كما صورها ولز • أما أهم مظاهر هذه الحياة فهو التخصص المتطرف الذى يحدد شكل الكائنات القمرية ويرى فى النمو المسرف لبعض قسماتها • فبعض هذه الكائنات تتميز بأيدطويلة وأخرى بأذرع ضخمة وأخرى بأرجل طويلة • وأبرز هذه التشكيلات كائنات تحمل أغطية كبيرة للمخ تبدو كالحوصلة المنتفخة بينما يتضاءل حجم الوجه وتضمر بقية الجسم الى أقصى حد •

ويوضح كافور فى رسائله الى الارض أن هذا التباين الشكلى الكبير يرجع الىمجهود واع مقصود لتهيئة كل فرد من أهل القمر عن طريق نظام دقيق من التدريب والتعليم والجراحة للقيام بعمل واحد معين يكلف به • فهو اما أن يفكر أو يتنكر أو يبنى أو يدير آلة • وهو لا يستطيع أن يفعل سوى ما أعد له وكلف به • ولكنه مهيأ تماما لوظيفته ومكانته فى الحياة • وهكذا يعمل كل فرد كوحدة تامة وكجزء من الآلة الكبيرة التى تكون هذا العالم الغريب • فعالم القمر قائم على تنظيم دقيق يشبه الى حد كبير جمهورية أفلاطون ،وان كان يبدو وكأن جمهورية أفلاطون قد تحولت الى كابوس مخيف •

وينقسم أهل القمر الى طبقات ، تتكون الطبقة المثقفة من الاداريين والاخصائيين والعلماء ، وعلى قمة هذه الارستقراطية الثقافية يجلس « القمرى الاكبر » . أما طبقة العمال فتتكون مما يمكن أن يسمى « بأيدى الآلة » وهناك أيضا الشرطة القمرية . وأخيرا « ملكات النحل » وهى طبقة خاصة محدودة العدد من الامهات » .

ويبدو هذا التنظيم الاجتماعى أول الامر وكأنه تنظيم مثالى . ولكن العالم الآتى من عالم الارض غير المثالى ما يلبث أن يكتشف ما لهذا التخصص المنظم من نواح محزنة تدعو الى الرثاء والشفقة . فهو عالم مخيف لا يختلف كثيرا عن عالم الدوس هكسلى « الجديد الجرىء » ، من حيث الآلية التامة للحياة ، وانعدام الحرية الفردية . فالنظرة التى يلمحها كافور لليد الممتدة خارج الاناء الزجاجى الذى يحوى بقية الكائن القمرى أثناء عملية تهذيبه ليصبح ملاحقا للآلة من نوع معين ، انما هى رمز لذلك الارغام وعدم الانسانية الكامنين فى مثل هذا النوع من التنظيم الاجتماعى . أما صورة العمال اللذين يخدرون ويلقى بهم بين النباتات اللحمية الضخمة ، لمجرد أنهم زائدون عن الحاجة فصورة أشد قسوة وأكثر اثارة للأسى والعطف .

ومن الواضح أن هـ . ج . ولز يقدم هنا صورة مبكرة لما يقدمه هكسلى فيما بعد فى عالم من عمليات الخلق والتشكيل فى الزجاجات ، وما يتبعها من خلو الحياة من القيم الدقيقة ، يدفع ببنى البشر الى ادمان المخدرات ، أو الى الانتحار . فهذه اذن صورة ساخرة للتخصص المتطرف من ناحية ، ولما يمكن أن يؤدى اليه العلم انضل الطريق من ناحية أخرى .

الا أن ولز يبدو شديد الاعجاب ببعض نواحى عالم القمر الأخرى التى تمثل بعض المبادىء التى طالما دعا اليها فى كتاباته القصصية وغير القصصية مثل الوحدة الكاملة بين أهل القمر واستخدامهم للغة واحدة ، وانعدام الحروب بينهم وقيام الحكم على يد ارستوقراطية ثقافية .

وهكذا نرى أن قصة « أول رجال فى القمر » الى جانب كونها « رومانسية علمية » من الطراز الأول ، فهى أيضا حلقة من حلقات الرواية اليوتوبية التى تقدم صورا للعالم المثالى ، كما يتمناه بنى البشر أو كما يخشون أن يكون فى المستقبل القريب أو البعيد ، بحيث تعد صورة العالم الخيالى تحذيرا لما قد يكون عليه العالم الحقيقى أكثر من كونها صورة لعالم مثالى يرجى تحقيقه والاحتذاء به . فولز بالرغم من ايمانه الشديد بالعلم ، يشارك عددا غير قليل من مفكرى العصر الحديث فى ايمانهم بأن العلم الذى يمكن أن يقهر الكون قد يؤدى الى القضاء على الانسانية ويتحول الى نقمة على البشر بدلا من أن يكون نعمة لهم .

أما من الناحية الشكلية فتعد قصة « أول رجال فى القمر » من خير ما كتب ولز من رومانسيات علمية . أما ولز فقد أثبت الزمن أنه من أئمة هذا النوع من الكتابة اذ جمع بين القصة المثيرة الشيقة والمادة العلمية الصحيحة ، فى عصره ، والفلسفة الاجتماعية الانسانية ، وترك أثرا واضحا فى كل من تبعه من كتاب هذا النوع من القصص .

ومن أهم خلفائه فى مجال القصص العلمى الداخل فى نطاق الأدب الناقد والروائى وأستاذ الأدب الانجليزى الذى توفى من بضعة سنوات ! س . س . لويس C.S. Lewis **مؤلف الثلاثية التى تتكون من « الى خارج الكوكب الصامت » وتشمل رحلة الى المريخ ، « ورحلة الى الزهرة » ، و « تلك القوة المخيفة » . ثم أولاف ستيبلدون** Olaf Stapledon **مؤلف « آخر الرجال وأولهم » و « صانع النجوم » . أما خارج نطاق الأدب فقد أصبح القصص العلمى ينافس القصص البوليسية فى الشيوع والانتشار .**

د . انجيل بطرس سمعان

أضواء جديدة على الحضارة العربية

عبد العاطي جلال

• بظهور الدين الإسلامي بدأت أولى مراحل الحضارة العربية ويعزى نجاح قيام هذه الحضارة وانتشارها الى عدة أسباب : أهمها ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين بفضل الدين الجديد ، وثانيها الروح الحربية النابعة من طبيعة تكوين القبيلة وتماسكها وتلاؤم هذه الروح مع أرض المعارك .

المستشرق **جاك ريزلر** يشغل حاليا منصب أستاذ بالمعهد الاسلامي في باريس . وهو صاحب كتاب **يقظة الاسلام** وكتاب **الحضارة العربية** الذى نحن بصدد الحديث عنه . وقد نشر هذا الكتاب للمرة الثانية في فرنسا أخيرا بعد أن نفدت طبعته الأولى التى نشرت فى سنة ١٩٦٢ . ويعتبر **ريزلر** من الذين عنوا عناية خاصة بالحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالحضارات الأخرى التى كانت تعاصرها وتأثيرها عليها . **وهو يختلف عن بعض المستشرقين بنظرته العلمية الموضوعية التى لا تخضع لعوامل القومية أو العنصرية أو الانتماء** . لهذا نجده فى أكثر من موضع فى دراساته التى نشرها عن الحضارة العربية والدين الاسلامي يعرب عن أمله فى أن

تسمح هذه الدراسات لغير المسلمين بمعرفة الروح الاسلامية وحقيقة تكونها ، **وباعثه على** ذلك رؤيته للعالم الغربى يقف مشدوها متحيرا **أمام العالم العربى وكأنه عالم غامض تماما تحيطه الأسرار ويغمره الجهل ويعميه التعصب** • ومايصدر عنه من أعمال أو أفعال اسلامية فى طبيعتها وفى ايحاءاتها ليست بالأمور العادية أمام الغرب وكثيرا ما تفوته معرفة طبيعة هذا العالم ووجوده وأحاسيسه وتصرفاته • ويرى **ريزلر أن هوة سحيقة تفصل بين العالمين اللذين يقوم أولهما على الفطرة والزهد وثانيهما على المادية والاقتناع المنطقى** • الغرب يحاول الامساك بالحقيقة عن طريق الجدل الديكارتى والشرق يحاول الوصول اليها عن طريق الله وحده ، الأول يتحمل دون شك النتائج التى يصل اليها بجدله وأحكامه سواء أكانت صحيحة أم خاطئة والثانى يستجيب دون شك أيضا الى أوامر القرآن وتواصيه وسنة رسوله • **وهذه الحقيقة فى حد ذاتها كافية فى رأى ريزلر لمعرفة المسافة الشاسعة التى تفصل بين الانسان الشرقى والغربى** • ومع هذا فانه يرى أن الشرقى لا يعوزه الميل الى حضارة متطورة مزدهرة رغم يقينه أن مستقبل العلم قاصر وان مصير الانسان مهما كان **سيظل دائما بين يدى الله** •

أرض الديانات

وفى كتابه الحضارة العربية يحدثنا المؤلف فى الجزء الأول عن الفترة التى سبقت ظهور الاسلام ، ويحدد الوطن الذى ظهر فيه الدين الاسلامى وانتشر ويصفه بأنه يحتل مركزا جغرافيا خاصا بين أوروبا وآسيا وافريقيا • **ويرى ان تاريخ الشرق كله يجب أن ينظر اليه أولا وقبل كل شىء على أنه نتيجة لتطور الديانات التى نشأت فى قلب هذا الجزء العجيب من العالم ، حيث ظهر الاسلام على نفس الارض التى ظهرت عليها اليهودية والمسيحية وانتعشت جميعها فى نفس البقعة** • وهو يذكرنا بأن الحضارة العربية انبثقت من المناطق الخصبة فى الحجاز خاصة اليمن حيث كانت تقوم حضارة سبأ التى غزاها الحميريون الذين كانوا يقطنون غرب الجزيرة العربية وكانت بينهم وبين المصريين علاقات تجارية بحرية • وفيما عدا الحميرين والسبأيين لم تكن هناك تجمعات حضارية فى شبه الجزيرة العربية غير البدو الرحل الذين يدينون بالولاء لزعيم القبيلة • أما البابليون والاشوريون فاصولهم حتى الآن ليست معروفة تاريخيا رغم الاكتشافات الحديثة بالنسبة لهذين الشعبين • وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك حضارات الفرس والفينيقيين والاغريق والرومان والمصريين • وجميعها كانت حضارات وثنية الى أن جاءت اليهودية ثم المسيحية وأخيرا الاسلام • **وبظهور الدين الاسلامى بدأت أولى مراحل الحضارة العربية** • ويعزى نجاح قيام هذه الحضارة وانتشارها الى عدة أسباب أهمها ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين بفضل الدين الجديد ، الأمر الذى أكسبهم جرأة جعلتهم يستهينون بالموت فى سبيل الله • **وثانيها الروح الحربية النابعة من طبيعة تكوين القبيلة وتماسكها وتلاؤم هذه الروح مع أرض المعارك ، فضلا عن سرعة حركة الفرسان العرب وبساطة أدواتهم الحربية وملابسهم التى لا تعدو العمامة والعباءة أو الجلباب** •

ويرى ريزلر انه مما ساعد على انتشار الحضارة العربية ضعف أعداء المسلمين من البيزنطيين والساسانيين المتطاحنين دائما والذين لم يحققوا قط قيام امبراطوريتين راسختين على أسس قوية • وقد ظلت النظم الاقتصادية والاخلاق والعادات لدى الشعوب المحكومة من قبل هاتين الامبراطوريتين شرقية لحما ودما • **كما أن العرب أحسوا بمشاعر هذه الشعوب النازعة الى التمرد فى أية لحظة بسبب المظالم والتفرقة السياسية والدينية والاقتصادية** • وهكذا وفى أقل من ثمانين عاما بسط العرب سلطانهم حتى وصلوا فى النهاية الى تور وبواتييه غربا وبلاد الدالاى لاما شرقا •

ان أعز أمنية كانت لدى الاسكندر الاكبر هى ادماج الاغريق فى الشعوب الشرقية والنظر اليهم جميعا على أنهم مواطنون متساوون فى الحقوق والواجبات • من أجل هذا أسس سبعين مستعمرة أغريقية فى آسيا الصغرى وحصنها تحصينا قويا لتكون نواة لذلك الادماج غير ان خلفاءه فشلوا فى اتباع سياسة الادماج

هذه وظلت الادارة رومانية أثناء الحكم الروماني • **الا أن الثقافة الهيلينية كانت قوية وظلت اللغة الاغريقية هي اللغة الرسمية أكثر من الف سنة• وحينما جاء الغزو العربي لهذه البلاد انهار كل شيء ومحا هذا الغزو كل الآثار الرومانية •**

العقيدة والدولة والثقافة

ان كلمة اسلام على حد قول ريزلر يمكن أن تتضمن ثلاثة معان مختلفة هي العقيدة والدولة والثقافة وثلاثتها تعني حضارة فريدة • فبعد أن استقر الاسلام في الجزيرة العربية برزت الحاجة الى تنظيم اجتماعي وعسكري وبدأ العرب في عهد الخلفاء يخوضون معارك الفتوحات ، وفي أقل من عشر سنوات منذ وفاة الرسول سيطر المسلمون على دمشق وانطاكيا وبيت المقدس وسوريا وفارس ومصر • واختلط العرب بشعوب هذه البلاد وتزاوجوا معهم وتضاعف عددهم ، ونزح عدد غير قليل من البدو الرحل واستقروا في الأرض الجديدة • ورغم هذا ظل العرب أقلية وسط هذا الخضم الهائل من سكان البلاد الأصليين ،لكن هذه الأقلية كانت ذكية وعلى قدر كبير من الجرأة فلم يطل بهم التفكير لكي يدركوا أن هذه البلاد المغلوبة على أمرها كانت قبل مجيئهم آيلة للانهيار رغم ان النظم الادارية فيها كانت مستقرة الى حد ما ، حتى أن الخليفة عمر لم يسمح للعرب بأن يستولوا على أراض في تلك البلاد محافظة على الروح والنظام العسكريين أيضا • لكن الفاتحين مع هذا فرضوا نظما اقتصادية ومالية تعود عليهم بالفائدة دون أن يتعرضوا للنظم المستقرة في تلك البلاد ، بل حاولوا أن يستفيدوا منها بقدر الامكان ويؤكد المؤلف خلافا لما يظنه بعض المستشرقين ان الغزاة انتهجوا سياسة طيبة تجاه المغلوبين دون أن يشعروهم بالولاء أو الخضوع خاصة فيما يتعلق بالدعوة الدينية ، ودليله على ذلك ان غالبيتهم احتفظوا بدياناتهم الأصلية نظير دفع ضريبة معينة **وبهذا الشكل استمرت الحياة في سيرها الطبيعي وعاد الانتعاش الى الحضارات القديمة والحضارة الهيلينية على وجه الخصوص ، كل ذلك في اطار** الثقافة الاسلامية التي كانت آخذة في التطور والنمو على أسس راسخة من الأخذ والعطاء ، حتى لقد حدث أن الذين اعتنقوا الدين الاسلامي من شعوب تلك الحضارات استطاعوا أن ينسوا ماضيهم التاريخي الحقيقي ، بل وحاولوا مزجه بالحاضر وكأن الديانة الاسلامية كانت قائمة قبل **ذلك • وربما لم يحدث في التاريخ البشري من قبل تمثل للحضارة الانسانية كما حدث في تلك الفترة •**

وجاء العصر العباسي فكان من ألمع عصور الحضارة الاسلامية • فقد كان معظم الخلفاء العباسيين يميلون الى الآخذ باسباب الحضارة ميلا شديدا ، فازدهرت الفنون والآداب والعلوم في عصرهم وحفل القرنان التاسع والعاشر الميلاديان بأعظم ما تنتجه القرائح من علوم وفنون • **فاعتبر هذا العصر بحق العصر الذهبي للحضارة العربية** • ولم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ أن احتوى قصر ملك أو أمير أو نبيل مثل ما احتواه قصر هارون الرشيد من عقول تتنافس فيما بينها كي تنتج أعظم ماخلفته الحضارة العربية في أوج ازدهارها • ولم يكن الرشيد هاويا أو فنانا فحسب ، بل كان كذلك حاكما ممتازا يعرف كيف يحمي حدود امبراطوريته



وكيف يقود جيوشه الى المعارك وكيف يحكم في القضايا بالعدل • ورغم جوده وسخائه وأبهته وتبذيره الذي كان أسطوريا فانه حينما توفي في سن الثانية والأربعين ترك في خزائنه ثمانية وأربعين مليونا من الدنانير • وخلفه ابنه المأمون فنهج نهجه ، بل كان مفعما بالآمال الواسعة الخيرة • وامتلأ بلاطه بالعلماء والفقهاء بمختلف طرائقهم ومذاهبهم • وكما كان ميسين أحد النبلاء الرومان في بلاط الامبراطور أغسطس حامي حمى العلماء والأدباء والفنانين في أيام فرجيل وهوراس كان المأمون كذلك ، فنشر العلوم والفنون والآداب في كل أرجاء امبراطوريته وترجمت في عهده المؤلفات الاغريقية •

بين السياسة والحرب

يقول المؤلف ان أهم شيء يسترعى النظر هو أن انتشار الاسلام قد يوحى الى المفكر أو الدارس بأن يعقد مقارنة بين هذا وبين انتشار الدين المسيحى ، هذا الدين الذى قام أساسا على غزو القلوب بمثل عليا للخير والحب والتسامح . **فموعظة « أحبو بعضكم بعضا »** « كانت المثل الأعلى للمسيح وحوارييه . لكن على الصعيد الانسانى والأقل مثالية كان **النبى على حق حينما برهن على أن أحسن المثل العليا هو ذلك الذى ينبع من القوة السياسية والحربية** . وشاهدنا على ذلك أن السرعة المذهلة لتطور الدين الاسلامى لم تكن الا نتيجة مباشرة للعوامل السياسية والتقدم الحربى . وانطلاقا من هذه النتيجة التى وصل اليها ريزلر نجده يلقى نظرة علمية على السياسة التى اتبعها العرب مع أبناء الشعوب الأخرى من أهل الذمة . فيذكر لنا أنه فى بداية الفتح لم تكن الامور قد استقرت تماما بالنسبة للعرب . ثم تدريجيا وبالضبط أثناء حكم بنى أمية اهتم خلفاؤهم بأهل الذمة هؤلاء وجعلوهم يحتلون مكان الصدارة فى مراكز متعددة . وفى العصر العباسى وصل الأمر ببعض اليهود انهم فضلوا الدين الاسلامى واعتنقوه عن يقين . وبلغت سماحة الخلفاء أقصى حدودها فانتعشت العبادات الاخرى حتى بلغ عدد دور العبادة فى الامبراطورية الاسلامية ما يزيد على أحد عشر ألف كنيسة وعدة مئات من المعابد اليهودية على اختلاف أنواعها **وظهر بين أهل الذمة من شغلوا الوظائف العامة ، وأصبح منهم الاطباء وأصحاب بيوت المال وكبار** الزراع . وقد وصل من اعتنق الاسلام منهم الى مناصب الوزراء والقضاة . وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى شغل اليهود بالذات أكبر الوظائف فى مصر . وكان أبو سعد والتستارى وغيرهما ممن شغلوا مناصب الوزراء فى الدولة الفاطمية فى مصر من اليهود .

وانتشرت دور العلم على اختلاف أنواعها حتى شملت أرجاء الامبراطورية الاسلامية ، فكان الطفل فى سن السادسة أو السابعة يرسل الى الكتاب الملاصق للمسجد ويتلقى تعليمه الأولى بالمجان فيه ، وقد كان قائما على حفظ القرآن . وفى القرن العاشر الميلادى عرف النظام المرحلى فى التعليم فوجدت مرحلة التعليم الأولى أو الابتدائى الذى كان هدفه تكوين شخصية الطفل واخلاقه ثم المرحلة الثانوية وفيها يتلقى الطالب دراسة حقيقية متنوعة . أما فيما يتعلق بالدراسات المتخصصة فقد كان الطالب يقوم بدراستها فى الأماكن المختلفة مع المهنيين والحرفيين فى المصانع والمراصد ثم نظمت المرحلة الثالثة وأصبح يطلق عليها المدرسة أو الكلية . **وبذلك كان العرب أول من عرف نظام المراحل التعليمية الثلاث** . وكانت الدراسة فى المدارس الملحقة بالمساجد حيث الدراسة بالمجان تقدم للدارس دروسا فى النحو والفلسفة وفن الخطابة والأدب والمنطق والرياضة . وهذه المدارس هى غير كتاتيب المرحلة الأولى التى ورد ذكرها آنفا . وكان الطلبة يلتفون فى مدارس المرحلة الثالثة حول أساتذتهم فى حلقات ويتلقون دروسهم عن طريق الاستماع والحوار ، ونادرا ما كانوا يكتبون . وكثيرا ما كان الراغبون فى الاستزادة من العلم يرتحلون الى عواصم الامبراطورية ، **الى مكة وبغداد ودمشق والقاهرة** وكان هؤلاء الرحالة يجدون الكثير من الحفاوة والتكريم وهم فى طريق رحلاتهم الى هذه الحواضر حيث ينزلون ضيوفا أعزاء مكرمين لأنهم طلاب علم وطلب العلم فى حد ذاته نوع من الايمان والعمل بسنة رسول الله . وتحت تأثير هذا الجانب الثقافى وبفضل ازدهار العلم أنشأ الوزير السلجوقى نظام الملك فى بغداد عام ١٠٦٥ م المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان وكتب عليها اسمه . وقد أنشىء على نسقها مدارس متعددة فى حواضر البلاد الاسلامية بعد ذلك . وقد بنى نظام الملك أسواقا حول هذه المدرسة خصص عائدها لحسابها . وابتاع الوزير لها ضياعا وخانات وحمامات وأوقف عليها وكان يدرس فى هذه المدرسة القرآن والتفسير والسنة والفقه الاسلامى والمذاهب الاربعة والفلسفة والآداب والجغرافيا والتاريخ وعلم السلالات وعلم الآثار وعلم الفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقى والهندسة . وبعد ذلك أنشىء فى بغداد أيضا مركز اسلامى خاص بدراسة القانون والعلوم والآداب والفنون . ويرجع السبب فى انشاء هذا المركز الى أنه حينما نشبت الخلافات بين الأساتذة وطلابهم فى مسألة المذاهب الاربعة التى تمثل فى الواقع المدارس الأربع الكبرى فى الاسلام أنشىء هذا المركز ليجيب على التفسيرات والتطبيقات المتصلة بهذه المذاهب وتكون فى مجموعها الشريعة الاسلامية ، وليلبى رغبات المستفسرين من حنفية ايران الشرقية وافغانستان وتركستان ، ومالكية افريقيا واسبانيا وصقلية ، وشافعية سوريا والعراق وبقية الاجزاء الايرانية وحنبلية الحنابلة الذين كانوا يمثلون سراة المدن

كان هذا فى الواقع كما يقول المؤلف تنظيما حقيقيا للثقافة العامة ومظهرا واضحا للأمية الذى قلده الغرب أخيرا حينما جمع فى جامعة باريس المذاهب المسيحية الاربعة ، والذى تطبقه حاليا هيئة اليونسكو بوسائل حديثة .

قوتا العلم والمعرفة

وفى مدى خمسمائة عام من سنة ٧٠٠ الى سنة ١٢٠٠ ميلادية **سيطر الاسلام على العالم بقوته الذاتية والروحية المتمثلتين فى العلم والمعرفة** ، وهما الأساس الحقيقى لأى حضارة مزدهرة . ولما كان المسلمون هم ورثة كنوز العلم والفلسفة الاغريقية ، فقد تمكنوا فى أوروبا الغربية بوجه خاص من تمثل هذه الحضارة بعد أن أضافوا اليها الكثير . وبهذا الشكل استطاعت الحضارة الاسلامية أن توسع من دائرتها فى المحيط الثقافى فى العصر الوسيط الاوروبى ونفذت بعمق فى الفكر وفى الحياة الأوروبية . **وقد وضع الخلفاء والأمراء نصب أعينهم وفى المكان الاول تطوير الآداب والفنون والعلوم** . ولما كانوا يعتبرون أنفسهم الحماة المتنورين للفلاسفة والأدباء فقد فتحوا أبوابهم على مصاريعها لهذه الطبقة خاصة الشعراء والعلماء منهم . وتقدمت الثقافة حتى وصلت الى عروش هؤلاء الحكام وسرر ملكهم . وفى مراكش تحدث الخليفة الناصر فى فلسفة سقراط وأفلاطون وابن رشد فى نفس الوقت الذى كان فيه نبلاء الغرب يتفاخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة . وفى قرطبة كان الخليفة الحكم الاموى يمتلك مكتبة تضم أكثر من أربعمائة ألف كتاب وهى تلك المكتبة التى لم يتمكن ملك فرنسا شارل الخامس بعد أربعة قرون من حكم المسلمين لاسبانيا من حمل أكثر من ألف كتاب منها . ومع هذا فان الغريب حقا ان الادباء والعلماء العرب لم يبدوا اهتماما حقيقيا بالادب الاغريقى الغزير الذى وجدت فيه أوروبا فى عصر نهضتها منهلا عذب المساغ . **ففى أول الأمر ظلت مؤلفات المؤرخين والكتاب الاغريق وكذلك الادب المسرحى التى كان يستطيع العرب أن يتوافروا عليه بالبحث والدراسة ، ظلت هذه المؤلفات دون أن تجتذبهم اليها** . ربما كان هذا يرجع الى أسباب دينية تتلخص فى مبدأ القضاء على ذلك الماضى الوثنى المخيف ، لكن الادب الاغريقى لم يكن فى جملته تطبيقا خالصا للدين بدليل أن علماء المسلمين توافروا عليه لفترة طويلة بقصد الوصول الى التوفيق بين الفلسفة الاغريقية وما نزل به القرآن . وقد طرح العلماء فكرة الابتعاد عن هذا التراث جانبا بعد فترة طويلة نسبيا ، وبدأ المفكرون والمؤرخون فى القرن الحادى عشر تقريبا فى الاقبال عليه . وكان أولهم ابن قتيبة الذى لم يتردد فى الارتفاع بعقيدته الى المستوى العالمى الشامل ، ذلك **المستوى الذى يجعل المؤرخ يحتضن شمول العصور ويتسع صدره لها جميعا دون تمييز بدرجة تؤهل الباحث لانبثاق سيكولوجية خاصة ترتكز على روح الفيلسوف وروح السياسى حينما يكون الهدف هو الوصول الى مفهوم متبادل بين الشعوب وحتى بين الناس** . ومنذ ذلك الوقت برز التفكير الحر المستقل . وقد أثبت علماء آخرون من المسلمين وجود التفكير الحر المستقل عندهم فى وقت كان التعبير فيه عن الأفكار يعد خروجا خطيرا برغم التقاليد الحرة للاسلام . وفى هذا الصدد يقول المؤلف ان **الشهر ستانى** فى كتابه « **الملل والنحل** » الذى ظهر فى سنة ١١٢٨ يحلل المذاهب المختلفة فى حيدة تامة قد يجدها الانسان بصعوبة عند أى مؤلف مسيحى يعيش فى نفس الفترة . ويضيق المقام هنا عن الحديث عن أهم المفكرين والأدباء العرب الذين أثروا الحضارة العربية :

أعمدة العالم الأربع

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب يحدثنا المؤلف عن أثر الحضارة العربية الغربية فى الاندلس ويذكر ان اسبانيا الاسلامية كان لها أكبر الأثر على أوروبا فى ذلك الوقت . ويبدأ المؤلف هذا الجزء بقوله : ان جامعات الاندلس كان مكتوب على واجهات جامعاتها بحروف من الذهب العبارة الآتية « **عماد العالم أربع : معرفة الحكماء وعدالة العظماء ودعاء البررة وقيمة الشجعان** » .

لم يكن من قبيل الصدفة المحضة أن تحتل المعرفة فى هذه العبارة المكان الاول . **فبالعلم وحده فى الحقيقة تأصلت الحضارة العربية فى اسبانيا بشكل لا يستطيع معه الزمن محوها أو التمكن من ازالة ذكراها** . ان القيمة الحربية للعرب كان لها أثر عظيم فى اسبانيا . لكن هذا الأثر كان سريع الزوال حينما تماسك المغلوبون على أمرهم . والدين الاسلامى رغم جاذبيته غير المتنازع عليها لم يكن بذى أثر بالغ على الفكر الاوروبى . ولم يكن للشريعة الاسلامية المستمدة من القرآن رد فعل على الحياة الاجتماعية للعصور الوسطى الأوروبية بقدر ما كان للعلوم والفنون الاسلامية التى نفذت بعمق فى الثقافة الغربية . ولن نستطيع الحديث عن الحضارة الاسلامية وأثرها على أوروبا دون ان نتصدى للأدب وأثره على اسبانيا الاسلامية . **كان الاحتفال بالشعر بالغا فى الأندلس حيث كان الخلفاء يحبون قرض الشعر ومتعة الاستماع اليه لفظا ومعنى وموسيقى** . وقد حملت قرطبة لواء الشعر واضاءت شعلته وتبعها فى ذلك اشبيلية وغرناطة . ومن خلال القصائد وأغانى الحب انبثقت رومانتيكية الهمت فرسان العصور الوسطى الاوروبيين . واعتبر الشعر الغنائى العربى فى ذلك الوقت من أهم العوامل وأقواها ، اذ تمثله المسيحيون الاسبان وظهر أثره واضحا ومستمرا فى الشعر الشعبى القشتالى وترانم المسيحيين . **واذا كان الحب بنوعية الافلاطونى والعاطفى منذ القرن الثامن الميلادى يعتبر موضوعا أدبيا معروفا فى الشعر العربى فانه من المهم أن نثبت أن هذا الموضوع انتشر فى المنطقة الوسطى من فرنسا فى القرن الحادى عشر بشكل فيه عمق وثراء يفوقان الوصف . وبهذا الشكل قلد الشعراء الجوالون أو** « الطروبادور » بشكل قاطع مقطوعات الرجز الغنائية . ان عادة احترام المرأة التى كان الفرسان يحييونها برماحهم قبل منازلة بعضهم البعض تذكرنا فى الحقيقة بالشعر الاسبانى الاسلامى . وأغنية رولان التى ظهرت سنة ١٠٨٠ والتى تعتبر آية من آيات الشعر البدائى الأوروبى تدين بوجودها الى المنازعات الحربية التى كانت تحدث هنا أو هناك فى الجانب الآخر من جبال البرانس . كذلك عن طريق اسبانيا الاسلامية تأثر **بوكاتشفيو وتشوسر** وبعض القصاصين الالمان . والشعر العربى الاسبانى هو الذى أوحى الى **تنيسون وبراوننج** بأشعارهما . وكوميديا دانتى الالهية تدين بالكثير الى الفيلسوف **ابن عربى الذى عاش** فى القرن الثالث عشر . وهذه الكوميديا الخالدة مملوءة بالاصاف العربية فى المواضع التى تحكى عن الرحلة فى ممالك السماء الغامضة والجحيم .

وبفضل التكوين العقلى للشرق استطاع الخيال الأوربى الانطلاق والتحرر من مسلمات ضيقة وجامدة كانت تقيده . وهذا فى جملته يعتبر أثرا ذا شأن على الحضارة الاوروبية فى ماضيها وحاضرها . فمثلا رائعة دون كيشوت مستمدة من المفهوم الحضارى العربى . وقد كان سيرفانتيس سجينا فى وقت ما فى الجزائر وكان يقول دائما ان كتابه كتب أولا باللغة العربية . وروبنسون كروزو لمؤلفه دانييل ديفوا استوحاه مؤلفه أيضا من الرواية الفلسفية حى بن يقظان لابن طفيل كما ان تاريخ ابن خلدون ومقدمته المشهورة يرجع الفضل فى القاء الاضوا ءعليهما للمستشرقين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وفى الجزء الأخير من الكتاب يسرد المؤلف أسباب انحسار الامبراطورية العربية ويعزو ذلك الى اتساع رقعة هذه الامبراطورية وصعوبة اتصال الخلفاء بالولاه اتصالا مباشرا وسريعا ، وانتشار النزعة القومية فى أوروبا وتعدد لغات الشعوب المحكومة والمذاهب واشتداد ساعد الاتراك السلجوقيين الذين كانوا باستمرار يتربصون للانقضاض على الامبراطورية ، ثم أخيرا الحملات الصليبية التى أضعفت الدولة وهجوم المغول ثم المماليك . وفى الأندلس اشتدت شوكة المسيحيين فبدأوا يهاجمون الامارات العربية هناك واحدة بعد الأخرى . وهكذا الى ان استولى الاتراك على معظم البلاد الاسلامية وغربت شمس الامبراطورية العربية .

عبد العاطى جلال

البحث عن الشخصية المصرية فى الفن

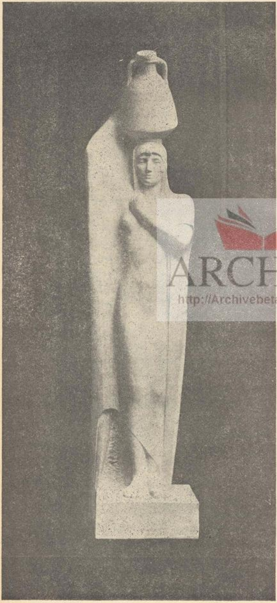
من طبيعة مصر، أنها تعد بمثابة البوتقة العميقة التى تصهر كل المؤثرات الخارجية وتطبعها بطابعها القومى، وما تاريخ مصر العريض كله سوى اختبار مستمر لهذه الطبيعة الفريدة

محمد شفيق

لم تطرح فى حقل فنوننا التشكيلية المعاصرة قضية فنية فى مثل أهمية والحاح القضية التى نتعرض لها الآن : **قضية البحث عن الملامح المميزة والسمات الخاصة لقوميتنا** ، قضية خلق فن قومى ينبض بالحس القومى بالعالم المصرى العربى • بل لم تبرز قضية فنية على امتداد تاريخ فنوننا التشكيلية المعاصرة ، على امتداد الأجيال المتعاقبة أكثر من هذه القضية • **كانت بمثابة السؤال الجوهرى المتصل الذى تطرحه الاجيال باستمرار وتحاول الاجابة عليه :** أى شكل من أشكال التعبير التشكيلى يصلح لتجسيد ما يجيش به وجداننا القومى ؟ وعلى وجه العموم ، **كان تاريخنا التشكيلى هو تاريخ الاجابة عن هذا السؤال** • وقد تعددت الاجابات وتنوعت ، بتعدد الشخصيات الفنية المؤثرة فى تاريخ هذا المجال كله ، وتنوعت بتنوع الاتجاهات والتيارات والمذاهب الفنية التى قادتها بعض الجماعات الفنية وعبرت عنها • تنوع كل هذا وتغير ، أما القضية ذاتها فقد ظلت باقية •

لذا كان ما يدعونا للتفكير باستمرار هو **معرفة الأسباب والدوافع التى تقف وراء تصدر هذه القضية بمثل هذا الشمول والقوة** • وأول ما نتلمسه فى هذا هو حقيقة ان هذه الدوافع

حاملة الجرة للفنان م . مختار



ذات طبيعة موضوعية أكثر منها ذاتية . **فقد تغيرت الشخصيات الفنية طوال تاريخ الحركة الفنية المعاصرة** ، ومع ذلك بقيت قضية الفن القومى قائمة . وفوق ذلك ، نجد حقيقة أخرى : **فهذه القضية تحمل أبعادا هى أكثر اتساعا من ان يغطيها تيار أو اتجاه فنى محدد ، وهى أكثر شمولا من أن تستوعبها جماعة فنية بعينها** ففى تاريخ حركتنا التشكيلية المعاصرة نجد التيارات والجماعات الفنية التى تختلف فى ملامحها الداخلية ، وفى أهدافها الفنية التكنيكية وفى رؤياها للعالم ، لكنها تتفق كلها فى احساسها القوى بالروح القومية .

جيل الرواد

ففى جيل الرواد – وهو الجيل الذى طرحت فيه القضية أول ما طرحت – نجد **مختار وراغب عياد ومحمود سعيد وناجى** • وكل من هؤلاء الفنانين الرواد ، كان يسعى للبحث عن اسلوبه الفنى الملائم للتعبير عن شخصيته المميزة • أضف الى ذلك ان هذا التميز والتباين كان أيضا فى مجال الوسائط الفنية ذاتهـــا : **ففى حين كان مختار يخلق عالمه التشكيلى بالحجر ، كان بقية رفاق جيله يبدعون عوالمهـــم التصويرية باللون** والخط • ومع ذلك – ورغم اى من هذه العوامل المختلفة – فقد كان يجمعهم ذلك الحس القومى الذى نراه واضحا فى اعمالهم • وفى الجيـــل التالى – وهو الجيل الذى نشأ تاريخيا بعـــد الحرب العالمية الثانية – نجد جماعة فنية مثـــل « **جماعة الفن المعاصر** » تستانف اعـــادة خلق هذا العالم القومى من جديد : **نجد الجزار وحامد ندا وابراهيم مسعود وماهر رائف وحســـين يوسف امين** • **ثم نجد مدرسة حامد سعيد** • كما نجد بعض الفنانين المستقلين أمثال **حامد عبد الله وتحيه حليم وجمال الســـجينى وانور عبد المولى ومحمود موسى** • وما نجده فى هذا الجيل ، نجده فى الجيل الذى يعقبه تاريخيا : جيل ثورة يوليو •• الجيل الذى تفتحت مواهبه الفنية ورسخت اساليبه ووسائطه الفنية الخاصة مع بدايات الثورة : مثل **ادم حنـــين وهجرس وبادبية سرى وانجى أفلاطون وسيد عبدالرسول والنجدى وصالح رضا وطه حسين وسعد كامل وجمال محمود ورفعت أحمد** • وكان لا بد أن يؤتر هذا الامتداد التاريخى الذى أخذته القضية على طبيعة تكوين الجيل الذى نرى اليوم ملامحه الفنية وهى تتشكل : جيل الفنانين الشبان • ومن الممكن ان نشير الى بعض من فنانى هـــذا الجيل ، **كعلى دســـوقى والرزاز والداخـــلى** والرشيدى ، لكى نستكمل ايضاح الصـــورة الشاملة التى نحاول الآن عرضها •

كل هؤلاء الفنانين الذين يشـــكلون ملامح الاجيال المتعاقبة على حركة فنوننا التشكيليـــة كانوا يختلفون فى أشياء كثيرة ، لكنهم يجتمعون حول قضية واحدة : **قضية البحث عن الشخصية المصرية المميزة** •

القومية وشخصية الفنان

ونرى – قبل أن نستأنف دراســـتنا – أن نتوقف عند نقطة لها أهميتها : **فهذا البحث الذى قاد هؤلاء الفنانين لم يكن أبدا من قبيل الابحاث العلمية المجردة التى يجريها العلماء فى معاملهم حيث يشترط ان تتوافر أعلى درجة من الاستقلال عن الذات والحيدة الكاملة عن الاهواء الشخصية ومن الامزجة المختلفة ، اى عن كل ما يؤدى الى كافة الاسقاطات الذاتيـــه** • وعلى النقيض من ذلك ، كان بحثهم عن وســـائل التعبير الملائمة لاكتشاف شخصية مصر ، يجرى فى نفس الوقت مع بحثهم المستمر عن شخصياتهم الذاتية ،وعن أساليبهم الفنية الخاصة • بل انهم ليعتبـــرون – فوق ذلك – ان بحثهم عن شخصية قوميتهم هو السبيل المباشر والطبيعى المؤدى الى اكتشاف ذواتهم • وان ما لاحظـــه النـــاقد الفرنسى « ماكسيميليان جوتييه » فى معرض حديثه عن فن مختار فى الثلاثينات ، ليصلح تماما كمدخل لتفهم القضية كلها : « ان الخصـــائص الفردية لا يتحقق نماؤها وازدهارهـــا الا فى اطـــار القوميات » (بدر الدين أبو غازى : المثـــال مختار ص ١٦٨)

التراث ولغة الفن

على أى أساس كانوا يعتمدون فى بحثهم هذا ؟ وبأى وسيلة كان يجرى هـــذا البحث ؟ كانوا يبحثون عن « جوهر » شخصيتهم القومية •وفى سبيل ذلك ، لم يكونوا يعتبرون فى أى لحظه ان مجرد تصوير موضوعات الفنانين الفرنسيين والأجانب فى اواخر القـــرن التاســـع عشر ، **مليئة بكل ما كان يوجد فى الحياة المصرية ، بل وفى أغوار الحياة الشـــعبية ذاتهـــا • كانت** موضوعاتهم قومية أو محلية ، غير أن ما كـــانوا يفتقدونه هو الشىء ذاته الذى كان يجرى هنـــا البحث عنه : **الوجدان القومى المتغلغل فى نفس الفنان ، الروح التى تنبض بالوجـــود وبالمزاج وبالحس القومى • فهؤلاء الاجانب كانوا يرون مصر لكن برؤية اجنبية** • وقد تختلف آثارهم الفنيـــة التى خلفوها لنا فى قيمتها من مجرد أعمـــال تسجيلية أو تقريرية بحتة مثل أعمال « **رينو** » **أو** « **برشير** » ، **أو** » **فرومنتان** » ، الى أعمـــال فنية تعبر بعمق عن شخصية خالقهـــا مثـــل أعمال « بيبى مارتان » ، لكنها تتفق كلها من حيث خلو نسيجها من أى أثر بالحس القومى ، أو بالرؤية القومية • وبالطبع لم يكن أحـــد ينتظر أن تحقق ذلك •

اذن ، لم يكن فى وسع الموضوعات القومية وحدها أن تجسد هذه الرؤية القومية • أصبحت القضية هنا منحصرة فى « الأسلوب » الفنى ، فى المنهج ، فى طريقة معالجة الموضوع • والأسلوب الفنى هو قبل شىء « **اللغة** » التى يحدثنا بها الفنان عن أبعاد عالمه • ولغة الفن هنا أكثر اتساعا وشمولا واستمرارا من أية لغة للكلام البشرى • انها لا تتأثر بالأعراض التاريخية ، وهى أقل تعرضا لاختلافات الزمن وتقلباته • ولغة الفن أكثر استعدادا لامتصاص كافة العوامل والمؤثرات النفسية والوجدانية والفكرية التى تعتمل فى كيان أمة من الامم ، واختزانها فى قلبها •

من هنا اكتشف الفنان المصرى الحديث لغته الفنيه من خلال التراث الفنى القديم على امتداد تاريخ مصر العريض ، اكتشف من خلال التراث القديم لغته القومية الخاصة • هذه اللغة التى اختزنت وامتصت فى قلبها آثار حضارات عريقة متوالية ، نفضت فى مسيرتها العريضة أشياء واستبقت أشياء أخرى ، وما استبقته كان خلاصة تفاعل الوجدان القومى الممتد •

هذه الأشياء التى تستبقيها الحضارات سواء أسماها البعض بالرموز الباطنة ، أو أرجعها البعض الى فاعلية اللاشعور الجمعى ، او وجدها البعض الاخر كعنصر ضرورى من عناصر استمرار تطور التاريخ ، **كانت هى الأساس الذى اعتمد عليه الفنان المصرى الحديث فى بحثه عن الشخصية** المصرية القومية • واذا كانت لكل لغة مفرداتها فان لغة الفن القومية التى نعنيها هنا ، قد تحددت مفرداتها فى مصر وفقا لظروفها الحضارية والتاريخية والجغرافية • ولقد اكتسبت غنا وتنوعا وثراء بالذات بفضل وضعها هذا • فخلال آلاف السنين تتابعت على مصر حضارات قديمة عريقة : **الحضارات المصرية القديمة ، والقبطية والاسلامية والعربية** • كما أن وضعها الجغرافى ذاته قد جعلها تحمل رسالة حضارية عظيمة هى أن تؤلف بين جزئى العالم المتمايزين على مر القرون ، وهما الشرق والغرب • ومعنى ذلك كله ان تتزايد حصيلة مفردات هذه اللغة القومية، وان تتنوع • **ومن طبيعة مصر ، من طبيعة هذا الجزء من العالم ، انها تعد بمثابة البوتقة العميقة التى تصهر كل المؤثرات الخارجية ، وتطبعها بطابعها القومى وما تاريخ مصر العريض كله سوى اختبار مستمر لهذه الطبيعة الفريدة •**

وحينما أشرفت مصر على عصر العالم الحديث لم تتخل عنها هذه الطبيعة الخاصة • ففى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين – **وهى الفترة التى كان يتم فيها عملية التطور الحديث** – كان كل شىء فى بلادنا يعمل على انصهار المؤثرات الأجنبية الحديثة فى بوتقة التراث القومى القديم • وقد كانت أيضا الظروف السياسية التى عاشتها البلاد فى هذه الفترة – حينما كانت بلادنا مقيدة تحت سيطرة قوى أجنبية وتسعى للتحرر منه – عامل من العوامل القوية الدافعة لمزيد من عمليات الانصهار هذه •

فى كلمة : كان أكثر ما يهم الفنان المصرى الحديث هو بحثه عن عنصر « **الاستمرار** » فى الحضارة **والتاريخ** • كان أكثر ما يهمه هو التعبير عن واقعة المعاصر من خلال امتداده العريض فى الماضى • وبالاضافة الى كل ماسبق كان هناك أيضا الجانب « الأنثروبولوجى » الذى يساعد الفنان تماما فى خلق وسيلته للتعبير • وما لاحظه « رينيه وييج » أثناء زيارته لمصر عام ١٩٦٥ ، هو نفس ما لا حظه كل فنان مصرى حديث • وقد عبر ويج عن ذلك فى دهشة المكتشف : « **لقد أثار انتباهى ان أستشف فى وجوه الناس الذين التقيت بهم من شمال مصر الى جنوبها ، وفى وجوه رفاقى فى السفر، استشف الشبه بأولئك الذين احتفظت لنا رسوم المقابر أو الصخور المنحوتة منذ الدولة القديمة بصور وجوهم وملامحهم** » • فهل هذا هو نفس الشىء الذى دفع حامد سعيد أيضا لأن يلتقط من صورة الفن المصرى عبر تاريخه كله ، عنصر الاستمرار والبقاء ؟ ولقد قال فى ذلك • « **أن نتكلم عن الفن فى هذه الأرض خلال العصور المختلفة ، كما لو كان لنا واحدا يتطور ، أمر لم يصبح بعد عاديا مألوفا ، ولكنه ضرورى** » •
(حامد سعيد : الفن المعاصر فى مصر)

مختار والتراث

بهذه الرؤية الفنية ، وبهذه اللغة المشبعة بأرجاع حضارات ممتدة ، سينحت أول مثال مصرى حديث هو محمود مختار تماثيله الخالدة • وستعود فى أعماله صور تلك النساء بأزيائهن التقليدية التى لم تتغير ، وبملامحهن وحركاتهن منذ أربعين قرنا • سيعود فى أعماله نفس الحس بالصفاء والهدوء والكمال الذى نلمسه فى كل

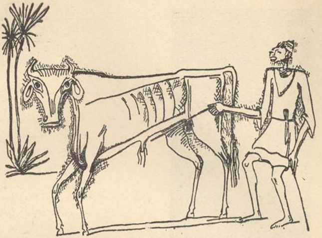
آثار مصر القديمة • وستجلب هذه الملامح الفنية معها انها ذلك الشعور بالعظمة والضخامة والقوة الملازمة لكل عمل مصرى قديم • وسنلمس فى فلاحات مختار الشىء الكثير من الرقة • وسنجد فى الخطوط التى تحدد شكل أرديتهن أو حركة التفاتتهن الخفيفة نحو النهـــر ، أو حملهن لاناء رشيق ، أو اشراق وجوههن العذرية بابتسامة عذبة ، سنجد فى هذه الخطوط أكثر الايقاعات دقة ورهافة • هى نفس صفات الخطوط الشائعة فى كل التماثيل الفرعونية • فهل كان عمل هذا الفنان مجرد تصوير لحياة ماضية ، سالفة ؟ كلا لقد كان « **الوعى** » بالماضى عند مختار وسيلة تجسيد ملامح الحاضر ذاته • وقد كان يسعى للتعبير عن خلود ذلك الحاضر ، وعن مثاليته أو نموذجيته • وكانت عملية ربطه بالماضى ، او عملية « **التبعيد** » التاريخى كما يقول رجال الدراما ، كافية لتكسبه هذا الحس المثالى المسيطر كافية لتعميق الاسطورة • وقد اكتشف مختار نفس الشىء الذى سيكتشفه رينيه ويج بعد ذلك بثلاثين عاما : استمرار الماضى فى الحاضر •

غير أن الفن فى صميمه عملية خلق مستمرة للأشياء ، وابداع متجدد للحياة • وحينما كان مختار ينجح فى التقاط الجوانب الخالدة فى نماذجه المثالية ، كان يعبر هذا عن حلم غده ، عن الصورة التى يتمثلها لمستقبل العالم الذى يعيشه • كان يرى نفس المعنى الذى أراد مثال عظيم هو « **رودان** » أن يؤكده : « **ان الفن الخفاق بالحياة لا يعيد أعمال الماضى ولكنه يكملها** » • وهذه مهمة ليست أبدا بالمهمة الميسرة ، وخاصة فى حالة مثل حالة مختار ، وفى ظروف مثل ظروفه • وقد استطاع ناقد من نقاد الفن معاصر لمختار هو « **أوك بنو** » ، أن يلمس جوهر القضية ، فى كلمة عميقة كل العمق : « **كم هى تركة عظيمة ، وامتياز له خطره على فنان حين يكون أسلافه هم هؤلاء العمالقة الذين أقاموا تلك التماثيل الفرعونية العظيمة** » فهل كان فى فى إستطاعة هذا الفنان ـ والحالة هذه ـ أن يعيد أعمال الماضى وأن يرجع مجدها السالف ؟ واذا كان عليه ـ كما يقول رودان ـ أن يكملها فبأى وسيلة ؟ هنالك باستمرار تقوم عوامل « **ضغط** » يتعرض لها الفنان من قبل التراث القومى الذى ينتمى اليه • **ان التراث يميل لأن يدفع الفنان لتحقيق تواصله واستمراره ، واعادة بعثه من جديد** • وكلما كانت الفجوة عميقة بين حاضر الفنان وتراثه القديم ـ كما هو ماثل فى حالة مختار ـ زادت عوامل الضغط على الفنان ، لأن الفنان يصبح فى هذه الحالة مطالبا بالبحث فى احياء الروابط بين القديم والجديد والتى اما أن تكون قد تقطعت تماما ، أو أن تكون قد أصابها نوع من الجمود أو الضعف •

ومختار كنحات لم يكن أمامه نبع أكثر غنى على امتداد تراث بلاده النحتى بأكمله من النحت المصرى القديم • وقد كانت فترة نضوج الوجدان القومى عند هذا الفنان ، هى نفس الفترة التى تم فيها اكتشاف الكثير من الآثار المصرية القديمة وكانت حفائر « **كارتر** » **و** « **دى مورجان** » و « **كوبل** » تتم على مسمع من كل آذان فى العالم • وقد أوقدت فى نفوس الناس جذوة حب التعرف على حضارات الشعوب فى العصور القديمة من تاريخها البشرى • وبمعنى آخر ، أوقدت جذوة الوعى باستمرار العنصر الانسانى وامتداده عبر تاريخ العالم الطويل •

الرؤية الشعبية والتمرد »

ومع مختار سيبرز فى جيل الرواد فنان



فى الحقل للفنان د · عياد

يتوقف عليه تحقيق التمرد الكامل على القوالب الاكاديمية الجامعة ، والرؤية الأجنبية الغربية : انه الفنان المصرى **راغب عياد** · كما يتوقف على هذا الفنان أيضا ميلاد اتجـاه كامل فى الفن المصرى المعاصر ، سنرى نموه المستمر على امتداد الأجيال اللاحقة كلها ، حتى اليوم · اتجاه يستمد منابع الهاماته الفنية من مصدر مختلف تماما عن كل ما كان شائعا فى عصره : **الفن الشعبى** وعلينا ان نلحظ عملية التطور الداخلية لهـذا الاتجاه التمردى · فقـد بدأ من مجرد تنـاول موضوعات الحياة الشعبية ، الى محاولة التوغـل فى صميم الرؤية الشعبية ذاتها ، وتبنى وجهـة نظرها للعالم ، ومن ثم استلهام الوسائل التعبيرية الخاصة فى الفن الشعبى ، سواء فى تناول الخط أو اللون أو تصميم التكوينات التشكيلية ·

لندعه يسرد لنا قصة تمرده التى بدأت من تجاوز تعاليم دراسته الأكاديمية ، الى الارتبـاط بفن الشعب :

« **ان نافذة انفتحت أمامى وأرتنى عالما جديدا عالم الحياة الحرة الطليقة التى تعكس فى النفس الذاتية المستمرة من أحلام داخلية ، لأنى كنت مؤمنا بمذهب الحرية فى الفن ، وبأن مدرستى هى الطبيعة المجردة بكل ما حوت ووحيى هـو الشعب ، أتلقى قواعدهما وأصولهما من الطبيعة بما تشتمل من موضوعات متعددة وعناصر متنوعة من ضمنها الفلاح والعامل وكافة طبقات الشعب والحيوانات الأليفة المشـاركة لهم فى كفاحهم اليومى ·· هؤلاء هم حقا العناصر التى أحببتها، واليهم يرجع الفضـل فى معاونتى على تفجير الشعور واطلاق المواهب الفنية التى كانت كامنة فى قرارة نفسى** » (**راغب عياد : (أحاديث فى الفنون الجميلة ص ٣١)**)

وتغتنى لغة راغب عياد الفنية من حيث شمول مفرداتها وتنوعها، أى بفضل تحررها من القوالب والجمود · ففى لوحاته التى بدأت تتحرر من أسر الكلاسيكية والاكاديميـة وكذلك من أسر نوع من النزعة الانطباعية الايطالية التى استمدها من أستاذه **فورتشيلا** ، فى هذه اللوحات نلمس تأثرا واضحا بتلك الخطوط السلسة ، القوية ، الخالية من الظلال ومن التجسيم ومن المنظور ، هـذه الخطوط التى نراها منتشرة على جدران قبـور ومعابد المصريين القدماء · ونلمس أيضا نفس النقاء اللونى ، واقتصاده وتكثيفه · كما نجـد فى نفس الوقت تأثرا واضحا بنفس مفهـوم التصوير الحائطى المصرى القديم من حيث وضع



للفنان محمد ناجي

الأشياء والموضوعات التصويرية على خطوط متوازية متتالية بعضها فوق البعض ، أو على أنهر متعاقبة متسلسلة استعار راغب عياد ، اذن ، **نفس اللغة المصرية القديمة** : فقد كان التصوير المصرى القديم بالفعل نوعا من أنواع الكتابة • وهذه اللغة ذاتها قد عرفت امتدادها الطبيعى فى الفن الشعبى ، لأن نفس العناصر الاساسيه المكونة لها سنجدها تتردد بين أيدى الفنانين (أو الحرفيين) الشعبيين ، حينما ينسجون قطعة نسيج أو يصنعون آنية فخارية ، أو يجدلون سلة من السلال • **والغنى الفنى الكامن فى الفن الشعبى قد لمسه راغب عياد بحساسيته المرهفة وأدرك وظيفته الحضارية ودوره التاريخى من حيث اختزانه واحتفاظه فى قلبه بكل تنوع مفردات اللغة القومية على امتداد تاريخ باكمله** •

لقد أدرك هنا نفس ما أدركه الفنان **محمد ناجى حينما قال : « ان الفن الشعبى فى مصر يستوحى الفن المصرى تارة ، والفن القبطى أو المسيحى تارة أخرى ، ويستوحى أخيرا الفن العربى أو الاسلامى** • وفى أعمال راغب عياد نلمس تداخل هذه المؤثرات الفنية القديمة ،ونجد نوعا من التمازج والتركيب بين العناصر الفنية القومية المختلفة ، مضافا الى هذه التركيبة المعقدة نوع من الحس التعبيرى ومن المزاج الشعبى نلمسه خلال هذه الخطوط المرحة الكاريكاتيرية ، والألوان الطليقة الصارخة أحيانا ، والشفافة أحيانا أخرى •

كل من أتى بعد راغب وأراد أن يتخذ من هذا الاتجاه وهذه الرؤية الشعبية أسلوبا أو لغة للتعبير ، قد تأثر بفن هذا المصور • **ومكانته فى الفن المصرى المعاصر هى مكانة الاب الروحى لاتجاه كامل فى الفن** • فقد كان من العسير أن يظهر فنانون مثل أولئك المنتمين « **لجماعة الفن المعاصر** » كعبد الهادى الجزار أو حامد ندا أو ماهر رائف ، أو أن يظهر فنان مثل حامدعبدالله وتحية حليم ، دون التمهيد الخطير الذى قام به راغب عياد ، ودون تحقيق مرحلة الانتقال الصعبة من الجمود الاكاديمى ومن النزعة المدرسية الى مرحلة التحرر الفنى الكامل ، وظهور بوادر تأثرت بالرؤية الشعبية •

وهذا هو نفس المفهوم الذى نادى به ناجى فى نهاية العشرينات ، حينما دعا لدراسة الفن

الشعبي دراسة رسمية جـادة ومنظمة ، وكانت أول دعوة من نوعها في ذلك الوقت ، وقد قال « **أرجو أن يفسح لهذا الفن** مكان **في دراسـة الفنون الجميلة ، حتى نكتسب بفضل ما يحدثه في نفوسنا من رد فعل هي مناعة تحمينا من أخطار الأكاديمية ، وتجدد في نفوسنا روح الابداع والتجديد** » .

التركيب والتفاعل

لم يكن نصيب تصوير محمد ناجي في تأثره بالفن الشعبي بمثل نصيب تصوير راغب عياد ولكننا ، مع ذلك ، لا نسـتطيع ن نغفل روح البساطة ورغبة التسطيح والغاء الظلال وبهجة الألوان في تصوير ناجي . وهذه الملامح الفنيـة في جوانبها البارزة ، انمـا تكشف عن روح شعبية أصيلة . **وهـذه الملامح الفنية عند ناجي انما نجدها خلف كل العناصر المكونة لعـالمه التصويري . وما أكثر هذه العناصر وما أشـد تنوعها . وهي تتلاقى في تصـويره على نحو** تركيبي غريب . لقد تأثر في مطلع تحرره الفني بأسلوب التأثيريين ، ثم تأثر بالنزعة الوحشـية والتعبيرية ، لنجده بعد ذلك يتوقف طويلا عند الأسلوب التركيبي المعبر الذي نلقاه في لوحـات فنان مثل **بول جوجان** . كان ناجي واسع المعرفة عميقا في ثقافته الفنية . هضم كل ما جاءت به عبقرية عصر النهضة الفنية ، وقد أمدته بالفهـم القدير لقوانين التصوير الاساسية . واستوعب روح التجديد الشاملة في الفن الحديث ، التي تولدت من الوعي بالتراث الفني العالمي ، وذلك لأول مرة في تاريخ الانسان . **واستشعر بكل عمق أبعاد الحساسية الحديثة التي تنجذب الى صور الفن الخشنة التي تعبر عن وجدان لم يزل يواجه لغز الوجود وغموضه كالفن الاطريقي ، أو الفـن الآرخي الاغريقي ، أو الفن القوطي .**

لقد كان تصوير ناجي بمثـابة النموذج الحي لامكان التقاء المفهوم الشرقي مع المفهوم الغـربي في الفن . ألم يكن بهذا يلخص ذات الرسـالة الحضارية التي آلت الى مصر أن تحققها وتقـوم بها ؟

لقد بدأت العناصر الفنية المتباينة ، التي أثرت على تصوير ناجي طوال حياته الفنية ، تتمازج وتتداخل وتتفاعل ، وتخلق من تفاعلها نوعـا من التركيب المعقد ، الذي يصهر الجزئيات الصغيرة المتنوعة المختلفـة في كيان واحد متبلور له شخصيته الخاصة وملامحه المميزة .. بدأ ذلك يتبلور في أعماله اثناء اقامته الطويلة في بـلاد الحبشة . وبالطبع كانت للحياة الحبشية ، لحضارتها الخاصة ومناخها المميز وجوها الشرقي ، دور له أثره في تلوين هذه التركيبة الوليدة . وبهـذا المؤثر الجديد ، الا يبرهن فن ناجي على البعـد الافريقي لمصر ؟ ألا يبرهن على تنوع وغنى اللغـة القومية المصرية ، واتسـاع مصادر تجددهـا ونموها المستمر ؟

فنحن أمام لوحـات ناجي لا نسـتطيع أن نستخرج عنصرا واحدا في وسعه تلخيص هذه التركيبة الغنية في فنه . نحن أمام لوحاته انما نتساءل باستمرار عن سر حيويتها ، تماما كمـا تساءل حامد سعيد عن المؤثرات الفنية الداخلة في عالمه التصويري :

« **هل هو ازجاج الملون ، أم الكليم الشعبي ، أم الوان مقابر الأشراف بالقرنة ؟ أم هي بهجة البحر الأبيض ؟ أم الحبشة بقيظها وأفريقيـا بألوانها ؟ أم هو سوق القرية ؟ أم وجدان ذلك الفنان الذي يحلم بالتواجد في كل الأمكنة ، غير**

قانع بمكان .. كان له مرسمه بالاسكندرية وبالريف وبقبرص وعلى النيل وفى سفح الاهرام ، وكان كل مكان مرسما لذلك الفنان » . (حامد سعيد : الفن المعاصر فى مصر)

وبجانب هذا التنوع والثراء فى لغة الفن القومى عند ناجى ، وبجانب تجديداته المحسوسة فى التصوير المصرى ، نجد تمرده ـ الذى يحمل فى طياته مفهوما خطيرا ـ على اطار لوحة الحامل ذاتها . وهذا التمرد الخطير ـ وباعتبار أسبابه الفنية وبواعثه التكنيكية البحتة ـ ينطوى على ابعاد أكثر اتساعا ، ابعاد اجتماعية فى جوهرها فقد نادى بضرورة خلق اللوحة الجدارية الضخمة لتكون اطارا جديدا للتصوير المصرى ، بدلا من لوحة الحامل المحدود . **والقضية هنا ، بالطبع ، هى قضية جمهور ، قبل أن تكون قضية أى شىء آخر .** فاللوحة الجدارية انما خلقت دائما لتغطى الأماكن العامة المفتوحة ، وتجىء لتتسع باستمرار للجمهور الكبير . فهل هذه عودة للاطار التصويرى القديم ، اطار التصوير الجدارى عند الفن المصرى القديم ؟

الأسلوب الشخصى

اذا كان كل فنان من فنانى جيل الرواد ، قد أثار بعمله وبوجوده قضية من قضايا الفن ،مثلما أثار مختار قضية خلق الفن النحتى المصرى المعاصر وأثار راغب عياد قضية المنابع الشعبية للتصوير المصرى ، وأثار ناجى قضية الأبعاد الشرقية والافريقية للفن المصرى ثم قضية التصوير الجدارى الجديد ، فان محمود سعيد قد أثار بعمله وبوجوده قضية الاسلوب الشخصى للفنان المصرى ـ الأسلوب الذى تتلاقى فيه نفس المؤثرات القومية التى نجدها تتلاقى فى أعمال غالبية الفنانين المصريين المعاصرين . لكنها هنا تتشكل بكل الابعاد النفسية والذاتية للفنان ، لتخرج فى النهاية بالاسلوب الشخصى الواضح السمات .



بنت البلد للفنان م . سعيد

فكل من يرى أعمال الفنانين المعاصرين كمحمود سعيد ـ باستثناء أعمال نادرة لمختار واللوحات التعبيرية لراغب عياد ولوحات ناجى فى مرحلته الحبشية ـ يمكن بسهولة أن يجد لها أشباها فى بلاد أخرى . ونعنى بذلك أعمال فنانين مثل **أحمد صبرى ومحمد حسن ويوسف كامل .** كل من يرى هذه الاعمال يجد نفس اللمسات

الانطباعية التى نلقاها عند الكثير من مصورى العالم الانطباعيين ·

لنرى ، كيف ياتى لنا الاحساس بالأسلوب الشخصى فى لوحات **محمود سعيد** · وأول كل شىء ينبغى اعتبار المفهوم التصويرى للوحة بوصفها عالما داخليا متكاملا ، لها خصائصها المستقلة نوعيا وكيفيا عن منطق الواقع الطبيعى وعلى أساس هذا المفهوم أقام محمود سعيد دعائم تكويناته التشكيلية · ان التكوين يتشكل عند الفنان وكأنه الاثر الذى تخلفه بصمته · فالنماذج والعناصر والوحدات التى يحتويها التكوين ، انما تخلق من تفاعلها علاقات معينة ، **تجىء** لتترجم احساس الفنان بالعالم · والتكوين انما يخلقه الفنان ليعطى الايحاء « **بوحدة** » شعور نلمسها بمجرد الانطباع الأول ·

ومع أن فن محمود سعيد قد بدأ من التمرد على المنطق الطبيعى للواقع ، فانه قد بدأ أيضا من رفض مفهوم اللوحة كسطح ذى بعدين ·· **والأمر الذى يثير الدهشة أن لوحاته وان كانت مفعمة بالتجسيم أو بمعنى أدق بالسطوح المكورة الا أنها تقوم على الاحترام المحسوس لسطح اللوحة** · ولسنا نجد فى هذه اللوحات أى منظور ذى منطق فوتوغرافى · فمثلا ، من النادر تماما أن نعثر على أية لوحة من لوحات محمود سعيد خالية من العنصر الطبيعى ، وخاصة نهر النيل ، الا أننا لا نشاهد فى أى منها « **منظرا** » طبيعيا · حقا سنجد فيها نوعا من الاحساس بالأبعاد · لكن ما أكثر اختلافه عن تلك الأبعاد الطبيعية الفوتوغرافية التى نلقاها فى أعمال الكلاسيكيين والأكاديميين · وسيعرف هذا الفنان كيف يخلق من الأبعاد المختلفة للواقع كيانا واحدا متماسكا · هذا الكيان المتماسك قد تصنعه القوائم المتدرجة على امتداد وحدات التكوين · وقد تذيبه الخطوط والمساحات المتداخلة ، فتكثفه وتبلوره · وقد توحى به الأشكال الملخصة المبسطة التى بعدت كثيرا عن مصادرها فى الواقع الطبيعى ·

لذا يجىء التكوين فى تصوير محمود سعيد وكأنه تكوين النحت البارز ، خاصة النحت المصرى البارز : دعائمه هو المسطح · لكن هذا المسطح يبدأ يتحطم ويتهشم بفضل البروزات التى تتشكل فى الأجسام الناتئة ، وبفضل التكوير فى الأشياء ، وبفضل خلق نوع من المستويات المختلفة المتداخلة تحل محل المتطور الفوتوغرافى ·

من هنا نلمس هذه النزعة الهندسية الواضحة فى تكوينات هذا الفنان · وقد استمدها من دراسته العديدة لفنون التصوير فى عهد النهضة ومن تحليله لهندسة الصورة · ولكنه استخدم هذه الهندسة ـ كما يقول ـ **رمسيس يونان** ـ استخداما خاصا · ويستطرد يونان فى دراسته للجوانب الهندسية فى تصوير هذا الفنان : « **لم يجعل منها مجرد وسيلة مستترة للايحاء بالتوازن والانسجام كما فعل أساتذة الفن الاوروبى ، وانما جعلها نظاما صريحا صارما يفرض على اللوحة فرضا ، وكأنه حكم القانون أو حكم القدر ، فيذكرنا على نحو ما بهندسة الفن الفرعونى ، أو بالأحرى السومرى** » ·

وبهذا المفهوم عن التكوين المستقل ، هذا التكوين « الشخصى » ، وبذلك الخلق الجديد للأسلوب الذاتى ، أراد محمود سعيد أن يبدع لغة يشيع فيها أعلى درجة من الحس القومى ، وتنبض بكل ما هو مصرى ـ لغة تعبر عن كافة الموضوعات التى تمثل صميم الحياة المصرية : بسمائها ، ونيلها وشراع مراكبها وخيولها ، بمقابرها العتيقة وشواريفها البدائية وخيولها العربية الاصيلة ونخيلها المتداخل السامق ، بفلاحاتها المحجبات ، والمكشوفات الوجوه ، بتقاليدها الشعبية المميزة ، وبمشاهد رقصات « الزار » و « الذكر » ·· لغة تتغنى بعظمة هذا العالم الرحيب الممتد ·

محمد شفيق

لوحتنا الغلاف



للفنان السويسرى العالمى ألبرتو جياكوميتى (١٩٠١ – ١٩٦٦) الذى يعد الوجه الآخر للنحت العالمى الحديث ، والذى يواجه المثال البريطانى الشهير هنرى مور ، وقد ولد جياكوميتى بعد مطلع القرن العشرين بعام واحد ، ولكنه توفى قبل أن يغيب هذا القرن بخمسة وثلاثين عاما كاملة • وجياكوميتى ظاهرة ذات أهمية خاصة فى النحت الحديث ، ان تماثيله الدقيقة الرفيعة المستطيلة ، ذات الأشكال المشوهة الحادة التى يلعب فيها الفراغ دورا كبيرا ، تبدو متشابهة على كثرتها ، وتبدو كما لو كانت متأثرة بفن الحفر • والواقع أن كل تماثيل جياكوميتى نجدها وقد لعب فيها الفراغ دورا لا يقل أهمية عن دور الكتلة نفسها ، بل ان الفراغ هو الذى يفرض نفسه على الكتلة ، ولان الواقع كان يشد جياكوميتى مثلما كان تجذبه الخيـال ، ظلت أعماله تتأرجح بين التشخيصية وبين التجسيدية ، بل كثيرا ما كانت تجمع بينهما فى التمثال الواحد •

« دار الكتب رقم الايداع ١٤٠/١٩٦٩ »